روايات تاريخ الإسلام

فتح الأندلس

جرجي زيدان

تقديم ودراسة

د. محمود علي مكي



١٩٨٤

تصدر عن مؤسسة
دار الهلال
أسسها جورجي زيدان
سنة ١٨٩٢

* * *

رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة
الفنان
جمال كامل



تصدر عن مؤسسة
دار الهلال
أسسها جورجي زيدان
سنة ١٨٩٢
* * *
رئيس مجلس الإدارة
مكرم محمد أحمد

الغلاف بريشة
الفنان
جمال كامل

رقم الايداع : ٢٣٦٤ / ٨٤
الترقيم الدولي: ٥-٨٢-٠-١١٨-٩٧٧

مقدمة

منذ أن قام العرب بتلك الملحمة الرائعة التى تتمثل فى فتح الاندلس على يد طارق بن زياد فى رمضان سنة ٩٢ (يولية سنة ٧١١) اصبح حديث هذا الفتح موضوعا لا تكف عن الخوض فيه اقلام المؤرخين المحققين ويحيطه الخيال الشعبى بهالات من الاساطير والاحاديث الخرافية التى تجرى على ألسنة القصاص ، سواء فى العالم العربى أو فى بلاد الغرب ٠ وقد علق على ذلك مؤلف أندلسى قديم هو لسان الدين بن الخطيب (المتوفى سنة ١٣٧٤/٧٧٦) اذ يقول :

« وحديث الفتح ، وما من الله به على الاسلام من المنح ، واخبار ما أفاء الله به من الخير على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد ، لطارق بن زياد ، مملول قصاص وأوراق ، وحديث أفول واشراق ، وارعاد وابراق ، وعظم امتشاش ، وآلة معلقة فى دكان قشاش »٠

هذا ما كتبه ابن الخطيب الغرناطى منذ أكثر من ستة قرون ٠ ومع ذلك فان أقلام الكتاب وأخيلة الرواة لم تمل ذلك الحديث ، ولم تكف حتى اليوم عن ترديده بصورة متنوعة بقدر تنوع أهواء اصحابها وأمزجتهم واتجاهاتهم القومية أو الدينية ، ومدى علمهم بملابسات ذلك وأحواله وأحداثه ٠

وقد عاد المثقفون العرب فى عصر النهضة الحديثة الى الاهتمام باستعادة أحداث فتح الاندلس ، وذلك فى جملة عنايتهم بتراثنا القديم ، اذ كان فى ذلك تأصيل لمشاعرنا القومية ، وتذكير للامة

العربية الاسلامية بصفحة مشرقة من ماضيها المجيد • وقد بدأ ذلك الاهتمام منذ أواخر عهد الخديو اسماعيل ، حينما اقبل المثقفـون المصريون على نشر أمهات كتب التراث ، وكان ذلك جزءا من برنامج العمل الوطني الذى اضطلع به عدد من أعلام مصر كانوا يهدفـون الى انماء وعينا القومى المتلهف الى ثقافة عربية جيدة تقف أمام تيار الثقافة العربية الوافدة • وعلينا أن ننوه بالدور العظيم الذى قامت به فى نشر أمهات كتب التراث التاريخى والادبى القـديم مطبعة بولاق وجمعية المعارف التى تأسست سنة ١٨٦٨ •

وقد كان للاندلس وتاريخها وأدبها نصيب من هـذه العنـاية بالتراث القديم ، اذ كان بين أمهات الكتب التراثية التى بودر بنشرها ما تضمن كثيرا من أخبار ذلك ((الفردوس المفقود)) فى سـياق التاريخ العام للاسلام ، مثل تاريخ ابن الاثير وتاريخ ابن خلـدون والعقد الفريد لابن عبد ربه • وكان من بينها مصادر خلصت للتراث الاندلسى بصفة خاصة ، مثل ((نفح الطيب)) للمقـرى (طبـع فى بولاق سنة ١٨٦٣) وقلائد العقيـان للفتح بن خاقـان (بولاق ١٨٦٦) وديوان ابن خفاجه (جمعية المعارف ١٨٧٠) •

وكان فى ذلك مادة طيبة استوحاها المؤلفون والكتاب فى كتاباتهم عن الاندلس خلال أواخر القرن التاسع عشر الميلادى • ويهمنا فى هذا المقام أن نشير بصفة خاصة الى تأثير هذه المادة على المؤلفـات الروائية والمسرحية • وهى فنون كانت فى ذلك الوقت مسـتحدثة ولدت من خلال احتكاك الثقافة العربية بالثقافة الغربية عن طريق المبعوثين المصريين الى بلاد أوربا ، أو الكتب المترجمـة عن الفكـر الاوربى •

أما فى المسرح فقد حاول بعض المؤلفين المصريين ربط هذا الفن الجديد بتراثنا العربى القديم ، فاستلهموا منه موضوعات لرواياتهم ومن أول هؤلاء الكاتب ابراهيم رمزى الذى ألف فى سنة ١٨٩٢ مسرحية بعنوان ((المعتمد بن عباد)) صور فيها حياة هذا الملك الاندلسى الذى كان يحكم أشبيلية فى عصر ملوك الطوائف ، ومأساة خلعه ونفيه • ومن الطريف أن الزعيم الوطنى الكبير مصطفى كامل شارك أيضا فى هذا الميدان برواية كتبها عن ((فتح الاندلس)) ، وضمنها ما يتفق مع فكره السياسى القومى من خلال الخطب والاناشيد الحماسية ، متخذا منها وسيلة لمهاجمة الاستعمار والاحتلال ، وهكذا وظف أحداث الفتح العربى للاندلس فى سبيل الدفاع عن قضية مصر الوطنية • حتى المسرح الغنائى الذى كان له جمهوره الكبير فى أواخر القرن الماضى لم يهمل الالتفات الى الاندلس فرأينا الشيخ سلامة حجازى يعرض منذ سنة ١٩٠٥ روايات تاريخية غنائية من بينها رواية ((غانية الاندلس)) •

وأما الفن الروائى فقد كان يخطو أيضا أولى خطواته ، وقد تعددت اتجاهاته بين قصص يستوحى التراث العربى القديم وقصص يتخذ القالب الاوربى الغربى فى بنائه • وكان النوع الاول أسبق فى الظهور • وأما النوع الثانى فانه يمكن تحديد ميلاده بظهور رواية ((زينب)) التى ألفها الدكتور محمد حسين هيكل فى باريس أثناء دراسته فيها سنة ١٩١٠ ونشرها سنة ١٩١٢ •

وأما النوع الثانى الذى كان مرتبطا بالتراث القديم فقد تفرع الى اتجاهين : الاتجاه الاول تأثر بذلك الفن القصصى العربى القديم

وهو فن المقامة ، وصاحب هذا الاتجاه هو محمد المويلحي صاحب ((حديث عيسى بن هشام)) ، وكان ينشره في صورة مقالات منذ السنوات الاولى للقرن العشرين ، ثم جمعه في كتاب سنة ١٩٠٧ ٠ والحقيقة هي أن هذا الاثر ـ كما يقول الروائي الناقد الجليل يحيى حقي ـ لم يكن مجرد مجموعة من الفصول حاكى بها المؤلف مقامات بديع الزمان أو الحريري ، وانما كان ((قنطرة تصل بين الشكل في الماضي وبين موضوع اليوم الى وصف المجتمع القائم)) فهو يتخذ شكل المقامة في البناء العام والاسلوب المسجوع الذى يعني بالمحسنات اللفظية وايقاع النغم ، ولكنه يتناول موضوعا عصريا ، اذ هو يستهدف نقد مجتمع عصره بأسلوب فكه خفيف الظل ٠

والاتجاه الثاني هو الرواية التاريخية التي كان رائدها جورجي زيدان ، وهو على النقيض تماما من سابقه ٠ فهو تراثي في موضوعه عصري في شكله وأسلوبه ٠ ونعني بتراثية موضوعه أنه يستوحي مادته من التاريخ العربي القديم ، وبعصرية شكله واسلوبه انه لا يلتزم بالسجع ، ولا يقلد أساليب الكتاب القدماء ، وانما يمضي نثره بسيطا مرسلا في غير تكلف ٠ وهو على الرغم من ارتباطه بالماضي أقرب الى التأثر في روحه بذلك النوع من القصص التاريخي الذى عالجه الروائيون الغربيون من أمثال الاسكوتلندى والتر سكوت (١٧٧١ ـ ١٨٣٢) والفرنسي اليكسندر ديماس الاب (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠) ٠

ولد جورجي زيدان في بيروت في ١٢ ديسمبر ١٨٦١ ، وهاجر الى مصر فاستقر بالقاهرة في أكتوبر ١٨٨٣ ، وهو في الثانية

والعشرين من عمره . فكان فيذلك مقتفيا خطا الكثيرين من المهاجرين من بلاد الشام ممن كان لهم بمصر فضل عظيم على الصحافة والادب وكان قد تلقى تعليمه الابتدائي وجانبـــا من تعليمه الثـانوى فى بيروت الا أنه لم يصبر على الدراسة المنتظمة ، فترك معاهد الدرس وأقبل على القراءة ، حتى أصبح من ذلك الجيـل العظيم من اعـلام الثقافة الذين علموا أنفسهم بأنفسهم . وفى مصر عمل بالصحافة ، واقتضاه ذلك اتقان الفرنسية والانجليزية . ومع الصحافة اشتغل بالتأليف والترجمة متزودا بزاد ثرى من المعرفة . وعلى الرغم من أن وصوله الى مصر كان فى تلك السنوات التى بدأ فيها الاحتـلال البريطانى فان الجو الفكرى فيها كان على درجه عالية من الخصوبة والرقى . ولم يستطع الاحتلال أن يخمد صـــوت المثقفين المصريين الا سنوات قليلة فى مستهل عهده ، ثم عادت الصحف الى ســابق عهدها من النشاط والتنوع ، ولا سيما منذ ولى الســـلطة الخديو عباس حلمى فى سنة ١٨٩٢ .

وأقبل جورجى زيدان على الاستزادة من الثقـــافة الاوربية منذ قدومه الى مصر ، فاتقن الانجليزية ، ولهذا فقد اختير لمرافقة الحملة الى السودان سنة ١٨٨٤ . وفى السنة التالية ســافر الى بيروت فانتدب عضوا فى المجمع العلمى الشرقى ، وانتهز الفرصة ، فتعلم اللغتين العبرية والسريانية مدة عشرة أشهر . وفى صيف سنة ١٨٨٦ ذهب الى لندن وقضى فيها فترة عاد بعدها الى مصر ليواصـل عمله فى الصحافة ، فكان يكتب فى مجلة ((المقتطف)) حتى سنة ١٨٨٨ ، وفى سنة ١٨٩١ اسس مجلة « الهلال » التى لم تنقطع عن الصدور حتى اليوم ، وهى بذلك أطول المجلات الثقافية عمرا فى مصر .

ولم تشغل الصحافة جورجي زيدان عن التاليف منذ مستهل حياته • فكان أول كتاب أخرجه فى فقه اللغة العربية ، ولكنه اتجه بعد ذلك الى التاريخ ، فاخرج بين سنتى ١٨٨٨ و ١٨٨٩ « تاريخ مصر الحديث » فى مجلدين ، و « تاريخ الماسونية » و « التاريخ العام » وهو موجز لتاريخ قارتى آسيا وافريقيا • ومنذ تاسيسه لمجلة « الهلال » ازداد اهتمامه بالموضوعات التاريخية ، فنشر فيها دراسات عديدة من أبرزها السلسلة التى كتبها فى تراجم مشاهير الشرق • على أنه كان خلال هذه السنوات يرى أن يحبب الجمهور العريض فى قراءة التاريخ ، ويقرب اليه هذه الدراسات التى قد لا تهم الا قلة من المتخصصين • وحينئذ اهتدى الى تلك الصيغة التى كانت جديدة على القارىء العربى ، وهى « الرواية التاريخية » وكان جورجى زيدان على وعى تام بذلك • وقد عبر عنه فى مقدمة الطبعة الاولى من كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » الصادر فى سنة ١٩١٠ اذ يقول :

« لا مشاحة فى أن تاريخ الاسلام من أهم التواريخ العامة لانه يتضمن تاريخ العالم المتمدن فى العصور الوسطى ، أو هو حلقة موصلة بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث ، فيه انتهى التمدن القديم ، ومنه أشرق التمدن الحديث • وقد علقنا بدرس هذا التاريخ منذ أعوام ، وكنا نغتنم ساعات الفراغ من انشاء « الهلال » ،ونعلق ما يبدو لنا من حقائقه على أمل التفرغ لتاليف مطول فيه • وقد أعلنا عزمنا على ذلك غير مرة ، ولا نزال على هذا العزم بعون الله •

ونظرا لما نعتقده من افتقار قراء العربية على اختلاف مشاربهم

ومذاهبهم الى نشر هذا التاريخ فيما بينهم ـ لانه تاريخ لسانهم وامتهم وبلادهم ، بل هو تاريخ تمدنهم وآدابهم وعاداتهم ـ ما فتئنا نختلس الفرص لنشر ما يسهل تناوله وتدعو الحاجة اليه في حينه مما يتعلق بهذا التاريخ • واخذنا نهيىء أذهان القراء على اختلاف طبقـــاتهم وتفـــاوت معـــارفهم ومداركهم لمطالعة هذا التاريخ بما ننشره من الروايات التاريخية الاسلامية تباعا في « الهلال » ، لأن مطـــالعة التاريخ الصرف تثقل على جمهور القراء ، وخصـــوصا في بلادنا ، والعلم لا يزال عندنا في دور الطفولة • فلابد لنا من الاحتيـــال في نشر العلم بيننا بما يرغب الناس في القراءة • والروايات أفضــل وسيلة لهذه الغاية » •

وكان زيدان قد أصدر حتى كتابة هذه السطور في سنة ١٩١٠ ست حلقات من تلك الروايات ، تضمنت وقائع التاريخ الاســلامي منذ ظهور الاسلام حتى مقتل عبد الله بن الزبير وخلوص الخـلافة لعبد الملك بن مروان • ثم توالت الحلقات بعد ذلك حتى بلغت تسع عشرة حلقة ، وصل في نهايتها الى ثورة محمد المهدي بالســودان ، وهي أحداث عاصرها جورجي زيدان وشهد أطرافا منها •

ولم يمنعه التاريخ ولا الرواية التاريخية من مواصلة اهتمـــامه بالحضارة الاسلامية وتاريخ الادب العربي ، فاصدر في سنة ١٩١٠ كتابه « تاريخ التمدن الاسلامي » في خمســة اجزاء • وفي ســنة ١٩١١ أصدر كتابه الكبير « تاريخ آداب اللغة العربية » في أربعة اجزاء •

وكانت وفاة جورجي زيدان بعد هذا العمل الدؤوب في ٢٢ يولية

سنة ١٩١٤ وهو فوق الخمسين بقليل . وهو عمر قصير بالقياس الى ما خلفه هذا الكاتب العظيم من ثروة فى مختلف ضروب الدراسات اللغوية والادبية والتاريخية .

كان جورجى زيدان رائدا فى الادب كما كان رائدا فى التاريخ ، فهو أول من اتجه الى هذا اللون من الكتابة القصصية التى تمزج بين هذين اللونين . وقد رأينا انه ((غطى)) التاريخ الاسلامى كله برواياته منذ العصر الجاهلى حتى أيامه . هذا هو امتداد كتاباته الروائية فى الزمان ، أما فى المكان فانه لم يدع مصرا من الامصار الاسلامية شرقا أو غربا الا وكان لقلمه منه نصيب . وقد اختص الجناح الغربى من عالم الاسلام بثلاث روايات أولها « فتاة القيروان » ثم « فتح الاندلس أو طارق بن زياد » وهى موضوع هذا الحديث ، وأخيرا « عبد الرحمن الناصر » وفيه يتناول الفترة الطويلة التى حكم الاندلس فيها أعظم من جادت به هذه البلاد من رجال الدولة ، وهو الخليفة العظيم عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله (حكم بين سنتى ٣٠٠ و ٣٥٠ هـ) .

وسيقتصر حديثنا هنا على رواية « فتح الاندلس » التى يضع المؤلف تحت عنوانها عنوانا فرعيا يقول فيه معرفا بها « رواية تاريخية تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل الفتح الاسلامى ووصف أحوالها وفتحها على يد طارق بن زياد ومقتل رودريك ملك القوط » .

وعلى الرغم من أن طارق بن زياد هو البطل الذى حملت الرواية اسمه فاننا نرى من تتبع أحداثها أن البطولة الحقيقية انما هى من

نصيب « فلوروندا » ابنة الكونت يوليان حاكم سبتة ، وهي خطيبة الفونس بن غيطشة الذى كان أبوه ملكا على القوط ، وكان الفونس ولى عهده المرشح للملك من بعده لولا أن رودريك اختلس الملك بعد وفاة غيطشة ، وتمكن من الصعود الى العرش • وكان الاساقفة هم الذين نصبوه ملكا خدمة لروما • فقد كان معظم رجال الدين من الرومان الذين كانوا يكنون للقوط كراهية شديدة ، ولهذا فقد كانت احزاب المملكة معادية لرودريك المغتصب للعرش ، ومن بينهم القوط واليهود الذين كانوا يعانون من قسوة اضطهاد الرومان ثم القوطيين لهم حتى ولى الملك غيطشة ، فشملهم بسياسته الرحيمة المتسامحة • وهذا هو السبب الذى جعل الاساقفة الرومان يتحدون لعزله او قتله •

أما فلوروندا فقد كان ابوها قد بعث بها الى بلاط الملك الجديد رودريك في طليطلة على عادة النبلاء وحكام الولايات في ارسال أبنائهم وبناتهم الى البلاط الملكى حتى يتربوا في كنفه ، على أن رودريك لم يكد يرى الفتاة حتى استثاره جمالها ، فهام بها ، ونقلها الى القصر الصغير الملحق بقصره ، وشرع يعمل على مراودتها عن نفسها مغريا أياها بترك خطيبها الفونس الذى ضاعت آماله في الملك والسلطان بعد وفاة أبيه واعتلاء رودريك على العرش • غير أن الفتاة تقاوم وتتمسك باخلاصها للامير الشاب • وكان لالفونس عم انخرط في سلك رجال الدين هو أوباس (عباس) يعمل على اعانة ابن أخيه في انقاذ فلوروندا من براثن الملك الشهوانى القاسي رودريك فيدبر حيلة لهروب الفتاة من قصر الملك • ويقتحم عليه مخدعه وهو يراود فلوروندا فيوبخه على ما ينوى ارتكابه • ويثور غضب رودريك

لذلك ويعزم على الايقاع بأوباس ، ويشجعه على ذلك أسقف روماني يكن الكراهية والحسد لاوباس يدعى « مرتين » وحينما يعـــود الى حيث ترك فلورندا يتبين أنها استطاعت الهرب من القصر ٠ ويقبض الملك على أوباس عم الفونس ويقدم للمحاكمة أمام مجمع كنسى بتهمة التحريض على الثورة ضد الملك٠على أن أوباس يواجه الملك بالتعريض بما كان يهم من جريمة انتهاك عرض الفتاة التى آواها فى قصره ٠ ويرى مرتين مستشار رودريك أن ينهى جلسة المحاكمة حتى لايكشف أوباس عن مزيد من التفاصيل ، ويؤجل المحاكمة الى جلسة أخرى ، ويأمر بايداع أوباس فى السجن حتى تعقد تلك الجلسة ٠٠

أما الفونس فيعمل الملك على ابعاده عن طليطلة ،ويبعث اليه بكتاب يأمره فيه أن يتوجه الى مدينة استجة (بين قرطبة واشـبيلية) على راس فرقة من الجيش وينتظر فى قلعتها ما سوف ياتيه من أوامر ٠ ويصدع الفونس بالامر ويرافقه فى هذه الرحلة يعقـوب وهو خادم ومستشار ثقة لعمه الاسقف اوباس ٠ وفى أثناء الرحلة يطلع الفونس على ما يعانيه عامة الشعب من الظلم والاضطهاد على أيدى رجال الملك رودريك، كما يتبين له جو التذمر الذى يعيشه الارقاء والمستضعفون من أفراد الطائفة اليهودية ٠ وفى استجة يقود يعقوب سيده الفونس الى اجتمـــاع غريب فى قبو تحت الارض مع قوم ملثمـين ، واذا به يكتشف أن المجتمعين فى ذلك القبو من اليهود الذين كانوا يتآمرون لخلع رودريك والثورة عليه وتنصيب الفونس ملكا شرعيا على البلاد٠ ويكتشف الفونس أن يعقوب خادم عمه أوباس ليس الا واحـدا من زعماء الطائفة اليهودية تظاهر بالنصرانية والتحق بخدمة أوباس حتى يدبر أمر الثورة ٠ وفى أثناء الاجتماع يقدم تاجر يهودى يدعي سليمان

قادم من سبتة على الساحل الافريقى ، وهو يبلغ المتآمرين بخبر كان له عليهم وقع المفاجأة : ان « أبناء اسماعيل » ـ اى العرب ـ وهم « أبناء عمومة اليهود » قد قلبوا العالم باسره وقد مدوا سلطانهم على العراق والشام وفارس وخراسان ثم فتحوا مصر ومدوا سلطانهم الى الشمال الافريقى بأسره ، وانهم يعاملون الشعوب التى دانت لهم بالتسامح والرفق بما لم يعرفوه من قبل ويحررون اليهود من الرق الذى طالما عانوه تحت ربقة المسيحيين • ويبتهج اليهود لذلك الخبر ويقررون مساعدة العرب على فتح أسبانيا • ويروى سليمان أنه كان فى مجلس يوليان حاكم سبتة الذى كان يدين بالولاء لرودريك حرصا على أبنته التى كانت تعيش فى قصر الملك القوطى،ولكن يوليان تلقى وسليمان عنده رقعة من أبنته تروى فيه محاولة اعتداء الملك عليها ، وأنها قد هربت من قصره قبل أن يتمكن الاعتداء على شرفها ، وتحثه على استنقاذها من براثن ذلك الوحش الكريه • ويقص سليمان على الحاضرين أن يوليان يقرر منذ هذه اللحظة اسلام بلده للعرب وتحريضهم على فتح أسبانيا • ويشتغل قلب ألفونس بخبر خطيبته الهاربة من رودريك ويستقر عزمه على الانضمام ليوليان فى تهيئته لامر دخول العرب الى الاندلس •

ويعبر طارق بن زيادة على راس جيشه بحر المجاز من سبتة الى الاندلس بمعونة يوليان ، ويرحب به أهل البلاد لما خبروه من عدل المسلمين واحترامهم للعهود • ويرافق طارقا فى حملته شاب يدعى بدرا ـ وهو قوطى الاصل ـ كان قد أسر وهو صبى صغير فرباه زياد ابو طارق ، وشب بين البربر وكان طارق يعده بمثابة أخيه وذراعه

اليمنى فى قيادة الجيش • ويصـــل جيش طارق الى شريش • إما فلورندا فانها تهرب من قصر رودريك بمعـــونة خادمين مخلصـــين للاسقف أوباس ويرافقها هذان الخادمان الى دير فى الجبل يراسه ـ الاب سوجيوس ـ صديق قديم للاسقف ، فيؤويها ويحسن الحفاوة بها • ويكون أحد هذين الخادمين هو رسول الفتاة الى ابيها فى سبتة وهو الذى يبلغه بنبأ ابنته وهروبها من قصر الملك وحينما يعود هذا الخادم الى الدير يحمل اليها خبر عزمأبيها على ادخـال العـــرب الى الاندلس • ويعلم الاب سرجيوس بذلك فيبتهج له لكراهيته لرودريك وسخطه عليه • ويقـــرر الذهاب الى طليطلـة حتى يزور أوباس فى سجنه ليبشره بقرب خلاصه على أيدى العرب القادمين • ولكن أوباس لا يكاد يعلم بذلك حتى يصدر عنه رد فعل غير منتظـر ، اذ يؤنب سرجيوس على ابتهاجه بدخول المســـلمين الى البلاد • فما كـان من المروءة فى نظره أن يساعد أسقف مسيحى هؤلاء الغرباء عن وطنه ودينه على رودريك حتى وان كان رودريك هو العدو اللدود له ولابن أخيه ألفونس • ويقرر أوباس اخلاص النصح لرودريك فى مقاومته للمسلمين ويشترك معه فى قيادة الجيش المتوجه للقائهم ، بل ويكتب الى ابن أخيه ألفونس يدعوه الى التخلى عن يوليان وأصدقائه المسلمين والانضمام الى رودريك والقتال فى صفوفه والا فان المسلمين سوف يزيلون دولة القوط ويمحون ديانة المسيح من اسبانيا •

ويلتقى جيشا رودريك وطارق فى وادى لينه ، ويرى ألفونس نفسه بين نارين : فعمه الآن مناصر لعدوه السابق رودريك ويوليان والد فلورندا حليف لطارق وهو حريص على خطيبته ، كاره لرودريك يتمنى زوال ملكه ولن يتم ذلك الا بمناصرته العرب • وأخيرا يستقر

عزمه على متابعة عمه والانضمام الى صفوف رودريك • غير أنه تاتيه ـ فى هذه اللحظة ـ رسالة من فلورندا تدعوه للانضـمام الى أبيها وتحثه على قتال الطاغية الذى حاول هتك شرفها •• فتفعل به هـذه الرسالة فعل السحر ، اذ يعدل عن قراره الاول ويصمم على القتال فى صف المسلمين ، وتكون فلورندا فى ذلك الوقت قد وصلت الى ميدان القتال وتدور المعركة الهـائلة بين طارق ورودريك وتنتهى بهزيمة ساحقة للقوط ويموت رودريك غريقا فى النهر وتقع فلورندا أسيرة فى يد بدر صاحب طارق ، فيطالب بأن تكون ملكا له ، ولكن التاجر اليهودى سليمان يلقى على الجميع بخبر يكون مفاجأة للجميع ان بدرا هذا ليس الا ابنا ليوليان كان قد سرقه وهو طفل انتقاما لما كان يصيبه من اضطهاد على اليهود وحمله الى بلاد البربر وباعه لاحد كهنتهم فسلمه هذا الكاهن لزياد والد طارق ورباه مع ابنائه حتى كبر فهو اذن أخ لفلورندا • ويعجب الجميع لهذه القصة وتنتهى الرواية باتمام طارق لفتح الاندلس وبزواج الفونس من فلورندا •

الرواية كما نرى تقص حدثا تاريخيا جليلا ولكن المؤلف لا يلتزم بتفاصيل الاحداث التاريخية وانما يضيف اليها الكثير من صـنع خياله • وليس بهذا بأس ، اذ هو شأن كل رواية تاريخية •• وما كان لاحد أن يطالب المؤلف الروائى بما يطالب به المؤرخ • وقد أحاطت بفتح العرب للاندلس أساطير كثيرة ترددت فى أوساط المسلمين والمسيحيين على حد سواء • وكان من أبرزها قصة بنت يوليان حاكم سبتة التى تذكر المصادر العربية أن أباها كان قد أرسلها الى قصر لذريق (وهذا هو اسم رودريك عند العرب) حتى تتأدب بادب بنات الملوك ولكن الملك القوطى أستهام بها فانتهك شرفهـا ، وكتبت هى

الى أبيها بخبرها فاحفظه ذلك على لذريق ودفعه الى التفكير فى الانتقام وهكذا راسل طارقا واخذ يزين له فتح الاندلس ويحرضه حتى وفق لما أراد ثم جعل نفسه واتباعه أدلاء للعـرب فى الاندلس • وهكـذا اصبحت هذه الفتاة التى لم تعرف لها المصادر العربية اسما وعرفها القصص الاسبانى باسم فلورندا هى السبب الاول فى فتح الاندلس•

وغنى عن البيان أن هذه القصة قد تكون فى مجملها صحيحة وقد تكون من اختراع خيال القصاص ، ولكنها لا تصـلح لتفسـير فتح الاندلس فقد كان ذلك أمرا محتوما بعد أن أسـتولى المسـلمون على الشمال الافريقى كله •

ومع ذلك فقد رددت المصـادر العربية هذه القصة ، وعنها نقله الاسبان ، وأصبحت فلورندا (أو لا كافا كما سميت عندهم ايضا) محورا لكثير من القصائد الملحمية الشعبية الاسـبانية ومن اهمهـا « قصيدة لذريق آخر ملوك القوط Elul Timo ReyGoda » واستلهم منها كثير من شعراء الاسبان ومؤلفيهم المسرحيين على طول العصور وحتى اليوم عددا لا يكاد يحصى من الآثار الادبية •

على أن الذى نود بيانه هنا هو أن جرجى زيدان لم يتابع الروايات العربية ولا الاسبانية فى هذه القصة • فكلها يجمـع على أن لذريق انتهك شرف الفتاة فعلا ،ولكن فى رواية جرجى زيدان هم ولم يفعل• ولسنا ندرى لماذا قام المؤلف بهذا التغيير فقد كان أعتداء لذريق على الفتاة أكثر ملاءمة لمأساوية القصة ولما من شأنه أن يستثيراحاسيس الشفقة والعطف على الفتاة والسخط على مرتكب هذه الجريمة ••

وقد أضاف جرجي زيدان الى القصة تفاصيل فيها كثير من الافتعال مما شتت فكر القارىء وأبعده عن المحور الرئيسي للرواية وجعلها أشبه بقصص المغامرات التي تعتمد على المفاجأة المسرحية مثل قصة بدر الذي أسر فلورندا وأراد أن يتخذها جارية أو زوجة له ثم تبين في النهاية أنها ليست الا أخته • وكذلك اقحامه لقصة المؤامرة اليهودية التي أصبحت هي العامل الرئيسي في انتصار طارق بن زياد وقد أعتمد المؤلف حقا في ذلك على الروايات العربية التي ذكرت ترحيب اليهود بالفتح الاسلامي ومعاونتهم للمسلمين في أول الامر• ولكن اليهود كانوا من القلة بحيث لم يزد تأييدهم للعرب عن كونه عاملا ثانويا محدود القيمة •

ويلاحظ أخيرا أن جرجي زيدان لم يقدم لنا رواية تاريخية بالمعنى المعروف وانما قدم مزيجا من قصة تتخللها معلومات تاريخية •• فهو يتوقف من وقت لوقت لكي يصف لنا كنيسة طليطلة وارتفاعها وعدد أعمدتها أو ليشرح لنا سبب التباغض بين الروم والقوط أو ليتكلم عن المجامع الدينية في أسبانيا وكونها على ثلاث درجات وعن الجند الاسبان في عهد القوط وأنواع فرقهم الى غير ذلك مما احتاج معه المؤلف الى أن يضع حواشي عديدة لما يشرحه من معلومات مشيرا الى مصادرها في الكتب القديمة أو دراسات المؤرخين الغربيين وكأنه لم ينس مهنته بصفته مؤرخا •

وأخيرا نرى أن طارق بن زياد الذي يفترض انه بطل الرواية لايكاد يظهر في الاحداث الا بعد انقضاء أكثر من نصفها • وأغلب صفحاتها يدور حول اسبانيا القوطية ومجامعها الكنسية وعلاقة الحب بين

فلورندا والفونس حتى اننا لا نرى الحديث عن فتح العرب للاندلس الا فى عدة صفحات فى آخر الرواية •

على أن جرجى زيدان قد اجمل خصائص الفتح العربى لاسبانيا والح فى كثير من مواضع الرواية على ما تميز به هذا الفتح الاسلامى من تسامح ورفق بالشعوب ونبل فى الحفاظ على العهود ومروءة فى مناصرة الضعفاء والمظلومين • وهو يكرر ذلك على السنة كثير من شخصيات الرواية من قوطيين ويهود ورجال دين • وهذه محمدة تذكر للمؤلف لا سيما اذا ذكرنا أنه مسيحى الديانة •

ومع ذلك فان هذه الملاحظات لا تنال من قيمة هذا العمل الذى كان هدف المؤلف منه على ما يبدو لا امتاع القارىء فحسب بل اعطاءه قدرا من المعلومات التاريخية اخذها عن عديد من المصادر والمراجع • والحقيقة أن جرجى زيدان كان يقصد الى ذلك قصدا على حد اعترافه فى تقديمه لكتاب تاريخ التمدن الاسلامى كما سبق أن أوردنا •

واخيرا فعلينا ان نبرز مرة أخرى دور جرجى زيدان بصفته رائدا لهذا اللون الجديد من الكتابة • والبادىء دائما صعبة شاقة لا تؤمن فيها العثرات • ويكفيه فخرا انه شق طريقا جديدا ، وانتهج فى كتابته منهجا كان أبا عذرته وفاتح بابه ، وعلى دربه سار كثيرون من الكتاب بعده • ويكفى أن نشير الى نثره المرسل السهل الذى لم تثقله زينة البديع وزخارف المحسنات • فهذه منة أخرى تذكر له بالفضل •• أترانا مطالبيه بان يفعل اكثر مما فعل ؟!

دكتور محمود على مكى

فتح الأندلس

او

طارق بن زياد

رواية تاريخية تتضمن تاريخ اسبانيا قبيل
الفتح الاسلامى، ووصف احوالها، وفتحها على
يد طارق بن زياد، ومقتل رودريك ملك القوط

تاليف

جرجى زيدان

دار الهلال

أبطال الرواية

* رودريك	: ملك القوط
* الفونس	: خطيب فلورندا وابن غيطشة ملك الاسبان
* فلورندا	: خطيبة الفونس وابنة الكونت يوليان حاكم سبتة
* الكونت يوليان	: حاكم سبتة ووالد فلورندا
* طارق بن زياد	: والى طنجة وقائد الجيوش الاسلامية
* الاب مرتين	: أحد أتباع الملك رودريك
* الميتروبوليت أوباس	: عم الفونس
* يعقوب	: خادم الفونس
* سليمان	: من أتباع الكونت يوليان
* بربارة	: خالة فلورندا ومربيتها

مراجع هذه الرواية

هذه المراجع هي التي اعتمد عليها المؤلف في تاليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ أسبانيا لرومى
* ابن خلكان
* دائرة المعارف البريطانية
* ابن الاثير
* رومى
* نفح الطيب
* كيزو ـ تاريخ تمدن أوربا
* التقويم العام
* دوزى
* علم الفراسة الحديث
* تاريخ التمدن الاسلامى
* جبن ـ تاريخ المملكة الرومانية
* مونتسكيو

— ١ —

الأندلس والقوط وطليطلة

الأندلس احدى مقاطعات اسبانيا ، واسمها فى الأصل « وندلوسيا » نسبة الى الوندال أو الفندال ، وكانوا قد استوطنوها بعد الرومان.. فلمّا فتحها العرب سمّوها الأندلس، ثم أطلقوا هذا الاسم على اسبانيا كلها

وكانت اسبانيا فى جملة مملكة الرومان الغربية الى القرن الخامس للميلاد ، فسطا عليها القوط ، وهم من القبائل الجرمانية الذين رحلوا من اعالى الهند الى اوربا طلبا للمرعى والمعاش ، واقاموا فى بوادى اوربا ، كما اقام العرب فى بوادى الشام والعراق . ثم سطا القوم على مملكة الرومان الغربية قبل سطو العرب على المملكة الشرقية ببضعة قرون ، وأنشأوا الممالك فى فرنسا وألمانيا وانجلترا وغيرها ، وهى الدول الباقية فى أوربا الى الآن ..

وكان فى جملة تلك القبائل قبيلة القوط الغربيين « فيسيقوط » سطوا على اسبانيا فى القرن الخامس وفصلوها عن الرومانيين ، وأنشأوا فيها دولة « قوطية » انتهت بالفتح الاسلامى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) على يد طارق بن زياد القائد البربرى الشهير

وكانت عاصمة مملكة القوط فى أسبانيا فى ذلك الوقت مدينة « طليطلة » على ضفاف نهر التاج فى أواسط اسبانيا . وكانت طليطلة فى ذلك العهد مدينة عامرة فيها الحصون والقلاع والقصور والكنائس والأديرة . وكانت مركز الدين والسياسة ، وفيها يجتمع مجمع الأساقفة كل عام ينظر فى الأمور العامة

وكان ملك الأسبان عام الفتح الملك « رودريك » والعرب يسمونه « لذريق » وهو قوطى الأصل تولى الملك سنة ٧٠٩ م ، ولم يكن من العائلة المالكة ، ولكنه اختلس الملك اختلاسا ، وترك أبناء الملك السابقين ناقمين عليه . وكانت اسبانيا تنقسم يومئذ الى ولايات أو دوقيات ، يتولى كل دوقية منها حاكم يسمى « الدوق » أو « الكونت » ويرجعون فى أحكامهم جميعا الى الملك المقيم فى طليطلة

وطليطلة واقعة على أكمة مؤلفة من أكمات يحيط بها نهر التاج من كل جهاتها ، الا الشمال ، بما يشبه حدوة الفرس تماما . ووراء النهر من الشرق والغرب والجنوب سلسلة جبال تحجب الأفق عن أهل المدينة ، وفيها مغارس الزيتون وكروم العنب وغابات السنديان والصنوبر . وفى منتصف المدينة ، الكنيسة الكبرى التى جعلها المسلمون بعد الفتح جامعا ، وهى على جانب عظيم من الفخامة والمناعة . وكان الناظر اذا ألقى نظرة على أبنية طليطلة من علو شاهق تبين فيها من ضروب الأبنية مزيجا من الطرز الرومانية والطرز القوطية . وحول المدينة من الشمال ووراء النهر من الجهات

الأخرى مغارس الفاكهة والثمار وسائر أصناف الأشجار ، اذا أطل الواقف من احدى نوافذ منازلها أشرف عليها جميعا

- ٢ -

فلورندا

وكان فى جملة قصور الملك رودريك قصر فى شرقى المدينة على أكمة تشرف على ضفاف النهر . ويحدق بالقصر صنوف الأشجار والرياحين والأزهار على مرتفعات تتخللها مجارى الماء على غير نظام مما يزيدها جمالا . ومساحة تلك الحدائق واسعة يحيط بها كلها ، الا من جهة النهر ، سور حوله الحراس فى منازل بنوها لهم بجانب أبواب البستان ..

وكان بجانب قصر الملك قصر صغير متصل به يؤدى الى القصر من جهة ، وله باب مستقل يؤدى الى البستان من جهة أخرى . ناهيك بقصور متفرقة فى جوانب ذلك البستان ، بعضها للحاشية وبعضها للأمراء . وفى جملتها قصر كبير كان يقيم فيه أولاد الدوقات والكونتات حكام الولايات ، جريا على العادة المتبعة عند ملوك القوط فى ذلك الزمان .. فقد كان من عاداتهم أن يجتمع فى بلاطهم فى طليطلة أبناء ولاتهم المشار اليهم وبناتهم ، يقيمون هناك ويربون فى البلاط الملكى معا ، يتعارفون ويتعاشرون فينشبون على ما يرضاه الملك ويتأدبون فى خدمته ثم يتزوجون (١)

(١) ابن الاثير — الجزء الرابع ، وغيره من مؤرخى العرب

ففى صباح الخامس والعشرين من ديسمبر سنة ٧١١ للميلاد ، كان أهل طليطلة مشتغلين بالاحتفال بعيـد الميلاد ، والنـاس يتقاطرون الى الكنائس والأديرة وهم يهنّئون بعضهم بعضا ، وأكثر الكنائس ازدحاما فى ذلك اليوم الكنيسة الكبرى ، لأن أكبر أساقفة طليطلة يصلّى فيها ، ويحضر القداس الملك رودريك بنفسه ومعه حاشيته وكبار رجال دولته . فغصّت تلك الكنيسة على سعتها وامتلأ فناؤها وما حواليه من الشـوارع والسطوح بالناس على اختلاف الأجناس والأعمار ، تطلعا الى رؤية الملك ومشاهدة موكبه الحافل . ومما زاد الناس شوقا الى رؤيته انه كان لايزال قريب العهد بالمـلـك ، وقلّما رآه أهل طليطلة .. فكيف بأهل البلاد المجاورة . فاغتنموا فرصة ذلك العيد وهرعوا لمشاهدة الرجل الذى اختلس المـلـك من غيطشه (١) ملكهم السابق

ولم تبق امرأة لم تخرج من بيتها .. اذا لم يكن لسماع الصلاة فلمشاهدة موكب الملك رودريك ، الا فتاة من أهل البلاط الملكى اغتنمت فرصة انشغال الملك ورعيته بذلك العيد لتخلو الى نفسها وتفكّر فى أمرها . وكانت من جملة بنـات الكونتات حكّام الولايات ، تقيم فى القصر الذى يجمعهم جميعا بجوار قصر الملك ، فنقلها الملك منذ بضعة أيام الى القصر الصغير المتّصل بقصره . وهو اكرام حسدها عليه كل رفاقها ورفيقاتها ، ولكنه كان سببا كبيرا فى تعاستها وانشغال بالها

---

(١) هذا اسمه عند العرب ، أما عند الافرنج فيسمونه Witiza

فلمّا خرج الملك ورجال دولته وسائر أهل البلاط للاحتفال بالعيد ، اعتذرت هى بانحراف صحتها . وكان ذلك اليوم صحوا زاهيا يندر مثله فى فصل الشتاء ، وقد أطلّت الشمس من وراء الآكام ، وأرسلت أشعتها على نهر التّاج وما على ضـفافه من الحدائق ، وفى جملتها حديقة قصر الملك ، فبخّرت ما كان على الأوراق والأزهار من الطل . ومثـل هذا اليوم يحلو للنـاس الخروج فيه من المنازل الى البساتين لاسـتقبال أشعة الشمس والتمتع بمناظر الطبيعة

فانتهزت الفتاة فرصة غياب الملك وحاشيته ونزلت من القصر ، وتمشّت فى طرق تلك الحديقة وقد تدثرت فوق ثيابها برداء من الحرير الأحمر مبطّن بالفرو اتقاء للبرد . وقد غطى الرداء كتفيها ومعظم جسمها الا ذيل ثوبها الأرجوانى المزركش بالقصب ، فانه ظل يتلألأ فى أشعة الشمس ويجر من ورائها جرا خفيفا . وأما رأسها فقد كان مكشوفا وعليه شبكة من الحرير الأبيض تضم شعرها الذهبى ضمّة واحدة ، وتـرسله الى ظهرها مستعرضا كأنها خارجة من الحمّام ، وتلك عادة الرومان فى لباس الشّعر اقتبسها عنهم القوط فى تلك العصور . وكان ذلك الشّعر الذهبى يتلألأ من خلال تلك الشبكة ، وخاصة اذا وقعت عليها أشعة الشمس فى أثناء مرور الفتاة بين الأشجار . على أن تسربلها بذلك الرداء لم يخفف جمال قامتها ورشاقة مشيتها . وأما وجهها فقد كان ممتلئا ، ناصع البياض مشربا بحمرة يكاد يشف عما تحتـه ، وقد زاده

الانحراف والذبول هيبة وجمالا ، وزاد العينين الزرقاوين حدّة ومضاء . ولم تكن عيناها زرقاوين تماما ، بل كان فيهما مع الزرقة شيء لايعبّر عنه بغير السّحر .. ولها فم مع صغره لايبدو الا مبتسما ابتسام الوقار والحشمة ..

سارت الفتاة فى الحديقة ومعظم أشجارها عار من الورق ، وأكثر رياحينها خالية من الأزهار كأنهـا تشارك فتاتنا الذبول والانكسـار ، الا الأرض فقد كانت كأنها بسـاط من العشب الأخضر ، مرصّعة ببعض الأزهار التى تتفتّح فى الشتاء . فمشت الفتاة وهى لا تبالى بما قد يعترض طريقها من الأغصان المدلاة . فربما لطم كتفها غصن ولطم صدرها آخر ورأسها ثالث . وبين يديها امرأة عجوز تحوم حولها وترعى حركاتها وتزيل العقبات من سبيلها . ولم تكن العجوز أقل منها قلقا ، ولكن الزمان حنّكها ومرور الحدثان علّمها أن الدنيا لا تدوم على حال

وكانت الفتاة تمشي وتلتفت نحو القصر ، ثم ترسل نظرها من خلال الأشجار الى ما يطل عليه ذلك البستان من الحدائق البعيدة ، وفوقها جبال شامخة يعلو بعض قممها ثلج تنعكس عنه الأشعة كأنها جبال من الفضة . والفتاة تارة تنزل فى واد وطورا تصعد على تل ، والعجوز تقطف لها زهرة من هنا وثمرة من هناك ؛ فتتناول الفتاة الزهور والثمار ولا تتكلم ، كأنما قد حكم عليها بالصمت وأصبح الكلام عليها ذنبا

وبعد أن سارت برهة انتهت الى أكمة منبسطة تطل على النهر

يكسوها عشب قصير كأنه بساط من الديباج ، وقد تطاير عنه الندى بوقوع الأشعة عليه ، فراق لفتاتنا الجلوس عليه والتعرض لأشعة الشمس التماسا للدفء وللتمتع بمنظر السماء الأزرق الصافى ، فالتفتت الى العجوز وقالت بصوت مختنق لطول السكوت : «ما قولك ياخالة ؟ ألا نجلس على هذه الأكمة نتمتع بهذا الطقس الجميل .. ؟ »

فهرعت العجوز وهى تصلح نقابا كانت قد لفّت به رأسها وأذنيها تجنبا للبرد وقالت : « اجلسى حيثما تشائين يا حبيبتى ! » ثم أسرعت الى كرسى من خشب كان فى احدى طرق الحديقة وجاءتها به ، فأبت الجلوس عليه وقالت : « أفضّل هذا العشب فان الجلوس عليه حسن فى هذا اليوم » . فجلست ، وجلست العجوز بين يديها وهى لا تزال ترقب حركاتها ، وقلبها يحوم حولها ، وقد سرها ارتياحها الى مناظر الطبيعة . فجعلت ترغّبها فى امتاع نظرها بما تشرفان عليه من مجرى النهر وما وراءه من التلال التى تكسوها غابات الصنوبر والزيتون والسنديان ، ويتخلل الغابات بيوت متفرقة هنا وهناك .. وكان الناظر الى تلك البقعة ينظر الى لوحة فنية مكبّرة . فقالت العجوز : « تأمّلى يا فلورندا فى هذه المناظر الجميلة فينشرح صدرك ، ودعى عنك الأوهام » ..

وكانت تلك التعزية سببا فى اثارة شجون فلورندا ، فقالت : « لقد ذكّرتنى ياخالة بأمر أحاول أن أنساه .. كيف ينشرح

صدرى وأنا أعانى كما تعلمين من الاضطراب والقلق ، وقد زادنى انشغالا انتقالى الى هذا القصر ... »

فقالت العجوز : « وماذا يخيفك من ذلك الانتقــال ، وقد أصبحت أقرب الى قصر الملك وأعز جانبا .. ؟ »

فقالت فلورندا وهى تتطلع الى أبعد ما يقع عليه بصرها من مجرى النهر وكأنها ترى قاربا بعيدا : « ان ذلك الانتقال هو الذى أخافنى .. وياليته نقلنى الى أطراف المدينة ، بل ياليتــه أرجعنى الى والدى ! » قالت ذلك وشرقت بدموعها ، فانصرفت عن النظر الى ذلك القارب بما جال فى خاطرها من أمر والدها وبُعدها عنه ووقوعها فى ذلك الخطر

— ٣ —

الفونس

وكانت العجوز خالة أم فلورندا ، وقد احتضنتها منذ طفولتها وربّتها فى بيت والدها ، حتى آن وقت مجيئها الى بلاط الملك — على جارى عادتهم — فكلّفها أبوها أن تكون معها . فقضت فى عشرتها بضعة عشر عاما ، ولم تكن تزداد الا حبا لها وعطفا عليها لما فُطرت عليه فلورندا من الجمال واللطف . ولما رأتها تبكى انفطر قلبها ، وقالت : « ان الرجوع الى والدك ميسور ، ولكننى لا أرى بأسا فى بقائك هنا وبخاصة لأجل الفونس .. »

فلمّا ذكرت العجوز اسم الفونس ظهرت الدهشة على وجه الفتاة ، وكأنها كانت فى غفلة ثم أفاقت — على حين فجأة — فدق قلبها وصعد الدم الى وجهها فزال ذبول لونها . ثم تنهّدت والتفتت الى العجوز ، وقالت : « دعينى من الفونس .. حتى الفونس نفسه ، كان من أسباب شقائى ، وقد كنت كما تعلمين أحسبه سبب سعادتى .. آه .. دعينى أبكى »

فقالت العجوز : « مالى أراك تحسبين الشقاء محيطا بك من كل ناحية ، وأنت من أسعد خلق الله . كيف تقولين ان الفونس من أسباب شقائك وهو خطيبك ، ويتفانى فى سبيل رضاك ؟ »

قالت فلورندا : « أعلم ذلك وهو الذى يزيد قلقى .. أحبه ويحبنى .. ولكن ما الفائدة من هذا الحب ؟ ان الذنب ذنبك يا خالة .. أنت علّقت قلبى به ، وكنت خالية البال ، لا أعرف القلق ... سامحك الله » ..

قالت العجوز : « لم أندم — أبدا — على ما بذلته من الجهد فى تقريب قلبيكما لأنكما متفقان خلقا وخُلقا ، وأنتما من عائلة واحدة . ولمّا سعيت فى تقريبكما ، كان هو ولى عهد هذه المملكة الواسعة . ولما وفّقت الى ارتباطكما برباط الخطبة حسبت أننى بلغت بك أوج السعادة ، لأن الفونس كان على وشك أن يصير ملكا على أسبانيا كلها .. فتكونين أنت ملكة القوط . ولم يخطر لى على بال أن يحدث ماحدث من الانقلاب ، فيسعى أهل المطامع والأغراض فى قتل أبيه ونزع المُلك منه ليكون لأحد قواده » .

ولمّا قالت ذلك ، خفّضت من صوتها والتفتت الى ما حولها مخافة أن يسمعها أحد ، ثم عادت الى اتمام جديثها ، فقالت : «فاذا كنت تعتبرين ضياع المثلث من بين يديه شقاء ، فلا ألومك »

فقطعت فلورندا كلام خالتها ، وقالت : « لا ، لا .. ليس ذلك سبب شقائى ، وانما هو انقطاع الفونس عن المجىء التّى .. ها قد مضت أشهر ولم أشـاهده ، وأظننى لن أشـاهده بعد أعوام وبخاصة بعد انتقالى الى هذا القصر . أعوذ بالله منهذا الانتقال .. ان قلبى يحدثنى بسوء سيصيبنى منه . ولذا ترينني منذ انتقلت اليه وأنا منحرفة الصحة لا يهنأ لى عيش .. »

فقالت العجوز : « أراك واهمة يا حبيبتى ، فما فى هذا القصر الا ما يدعو للانشراح .. وأما سبب انقباضك فهو شـوقك لألفونس ، وهذا لا ألومك عليه ، وان يكن معذورا فى تغيّبه.. لأن الملك يراقب حركاته وسكناته خوفا منه لعلمه بما اختلسه من قبضة يده » ..

وكان القارب الذى وقع نظر فلورندا عليه فى أعلى النهر قد توارى بين بعض الصخور ، ثم ظهر من بينها — مرة أخرى — على مقربة من حديقة القصر . ولما وقع نظر فلورندا عليه خفق قلبها لأنها رأت فيه الفونس واثنين من رجاله . فلم تعد تعلم ماذا تقول، واكتفت بالاشارة اليه ، ثم اقترب القارب من الضفة ونزل الفونس الى البر .. وأشار الى الرجلين فنزل أحدهما ومشى فى جهة أخرى ، وظل الثانى فى القارب . وأما الفونس فحين وقع نظره على فلورندا

أسرع اليها وعليه لباس القواد الرسمي وهو عبارة عن : سراويل منتفخة قصيرة مبطّنة بالفرو الى الركبة ، وحول صدره درع مقفل من الأمام وفوقه قباء قصير أرجوانى اللون ، وحول خصره منطقة من جلد عريضة ، وعلى رأسه قبعة صغيرة لها جناحان من ريش الطير، ومن تحت القبعة شعره الأسود يسترسل على كتفيه.. وكان الفونس فى العشرين من عمره ، ولم يستطل شعر عارضيه وشاربه بعد .. وكان أبيض الوجه أسود العينين اذا حدّقت فى عينيه تبيّنت فيهما الحب والوداعة مع النباهة ، ولم تر فيهما شيئا من المكر. وكان قد تعلّق بحب فلوروندا منذ أذكان أبوه على عرش أسبانيا ، وهو يومئذ ولى عهد المملكة لأنه أكبر اخوته . وكانت فلوروندا تستبعد أن يكون لها يومئذ ، ولكن خالتها العجوز سعت لدى الملكة والدة الفونس قبل وفاتها بما لها من الدالة عليها .. فنجحت فيما سعت اليه ، وتعلّق الفونس بفلوروندا تعلقا شديدا . وكان يتردد عليها كثيرا ويجالسها كل يوم تقريبا ، ثم انشغل عنها بعد وفاة والده بما انتابه من ضياع الآمال . وأصبح رودريك الملك الجديد، وقد وضع عليه العيون والأرصاد..فخشى الفونس أن يجيىء اليها ، ولكنه كان يترقب الفرص لرؤيتها والسؤال عن أحوالها ، حتى سمع بانتقالها من القصر القديم الى القصر الملاصق لقصر الملك ، وانها تقيم فيه وحدها فهاجت فيه عوامل الغيرة ، ولم يعد يستطيع صبرا عن مقابلتها للتمتع برؤيتها واستطلاع رأيها ، فاذا رآها لا تزال على عهدها أسرع فى عقد

القران ، لأنه كان يظنها قد زهدت فيه بعد خروج المَلك من بين يديه . واتفق احتفال أهل طليطلة بعيد الميلاد فى تلك الأثناء ، وقد خرج الملك فى موكبه الى الكنيسة الكبرى ، والفونس فى جملة الحاشية وعليه اللباس الرسمى ، فخطر له — وهو فى الطريق — أن يتخلف عن الموكب خلسة ويمضى الى فلورندا لأنه كان قد بلغه انحراف صحتها ، فرجّح أنها لن تخرج الى الصلاة فى ذلك اليوم.. ورأى أن يستقل القارب لئلا يراه أحد فى أسواق المدينة ، وجاء معه فى القارب اثنان من خاصته . فلما نزل الى البر أرسل أحدهما لاستقدام فرسه حتى يعود عليه راكبا الى الموكب قبيل خروج الملك من الصلاة . واستبقى الآخر فى القارب لحين الحاجة . أمر خادمه بذلك والتفت ، فوقع بصره على فلورندا ، فاندفع يسرع نحوها وهو يثب وثبا ، والمسافة بينه وبينها نحو مائة متر

— ٤ —

لغة الحب

أما فلورندا ، فقد اندهشت حين رأت الفونس قادما ، وظهرت البغتة فى عينيها ، وأسرعت دقات قلبها ، وارتعدت ركبتاها وأرادت أن تقف لتلقاه فلم تستطع من شدة التأثر وامتقع لونها ، وشخصت ببصرها اليه وهى لا تصدق أنها تراه . أما هو فلمّا دنا منها ولم تقف له ولا رحّبت به ، ثبت لديه ما كان يظنه من زهدها فيه .

وبعد أن كان مسرعا بلهفة المشتاق ، تباطأ وندم على مجيئه وتطفله . ثم ما لبث أن رأى العجوز تهرول اليه وهى تتعثر بطرف ثوبها حتى كادت تقع وهى تقول : «أهلا وسهلا بحبيب القلب الفونس»

فاطمأن قلبه ولكنه ظل خائفا ، فمشى حتى اقترب من فلورندا فاذا هى لاتزال جالسة ، وقد التفت بالرداء ويداها مختبئتان فيه ، حتى اذا وقف بين يديها رفعت بصرها اليه ونظرت اليه نظرة خرقت أحشاءه ، وقرأ فى عينيها من تلك النظرة ما لو كتب على الورق لملأ عدة صفحات .. قرأ فيهما العتاب والتعنيف ، قرأ الشوق والوجد ، قرأ فيهما الحب والغرام والاستعطاف والاستفهام ... فلم يستطع جوابا على تلك المعانى الا بأن يخر راكعا على ذلك البساط الأخضر وهو يقول بنغمة المحب الولهان : « السـلام يا فلورندا ، السلام .. ! » ومد يده وأحنى رأسه كأنه يسألها احسانا ، فظلت هى شاخصة فيه ويداها لا تزالان مختبئتين فى ذلك الرداء ، ولبث الاثنان شاخصين برهة وعيونهما تتخاطب وتتفاهم حتى غلب الدمع على فلورندا فغشى عينيها ، فحجب عنهما وجه الفونس .. فأخرجت يدها من الرداء لتمسح عينيها ، فسبقها الفونس الى اخراج منديله هو ومسحهما به ، ثم مسح به وجهه وتنشق رائحته وتنهد تنهدا شديدا ، وأعاد يده فمدها الى فلورندا فلم تمد يدها اليه . ففهم أنها تتعمد ذلك دلالا وعتبا ، فلم ينتظرها فمد يده وقبض على يدها قبضة ارتعدت لها فرائض الاثنين كأنهما أمسكا بتيار كهربائى قوى ..

ومضت فترة وهما يتخاطبان بالنظرات، ولهما من قراءة الأفكار ما يغنيهما عن الألفاظ .. وكانت العجوز تتشاغل عنهما بقطف بعض الأزهار والتوارى بين الأغصان ، رفقا بعواطفهما واغضاء عما قد يبدو منهما فى مثل هذه الحال . وظل الفونس ساكتا وقد عوّل على الصبر حتى تكون فلورندا البادئة بالكلام . فقضـيا برهة واليد باليد ، والعين على العين ، والقلبان يتسارعان كأنهما يتفاهمان بالخفقان . وقد غشى الأعين ماء لامع هو من أسمى علامات الهيام

ثم بدأت فلورندا الحديث بنغمة الدلال والعتاب : « ما الذى جاء بك يا الفونس ؟ .. »

قال : « لا أدرى ما الذى جاء بى يا حبيبتى .. فهل تعلمين أنت ؟ أما الذى أعلمه فهو انى أسير هواك ، وانى حىٌّ برضاك ميت بجفاك .. حبيبتى فلورندا ، هل عندك مثل ما عندى ؟ .. نعم أعلم أنك كنت تحبيننى ، ولكن هل أنت باقية على ذلك أو على بعضه .. أم غيّرك ما غيّر من أحوالنا وأضاع من آمالنا ؟ » ..

فأدركت أنه يشير الى ضياع المُلك من يده ، فسحبت أناملها من بين أنامله بلطف ، وأظهرت أنها تحوّل وجهها عنه ، ونظرها لا يزال ثابتا على نظره كأنها تقول له : « أهذا هو مبلغ علمك بالحب وعواطف المحبين ؟ » ففهم الفونس مغزى تلك الاشارة فقال لها : « لم أكن أشك فى صدق مودتك وقد امتزج قلبانا . ولكننى حسبت ان سوء حظى غيّرك ، وظننت أيضا اننى بعد أن خسرت أبى ومملكتى قد جرنى سوء الطالع الى خسارة ما هو أثمن

من ملك العالم كله » . قال ذلك وقد أبرقت عيناه وانبسطت أساريره ، وهو لايزال ينظر اليها ويتوقع أن يسمع قولها ، فعادت الى الصمت والتفتّت بردائها وحوّلت نظرها الى مجرى النهر وأصغت الى صوت هديره ، فاستولى على تلك الحديقة سكون لم يكن يتخلله الا خرير الماء وزقزقة العصافير

فلما طال سكوتها بحث الفونس عن العجوز ، فاذا هى قادمة وفى يدها بعض الأزهار ، فناداها وهو يقول : « تعالى ياخالة ، كلّمى فلورندا عساها أن تتعطّف علىّ بكلمة أبرّد بها لظى وجدى » ..

— ٥ —

المحب كثير الشكوك

وكانت العجوز قد وصلت اليهما ، فقدمت الزهور الى فلورندا ، وأجابت الفونس قائلة : « اذا كنت لاتفهم بدون كلام ، فما أنت من أهل الغرام .. أيحتاج ما تراه فى فلورندا الى ايضاح ؟.. وهل تظن أن ما يليق بالشبان من التصريح بخلجات الحب يليق بالفتيات أيضا ؟ » ثم التفتت الى فلورندا ، وقالت : « هذا هو الفونس .. كلميه واسأليه ، وقد سمعت منك شكًّا فى محبته .. فهل تحققت من صدق قولى فى ثباته ؟ »

فرفعت فلورندا بصرها اليه ، وقد أخذ الهيام منها مأخذا

عظيما حتى ظهر ذلك جليا فى عينيهـا لما اعتراهما من الذبول واللمعان، فشخصت ببصرها اليه برهة وهو يكاد يختطفها ببصره ، وقد نسى مصيبته فى المثلث وضياع حقه فيه وهان عليه أن ترضى فلورندا ولو خسر العالم بأسره . وفيما هو غارق فى تلك الهواجس سمعها تقول : « هل شككت فى حبى يا الفونس ؟ »

قال : « نعم يا منيتى .. والمحب كثير الشكوك ... »

فأطرقت وهى تقول : « صدقت ان المحب كثير الشكوك ، فقد خامرنى من الشك مثل ما خامرك كما قالت خالتى . ولكن .. »

فقطع الفونس كلامها قائلا : « لست أرى مبررا للشك فىَّ ، وأنت تعلمين اننى أسير هواك . وأما أنا فيحق لى أن أرتاب فى بقائك على عهدك لما أصابنى من نوائب الزمان . فقد كنت وليا لعهد هذه المملكة ، فأصبحت مثل سائر رجالها .. »

فلما سمعت فلورندا ذلك أسرعت بالجواب قبل أن يتم الفونس كلامه ، فقالت : « لما أحببتك ، يامنيتى ، انما أحببت الفونس .. ولم أحب ولى عهد مملكة القوط . ان الحب لا ينظر الى الرتب ولا المناصب . والقلوب يا ألفونس تتعاقد وتتحد وهى لا تبصر ، ولا تقيس ، ولا تكيل ، ولا تزن ، وهى لاتتعارف بالتوصيات ، ولا تعرف المجاملات ، ولا تفرق بين الحقوق والواجبات .. القلب يا ألفونس لايرى علامات الشرف ولا يهوى التيجان ولا يخاف الصولجان ، القلب يا حبيبى لا يهوى الا القلب »

قالت ذلك وقد توردت وجنتاها وبان الاهتمام على محياها ،

وأطرقت وسكتت وفى ملامح فمها أنها لم تتم الكلام بعد . فلم يشأ الفونس أن يقطع سلسلة أفكارها ، فظل صامتا وهو ينظر اليها نظر المستزيد ، ولسان حاله يقول : « أتمّى كلامك » . فلما رأته يتوقع سماع تتمة كلامها ، قالت : « على أنى آسفة لخروج هذا الأمر من يدك .. لا لأنى أحب أن أكون ملكة ، ولكن ...» ثم غلب عليها الحياء والغضب معا . فتزايد احمرار وجهها وقد تقطبّت ملامحها ، والتفتت الى القصر كأنها تخشى رقيبا ، وسكتت. فانشغل بال الفونس بذلك السكوت ، وأدرك بعض ما تريد ، ولكنه تجاهل وقال لها : « ولكن ماذا يافلورندا ، ياحبيبتى ؟.. قولى .. أفصحى .. ! »

قالت فلورندا وهى تخفض صوتها : « ولكننى لولا هـــذا الانقلاب ما كنت أقاسى هذه المتاعب ، وما كنت أحس بأنى بين أنياب الأسد ، وملاكى الحارس بعيد عنى » ثم خنقتها العبرات ، ولكنها استمرت فى الكلام فقالت : « لقد كنت أشعر بهدوء البال وراحته لو ظل غيطشة على كرسى المملكة أو لو أنه عهد به اليك .. فما كان لهذا المختلس سبيل الى اقلاق راحتى »

فقطع الفونس كلامها ، وقد ظهرت عليه البغتة واتقدت الغيرة فى قلبه ، وقال : « بماذا أقلق راحتك ؟ هل خاطبك فى شىء ؟ هل بدا لك منه سوء ؟ أخبرينى ، قولى .. ! »

قالت فلورندا : « كلا لم يبدُ منه شىء ، ولكننى لا أحسب نفسى فى مأمن وبخاصة بعد أن نقلنى الى هذا القصر ، ولم أفهم

لهذا النقــل معنى . فبقــاء المـلك فى يدك أدى الى سرورى وسعادتى من هذه الناحية فحسب »

فأدرك الفونس الأمر الذى تشير اليه ، مع ما توخته من المبالغة فى تلطيف العبارة ، وعلم انها تقرّعه لتقــاعده عن المطالبــة بحقوقه . وكان لايزال الى تلك الساعة جاثيا بين يديها ، فلمّا سمع قولها أحس كأنها صبّت على بدنه ماء يغلى ، فوقف وقد غلب عليه الهيام وهان عليه كل شيء فى سبيل رضاها ، وقال : « يحق لك يافلورندا أن تلومينى ، فقد تقاعدت عن هذا الأمر ، ولكن لكل أجل كتاب . وكنت أمسكت عن زيارتك ، وقد عزمت ألا أزورك الا بعد أن أحقق رغبتك ، فطال سعيى ولم أصل الى الغاية ، فلم أعد أصبر على بُعدك وأنا أخشى فتورك ، ثم رأيت فيك من الثبات فى الحب ما زادنى ثباتا على مسعاى . فاعلمى يا فلورندا أن من يعتمد عليهم هذا المختلس من أحزاب الروم ليسوا سوى عصابة ضعيفة ، وانما تمكن الأساقفة من تنصيبه ملكا رغبة فى خدمة رومية ، (١) وكذا أحزاب المملكة ضده وفيهم القوط واليهود وكل من يكره الظلم. وليس هذا موضع الافاضة فى هذا الشأن ، ولكننى أقسم لك برأس أبى وان كان ميتا ، ان رودريك هذا لا يلبث أن ينزل ويعود المـلك الى أهله ... »

وكانت فلورندا تســمع كلامه وهى تنظر فى وردة من ورد الشتاء كانت خالتها قد جاءتها بها ، فتشاغلت بنثر أوراقها وهى

(١) تاريخ اسبانيا لروجى ـ الجزء الثانى

نصغى لما يقول ألفونس ، فلما بلغ الى قوله : « ويعود المثلث الى أهله ... » رمت بما بقى بين أناملها من تلك الوردة ، ورفعت بصرها اليه كأنها تتثبت من قوله أو تتفهم حقيقة ما يريد ، ففهم مرادها فازداد تهورا فى تصوره وأوهمه غرامه انه قادر على كل شيء .. فمد يده ومس أطراف شعره المسترسل على كتفيه وقال : « واذا كنت لا تثقين بقولى فانى أشهدك على نفسى ، وأشهد هذه الخالة أيضا ، ان بقاء هذا الشعر حرام علىّ ان لم أف بقولى » (١)

فتحققت فلورندا انه يقسم صادقا ، ولكنها لم تكن تجهل ما يحول بينه وبين تلك الأمنية من العقبات .. فأرادت أن تخفف من عهده ، فقالت : « لا حاجة بنا الى هذه الأقسام ، ولا تعرض نفسك للخطر من أجل المثلث فانه مجد باطل . وانما المراد أن نكون معا فى مأمن من أهل الاعتداء ، ولو فى كوخ من أكواخ هؤلاء العبيد الذين يشتغلون فى الحرث والزرع »

— ٦ —

موكب الملك

فأراد ألفونس أن يجيبها فسمع صفيرا فبهت وأرهف السمع ، فسمع قرع الطبول وقرقعة اللجم ، فعلم ان موكب

(١) كان ارسال الشعر من علامات الشرف عند القوط ، ولا يحلقه او يقصه الا العبيد

الملك راجع من الكنيسة . وقد وصل الموكب الى القصر ، وهو لايزال مستغرقا فى حديثه مع فلورندا .. فندم وتحقق انه أخطأ ولا بد من أن يسىء رودريك الظن فيه . ورأته فلورندا قد بغت وسمعت هى مثل ما سمع ، فأدركت انه أبطأ عن الاحتفال ، فقالت له : « اذهب الآن بسلام وليكن الله معك ... »

فأمسك يدها وودعها وهو يقول لها : « ادعى لى فانك من الملائكة ودعاؤك مستجاب ، واذكرينى فى صلاتك عساى أن أوفق لمرضاتك .. » فأجابته باشارة من أهدابها وحاجبيها ، فانطلق نازلا نحو القارب ليبعد به عن الحديقة ، ثم يركب فرسه الى القصر من طريق آخر . وظلت فلورندا واقفة وهى تشيعه ببصرها حتى توارى ، فعادت الى هواجسها والعجوز بين يديها . فرجعتا نحو القصر وفلورندا لا تتكلم لعظم ما قام فى نفسها بعد ذلك الحديث . وقد ندمت لتعريضها بأمر الملك ، وخشيت أن يؤدى ذلك الى ضرر يصيب حبيبها

أما رودريك ، فقد سار بموكبه الى الكنيسة فى ذلك الصباح ، وفى نفسه شاغل من أمر ألفونس ، لأنه كان يتوقع ان يراه فى الموكب فى جملة الحاشية ، وكانوا قد زينوا الكنيسة للملك زينة باهرة بالرياحين ، وأضاءوا الشموع وأوقدوا البخور حتى انتشرت رائحته على ما جاور الكنيسة . وكانت أصوات المرتلين والمصلين تدوى فتسمع لمسافة بعيدة ، والناس يتزاحمون

لمشـاهدة مركبة الملك حتى كادوا يدوسـون بعضهم بعضا ، والمطلون من الأسطح والنوافذ أكثر من المارين فى الأسواق ..

ولما أقبل الملك بموكبه ، خرج الأساقفة لاستقباله ووراءهم وبين أيديهم الشمامسة والرهبان يحملون المشاعل من الشمع ، وبعضهم يحمل الصليب ، وآخر يحمل الكأس ، وآخر غير ذلك من شارات النصرانية .. فترجل الملك عن بعد وترجل من كان معه ، فكان أول من استقبل الملك رئيس الأساقفة فحياه ، فانحنى الملك على يده وقبّلها وقبّل صليبا مرصّعا كان فيها ، ومشوا جميعا فى فناء الكنيسة الخارجى والأساقفة ورجال الكهنوت أمامهم حتى أقبلوا على واجهة الكنيسة من الغرب فدخلوا من بابها ، وهو يتألف من ثلاثة أبواب : أوسطها أعظمها ، عتبته العليا على شكل قنطرة مثلثة عليها نقوش محفورة تمثل الملائكة وبعض القديسين والأنبياء . فمشى الملك وعلى رأسه تاج من الذهب يشبه تاج الرومان ، وشعره مسترسل على كتفيه وظهره ، وشعر لحيته وشاربه مسترسل الى صدره . وبين يديه كل أشراف المملكة بشعورهم المسترسلة وقبعاتهم المتشـابهة ، وهم مبتهجون بما يحسون به من الزهو فى ذلك العيد . وساروا فى صحن الكنيسة بين أعمـدة فخمة من الرخام النقى أو المرمر ، مقامة فى ثلاثة صفوف من الغرب الى الشرق يزيد عددها جميعا على ثمانين عمودا ، وارتفاع الكنيسة من صحنها الى أعلى قبتها ٤٦ مترا ،

وطولها يزيد على مائة متر . وقد زادها فخامة فى ذلك اليوم ما علقوه فيها من الثريات المضيئة بالشموع الملونة والقناديل المنارة بالزيت أمام الصور ، وقد تصاعد البخور وعلت أصوات المرتلين يتخللها غوغاء الناس بالرغم مماكان يبذل الكهنة فى سبيل اسكاتهم

وظل الملك ماشيا حتى جلس على كرسى خاص به الى جانب الهيكل ، واستقر سائر حاشيته فى مجالسهم وهم يرسمون علامة الصليب . أما الملك فكان يفعل مثلما يفعلون ، وعيناه شائعتان فى حاشيته من الجماهير كأنه يفتش عن شىء ضائع . وكان يجلس على كرسى عن يمينه قس كان يلازمه دائما ، فيقيم معه فى قصره ويصلى له صلاة النوم وصلاة الصبح ، وهو الذى يوجهه ويرشده وينصحه . وكان الملك لايذهب الى احتفال الا صحبه ، ولم يكن يبرم أمرا الا بمشورته ، واسمه الأب مرتين ، وكان طاعنا فى السن وقد شاب شعره ودق عظمه وتجعد جلد وجهه ، واستطالت أسرّة جبهته ، وغارت عيناه .. وزادهما غورا واختفاء ارسال شعر حاجبيه فوقهما . وقد تساقطت أسنانه وانخفضت شفتاه حتى أصبح فمه واديا بين جبلين . وكان فى شبابه وكهولته سريع الكلام ، فلما سقطت أسنانه خالط كلامه تمتمة تتعب السامع فى تفهم ما يقول . وكان قصير القامة منتصبها مثل قامة الشبان . وكان شديد التعلق بكرسى رومية لأنه ربى فيها ، فشب رومانى المبدأ والغرض . ولم يكن يحب جنس القوط على الاطلاق ، فكان لذلك من أكبر المساعدين على تنصيب رودريك

– ٧ –

الروم والقوط

والتباغض بين الروم والقوط طبيعى لأن اسبانيا لما فتحها القوط فى القرن الخامس للميلاد كانت رومانية المذهب والغرض ، وكل أعيانها وأكابرها من الرومان ، فتسلط القوط عليهم قرنين وبعض قرن ، ولم تتحد قلوبهم ولا تآلفت أغراضهم ، وظل القوطى يتكلم لغة الرومانى ، والرومانى لغة أخرى . وربما كان القوطى أحوج الى تعلم لغة الرومان « اللاتينية » من الرومان الى اللغة القوطية ، لأن اللاتينية لغة المملكة الرومانية ، وكانت اسبانيا تابعة لها ففتحها القوط ، ولم يستطيعوا استبدالها بلغتهم كما استبدل العرب لغات ما فتحوه من المملكة الرومانية الشرقية باللغة العربية . وشأن العرب والقوط فى فتح مملكة الرومان متشابه .. جاءها القوط من الشمال وجاءها العرب من الجنوب ، وكلاهما أهل بادية وخشونة فاكتسحاها ، واستولى كل منهما على جانب منها ، ولكن العرب استطاعوا ما لم يستطعه القوط ، فأنشأوا على أنقاض مدينة الروم مدينة خاصة بهم ، وجعلوا الأمم التى دانت لهم بتوالى الأجيال أمة واحدة تتكلم لغة واحدة ، وأما القوط فقضوا فى اسبانيا نيفا ومائتى سنة ، ثم خرجوا منها ولم يتركوا أثرا يذكر

وزد على ذلك ان القوط لما فتحوا اسبانيا كانت ديانتهم

الأريوسية على مذهب آريوس (١) صاحب البدعة الشهيرة فى النصرانية ، لأن دعاة هـذه البدعة لمـا أصابهم ما أصابهم من الاضطهاد وقاومهم الأباطرة أنفسهم ، هاجـروا من المملـكة الرومانية وتفرقوا حواليها فى الشمال والجنوب ، وأخذوا يبثون هذا المذهب فى القبائل المقيمة هناك ، ومنهم قبائل الجرمان فى شمالى أوربا وفى جملتهم القوط . فلما فتح القوط اسبانيا كانوا يدينون بالأريوسية وظلوا على ذلك قرنا وبعض قرن ، وظهرت فى أثناء تلك الفترة شيع أخرى اتبعها بعض الأسبان والقوط فى جملتها شيعة نسطور المشهورة ، وشيعة باشينسيوش وغيرهما

ففى أواخر القرن السادس ، تولى اسـبانيا ملك من القوط اسمه « ريكارد » فاتبع المذهب الكاثوليكى سنة ٥٨٧ للميلاد ، فتبعته الأساقفة ثم الرعية ، فعادت اسـبانيا الى مذهب كنيسة رومية .. وصار الأساقفة أكثرهم من الرومان ، وجعلوا فى جملة شروط انتخاب الملك أن يكون قوطيا كاثوليكيا (١)

ولم يمض قليـل حتى أحس القوط بالخطأ الذى ارتكبوه بالتخلى عن مذهبهم ولغتهم ، وعلموا ان ذلك التخلى سيعصف بدولتهم . وكان أكثر ملوكهم شعورا بذلك غيطشة والد ألفونس بطل روايتنا. فعزم علىالتخلص من تلك القيود . فشعر الأساقفة بمقاصده ، وكان النفوذ قد أفضى اليهم فاتحدوا مع أعيان البلاد

---

(١) تاريخ اسبانيا تاليف رومى ـ الجزء الثانى صفحة ٢٥٢

وهم يشايعون رومية ، فعزلوا غيطشة وولوا رودريك .. ويقال انهم فعلوا ذلك بعد موت غيطشة . وبهذه الطريقة خرج الملك من بيت غيطشة الى بيت رودريك وجماعة الأكليروس من حزبه . ويعتقد أصحاب غيطشة ان رودريك ليس من أصل قوطى ، ولذلك عدوه مختلسا

وكان الأب مرتين بين من سعى الى تنصيب رودريك . وكان يكره غيطشة وأولاده بنوع خاص ، لأن غيطشة كان يكرهه لشدة تعصبه لرومية .. فكان مرتين من أكثر الناس سعيا فى اخراج الملك من يديه الى رودريك . ولذلك كان رودريك لا ينفذ أمرا الا بمشورته . وكان فى جملة مشورات مرتين على الملك أن يضيق على ألفونس ولا يسمح بغيابه عن القصر ، وأن يكون دائما بين يديه خوفا من أن ينشىء الأحزاب للمطالبة بالملك (١)

فلما وصل الملك الى الكنيسة فى ذلك اليوم ، كان أول شيء نبهه اليه مرتين هو أن ألفونس لم يكن فى جملة فرسان الموكب . فتفرس الملك فى الناس فلم يجده بينهم فانشغل خاطره ، ولكنه ما لبث ان شغل عن ذلك بمراسيم الصلاة وما تقتضيه من الانتباه لحركات الكهنة فى أثناء القداس ، على انه كان يعود برهة بعد أخرى الى البحث عن الفونس خلسة ..

(١) كان لغيطشه ـ على قول بعضهم ـ ثلاثة أولاد

— ٨ —

المحاكمة

فلما انقضت الصلاة وخرج الملك الى موكبه ، عاد الى البحث عن ألفونس فلم يجده .. فركب ودعا الأب مرتين للركوب معه ، فقضيا مسافة الطريق يتساران فى سبب تغيب ألفونس فى ذلك اليوم . فلما دنا الموكب من القصر ، رأى الأب مرتين ألفونس مسرعا على جواده من جهة القصر ، وكان على علم بعلاقته بفلورندا فأدرك انها هى سبب تغيبه ، ولكنه اقتصر على تنبيه الملك الى مجيئه فى تلك اللحظة ..

فوصل الملك الى قصره وترجل عند الباب الكبير ، وصعد على درجات عريضة من الرخام تؤدى الى فناء القصر ، ثم الى باحة قائمة على أساطين ، ومن بعدها الى دهليز يتفرع الى طرق تؤدى الى أجزاء القصر المختلفة ، وفى جملتها قاعة المجلس . فدخل الملك وقسه من طريق خاص الى تلك القاعة ، ودخل رجال الدولة ــ وفيهم وفود المهنئين ــ من الطريق العام ، فجلس الملك على عرش مرتفع ، قوائمه على شكل قوائم الأسد ، وهو مصنوع من الفضة ، والملك فى الملابس الرسمية وعلى كتفيه بردة من الديباج موشاة بالذهب ، وعلى رأسه تاج من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة ، وفى يده صولجان من الذهب ينتهى بصليب مرصع . وكان رودريك فى نحو الأربعين من العمر ، ممتلىء

الجسم ، بارز الصدر والبطن ، قوى البدن ، تلوح على وجهه امارات البسالة ، وعيناه جاحظتان كبيرتان ، وحاجباه غليظان ، وشعر شاربه طويل يزيد على طول لحيته وعلى طول شعر رأسه

جلس رودريك على عرشه ، وفوق العرش صورة كبيرة تمثل السيد المسيح مصلوبا ، وعلى جدار القاعة صور عديدة دينية . وجلس بجانبه الأب مرتين وبين يديه رجال خاصته ، ثم توافد الناس لتقديم التهانى وفى جملتهم ألفونس فانه دخل وحيا الملك وهنأه كما فعل الآخرون ، وجلس فى جملة الجلوس . فلما همَّ الناس بالانصراف ، أراد ألفونس أن ينصرف .. فأشـار اليه رودريك أن يبقى ، فأوجس ألفونس خيفة من ذلك الاستبقاء . ولكنه صبر حتى اذا خلا المجلس ولم يبق فى القاعة غير الملك والقس ، ناداه الملك فوقف بين يديه ، فقال له الملك : « ما الذى أخرك عن مرافقة الموكب فى هذا الصباح يا ألفونس ؟ .. »

فبغت ألفونس لأنه لم يكن يظن ان الملك يهتم لغيابه كل هذا الاهتمام ، فعلت وجهه امارات البغتة ، ولكنه تجلد وأجاب : « كنت فى شغل خاص ، أعاقنى عن القيام بفروض الصلاة بين يدى جلالة الملك .. »

فقال الملك : « من الغريب ان يتفق لك هـذا الشاغل فى ذكرى عيد الميلاد وفى ساعة خروج الموكب .. » قال ذلك وحوّل نظره الى صورة فى الحائط تمثل مريم العذراء تحمل طفلها ، ثم تشاغل بتمشيط طرف لحيته بأنامله

فقال ألفونس : « نعم انه اتفاق غريب .. ولكنه وقع ولا حيلة فى وقوعه ، وانى آسف لذلك .. »

وكان الأب مرتين فى أثنـاء ذلك منصرفا الى تلاوة بعض الصلوات أمام صورة مريم العذراء بصوت منخفض لا يسمعه أحد ، ولما فرغ من صلاته عاد وقد تزمل بردائه وأصلح قلنسوته وجلس الى جانب الملك ، وأصغى لما يدور بينهما . فلما رآه ألفونس مهتما بالأمر اختلج قلبه بما بينهما من الضغينة

أما الملك فلما سمع الاعتذار لم يقبله ، ولكنه رأى من الحكمة أن يؤجل حكمه فى أقواله الى ما بعد مشورة القس ، فأراد أن يصرفه فسمع القس يقول له : « يظهر أن شغلك كان فى قصر جلالة الملك ، أو بجوار قصره » قال ذلك وتنحنح وأخـذ فى مسح فمه بمنديله

فزاد استياء ألفونس منه ، ولكنه خشى ان أجابه أن يصرح بشىء آخر ..

وأما الملك فانه توسم فى كلام القس شيئا كان يتردد فى ذهنه لم يتحققه ، فأراد أن يتفهم ذلك من مرتين على حـدة ، فلم يصبر على ألفونس حتى يجيب ، فالتفت اليه لفتة الاستخفاف والتهديد والاغضاء معا ، وقال : « انصرف الآن يابنى ، واحذر من أن تفعل ذلك مرة أخرى »

فأحس ألفونس عند ذلك بفرج سكن له جأشه ، وكأن ثقلا كبيرا أزيح عن صدره ، فسار الى الباب .. ثم خرج وهو لا يكاد

يرى شيئا مما أمامه لشدة ما قام فى نفسه من أسباب القلق ، ولم يكد يخرج من باب القصر حى انتبه لنفسه ، وتمثل له مركزه وما آل اليه أمره بعد ضياع المـلك من يده . فقد كان على عهد أبيه ، اذا مرَّ فى طريق تسابق الناس الى تحيته واحترامه ، فلا يبقى أحد لا يقف له . فمرَّ ذلك اليوم والناس يتزاحمون فى فناء القصر ، ولم ينتبه له أحد الا الأصدقاء .. وحتى هؤلاء أصبحوا يحذرون التظاهر بصداقته خوفا من الملك ..

خرج ألفونس وقد هبت فيه عوامل الغيرة ، وكانت ألفاظ فلورندا لا تزال ترن فى أذنيه .. فتذكر وعده اياها باسترداد المـلك ، فزاده غيظا من الملك ، فركب جواده وسار توا الى منزله وهو غارق فى بحار الهواجس ، وقد استصغر نفسه وهان عليه القيام بأى شىء فى سبيل الانتقام لوالده واسترضاء فلورندا

— ٩ —

لزيارة

أما رودريك ، فلما خرج ألفونس من مجلسه تظاهر برغبته فى الاستجمام ، فدخل غرفته الخاصة ، فجاء بعض رجال القصر فنزعوا لباسه الرسمى وألبسوه ثيابه العادية ، وهو لا يخاطب أحدا منهم فى شىء لانشغال خاطره بالعبارة التى سمعها من الأب مرتين عن ألفونس والقصر . فلما فرغ من لبس الثياب دعا الأب للغداء معه فجاء . ولم يخاطبه الملك فى شىء وهما على المائدة ،

لوجود الملكة معهما ، وهو يحب أن يبعد أمثال هذه المواضيع عن ذهنها لما يترتب عليها من الغيرة ، فلما فرغوا من الطعام قال الملك : « يا أبتاه أطلب اليك بعد ختام المائدة بالصلاة أن ترافقني الى غرفتي .. » ولم تكن هذه الدعوة غريبة على الملكة لأن زوجها كثيرا ما كان يخلو الى الأب مرتين مثل هذه الخلوة ، لاستجلاء الرأى أو للمشاورة أو للاعتراف أو غير ذلك ..

فلما خلوا فى الغرفة قال رودريك : « ما قولك فى صاحبنا اليوم .. ؟ »

قال : « اذا كنت تعنى ألفونس ، فأرى ان جلالة الملك قد بالغ فى الحلم والرأفة فى معاملته .. كيف يتغيب عن موكب جلالتك لأعذار ما أنزل الله بها من سلطان ؟ .. » قال ذلك بنغمة الاستغراب ، واستعجل فى نطقها لتكون أكثر تأثيرا فى نفس الملك ، ولو لم يكن رودريك قد ألف ألفاظه وتمتمته لما فهم منها شيئا ..

فقال له الملك : « ولكننى سمعتك تشير الى عذره اشارة لم أفهمها جيدا .. »

فأدرك الأب مرتين ان الملك يحتال فى استطلاع ما بين ألفونس وفلورندا ؛ وهو يتجاهل ويوهم « مرتين » انه يسأله سؤالا بسيطا ، فسايره الأب وأجابه قائلا : « لم أقل شيئا ، وانما قلت انه تأخر فى القصر .. »

قال الملك : « وأى قصر ؟ .. »

قال القس : « وأى قصر ؟.. قصر جلالة الملك .. كأن مولاى لا يعلم بعلاقته بذلك القصر ... »

قال الملك وهو يبالغ فى التجاهل : « لا أعلم علاقة له بهذا القصر بعد أن خرج المتلك منهم ، ووضعت يدى عليه .. »

فقال القس : « لا. أعنى علاقته بالمتلك .. بل أعنى علاقته بفلورندا بنت الكونت جوليان التى أمر جلالة الملك بنقلها الى القصر الصغير منذ بضعة أيام ... »

فلما ذكر اسمها بغت الملك وخفق قلبه حبا وغيرة ، ولكن انفة الملك ثبتت عزيمته فتجلد كأن الأمر لا يهمه وقال : « أهى علاقة قرابة ؟ .. أم ما هى ؟ .. »

فقال القس : « لا يخفى على جلالة الملك أن الكونت جوليان حاكم سبتة والد فلورندا ، بينه وبين غيطشة قرابة أظنها نسائية ، ولكننى أعنى قرابة ألفونس من فلورندا بنوع خاص ... »

فقال الملك : « أية قرابة ؟ .. »

فضحك مرتين وقال : « كنت أحسب أن الملك يعلم بذلك لأن خطبتهما معروفة من قبل أن تتولى جلالتكم عرش اسبانيا ؟ »

فلما سمع رودريك ذكر الخطبة عظم عليه الأمر لأنه كان يحب فلورندا كثيرا ، ولم يكن يعلم بهذه الخطبة .. ولكنه لم يكن يخشى خروجها من يده اعتمادا على ما له من السيطرة عليها وعلى خطيبها ، وعوّل على أن يطمعها بالمال والسلطان ، أو يتهددها حتى تترك الفونس وتعيش معه .. ولم يشأ أن يتطلع القس على

خواطره فتظاهر باقتناعه بهذا الجواب ووقف .. فأدرك القس ان الملك يريد الانصراف ، فوقف هو وانسحب ..

وكان بين غرفة الملك وغرفة فلورندا دهليز يؤدى الى ذلك القصر ، وليس الى قصر فلورندا سبيل من قصر الملك سوى ذلك الدهليز ، وقد بنى قصرها على هذه الكيفية لمثل هـذه الغـاية ، فعول رودريك على مكاشفتها بحبه لعلها تغضى عن حب ألفونس . ولم يشأ أن يستقدمها الى غرفته لئلا تشعر الملكة بذلك ، وهو انما ينوى معاشرتها خفية عنها . فأغلق باب غرفته الذى يصل الى قصره ، وفتح الباب المؤدى الى قصر فلورندا ..

— ١٠ —

طارق

أما فلورندا فكانت بعد ذهاب حبيبها من الحديقة قد ذهبت هى والعجوز الى القصر ، وقد أخذ الهيام منها مأخذا عظيما ، وركزت كل تفكيرها فى مراجعة ما دار بينها وبين ألفونس فى ذلك الاجتماع ، وندمت على ما فرط من أقوالها التى تدفعه الى طلب المثلث .. فمالت الى الخلوة لتفكر فيما قالت ، لعلها تهتدى الى ما يخفف هواجسها ، فدخلت غرفتها . وكانت تلك الغرفة تطل على الحديقة من جهة نهر التاج ، ويحجبها عن النهر شجرة من أشجار اللوز ، قد امتدت أغصانها وتشامخت ، حتى أصبحت

فلورندا اذا جلست الى نافذتهـا لا ترى النهـر الا من خلال الأغصان ، وخاصة فى ذلك الفصل حينما تكون تلك الشجرة جرداء تقريبا ، فجلست فلورندا على كرسى بجانب النـافذة وأرسلت نظرها من خلال تلك الأغصان العارية الى النهر وما وراءه ، فرأت القارب قد ابتعد عن المكان .. فتذكرت انها رأت حبيبها فيه ، ثم أرسلت أفكارها فى فضاء الهواجس ..

أما العجوز فانها تركت فلورندا وهواجسها ، وانصرفت الى ايقونة بجانب سرير فلورندا فيها صورة السيد المسيح مصلوبا ، وجثت أمام الصورة وقبلتها وجعلت تقرع صدرها وتطلب الى السيـد المسـيح أن يحفظ ألفونس ويوفقه ويتم له الزواج بفلورندا . وبعد الفراغ من الصلاة ، قبلت الصورة وخرجت وأغلقت الباب وراءها ، وأوصت الخدم أن لايقربوا من الغرفة لئلا يزعجوها . على ان الخدم لم يكن يؤذن لهم بالصعود الى الطبقة العليـا من ذلك القصر حيث كانت فلورندا ، بل كانوا يقيمون فى الطبقة السفلى .. فاذا أرادت شيئا بعثت اليهم مع العجوز ..

واستغرقت فلورندا فى هواجسها أمام تلك النـافذة حتى نسيت نفسها ، وقد أضناها التفكير فأحست بالنعاس ، فاتكأت على سريرها .. وسرعان ما اسـتغرقت فى النوم ، فتراءى لها ألفونس فى منامها قادما نحوها ووجهه يفيض نورا وأحبت أن تقبله فلم تستطع ، فانزعجت وأفاقت وهى منقبضة النفس .

وبينما هى تمسح عينيها لتتحقق من أنها كانت فى حلم سمعت وقع خطوات ، فنظرت فاذا بالعجوز تدخل من الباب وعلى وجهها مظاهر الخوف ، فجلست فلورندا وقد بغتت ، وقالت : « ما بالك يا خالة .. ما وراءك ؟ .. »

قالت العجوز : « ما ورائى الا الخير .. لا تضطربى .. » وسكتت ..

فازداد قلق فلورندا ، وصاحت بها : « ماذا جرى ؟ .. هل أصاب ألفونس سوء ؟ .. »

قالت العجوز : « معاذ الله .. ولكن الملك يدعوك اليه .. »

فلما سمعت ذلك اضطربت ونسيت هواجسها بحبيبها ، وتشاءمت من تلك الدعوة وقالت : « أين هو ؟ .. وما الذى يبتغيه منى ؟ .. »

قالت العجوز : « لا أدرى ياسيدتى ، ولكنى كنت فى غرفتى أصلح بعض شأنى ، فرأيت الملك بنفسه يتسلل كالسارق فبغتُّ لرؤيته ، فسألنى عنك وطلب الىّ أن أدعوك الى الغرفة الشمالية من هذا القصر ، على أن تأتى حالا بالحالة التى تكونين عليها ، فجئت لتنفيذ أمره .. »

فوثبت فلورندا من فراشها وقد تحققت وقوع الخطر الذى كانت تخشاه ، ولكنها اعتمدت على الله وثبتت جأشها ودنت من الأيقونة فقبلتها وصلت لله أن يشجعها وينقذها من مخالب الشرير . وطلبت الى خالتها أن تصلى لها أيضا ، ثم التفت

بالرداء كما كانت ، ومشت وهى تتوسل الى الله من أعماق قلبها أن ينجيها من هذه التجربة .. ولا يرتاح المرء فى مثل هذه الحالة الا بالتوسل الى القوى العلوية غير المنظورة ..

مشت فلورندا كالذاهب الى القتل ، فلا غرو اذا اصطكت ركبتاها وارتعدت مفاصلها ، وودت أن تكون تلك الغرفة على مسافة أميال منها . على انها تشجعت باتكالها على الله ، حتى اذا دنت من الغرفة سمعت وقع خطوات ، فاذا بالملك قد خرج لاستقبالها عند الباب وهو يبتسم لها ويرحب بها ، وقد خيل له ان مجرد ابتسامة تجعلها طوع ارادته ، وانه حينما يظهر ارتياحه لمجالستها تندفع الى مرضاته ..

— ١١ —

العفة

أما فلورندا فدخلت الغرفة بخطوات ثابتة ، والانفة والعفة يتسابقان الى قلبها ، والغضب والخوف يتجليان فى وجهها . وهو يسير بين يديها حتى جلس على المقعد ودعاها للجلوس الى جانبه . فقالت فلورندا وامارات الحشمة والرزانة بادية على محياها : « لا يليق بمثلى أن تجلس فى حضرة الملك .. »

فقال الملك وهو يضحك : « اجلسى يا فلورندا فانى لم أدعك الىّ لأحملك مشاق التجمل ، ولكننى أردت أن ألقاك وانت

فى راحة وسعادة .. اجلسى .. »

قالت فلورندا : « العفو يامولاى .. »

فقطع الملك كلامها وأمسك بيدها وأجلسها ، فأحست — لما لمست يدها يده — كأن شيطانا يلمسها ، فأجفلت ، وجذبت يدها من يده ، وجلست وهى تحاذر أن يلمس ثوبها ثوبه ، فأحس رودريك باجتذاب يدها ، وقد شعر — حين لمس تلك اليد — بعكس ما شعرت هى به . وشق عليه ما بدا من نفورها ، ولكنه حمل ذلك منها محمل الحياء فابتسم وقال : « لا ألومك يا فلورندا لما يبدو فى وجهك من البغتة لأنك تتهيبين من موقفك بين يدى ملك الأسبان ، وهى أول مرة وقفت فيها بين يديه ، ولكن اعلمى — يا ملكة الجمال — انى لم آت اليك بنفسى الا لأدعوك الى السعادة . ولا أريد أن تخاطبينى كما تخاطبين الملك ، بل خاطبينى كما تخاطبين رجلا يحبك ويهواك ويريد أن يجعلك أسعد فتاة فى هذا العالم .. »

فلما سمعت فلورندا قوله تحققت من قصده ، ولكنها أحبت التخلص منه بالحسنى ، فوقفت وهى تقول : « حاشا لمثلى أن تكون غير خادمة حقيرة بين يدى ملك الأسبان الذى يتمثل الناس بشدة بطشه ... »

فقطع الملك كلامها وقال : « وماذا يمنع أن تكونى حبيبتى أيضا .. بل تكونين مولاتى ومالكة زمامى وزمام مملكتى .. »
قال ذلك وقد ثارت عواطفه واحمرت عيناه ورجفت شفتاه ،

وهو يحاول التلطف فى الكلام والاشارات . ولكن الخشونة كانت ما تزال تغلب على لفظه وخلقه ..

فقالت فلورندا : « كلا — يامولاى — لايمكن أن أكون كذلك ، وأرى جلالة الملك قد فرط فيما وفق اليه فى دنياه ، فان هذا الموقف لا يليق بمثلى .. »

فظنها لا تصدق شدة حبه لها ، وانها تخشى أن يكون قد أراد خداعها ، فوقف هو أيضا وقال : « يظهر لى أنك لم تصدقى قولى .. ويحق لك أن تستغربى ما يبدو من تفريطى .. ولكننى أعترف لك يا فلورندا انك قد ملكت قلبى وروحى وتسلطت على كل مشاعرى ، فتعطفى علىَّ وتلطفى بالقبول .. »

قال ذلك وهو ينظر اليها وقد انحنى نحوها انحناء المتذلل المستعطف ، وبسط يديه وهما ترتعدان من شدة الهياج ..

أما هى فلم تعبأ بهذه الظواهر الخادعة ، فظلت على هدوئها وثبات جأشها ، وقالت بصوت هادىء : « أقبل ماذا ؟ .. »

فتوسم الملك فى سؤالها الرغبة فى القبول ، فقال : « تقبلين أن تكونى شريكة حياتى ، فتعيشين معى عيشة السعادة والرفاء ، وتكونين أنت الآمرة الناهية »

فنظرت اليه فلورندا نظرة التوبيخ والاحتقار ، وقالت : « وجلالة الملكة ؟ »

وكانت تلك العبارة أشد وقعا من الصاعقة على رأسه ، ولم يكن يتوقع تلك الانفة من فلورندا لأنه لم يكن يعرف قيمة العفة

ولايدرك قيمة الحرية الشخصية.. ولذلك كان يظن انه اذا ابتسم لفلورندا ابتسامة واحدة ترامت عند قدميه وسائمت نفسها له . وقد فاته أن العفة أثمن مما فى خزائن الملوك وأسمى مما على عروشهم وأرقى مما تبلغ اليه مدنيتهم .. بل هى سيف قاطع تقف به الفتاة أمام الملوك وتحسب أنها أقوى منهم سلطانا وأعز شأنا ، ولذلك كان موقف فلورندا بين يدى رودريك موقف الملك أمام الملك . ولم يكن تواضعها فى أول الأمر الا رغبة فى التخلص بالحسنى ، فلما رأت استرساله فى القول أجابته بكلمة اضطربت لها كل جوارحه .. كلمة ذكرته بارتباطه بزوجته بالرباط المقدس الذى لا يجيز له مخاطبة سواها بمثل ذلك

أما هو ، فقد ساءه أن تخجله بتلك العبارة لما تتضمنه من التوبيخ والتعنيف ، ولكنه تجاهل ما تريد وظل على أسلوبه فى الملاطفة ، فقال : « يا للعجب من جهلك وغرورك .. أدعوك الى السعادة والشرف وأسهّل لك الطريق اليهما وأنت تقيمين العقبات أمامك .. ألا تعلمين يافلورندا أن الأمر الذى أدعوك اليه ليس فى هذه المملكة ولا فى غيرها فتاة الا وتنذر النذور للحصول عليه ؟ تعقّلى وارجعى الى رشدك واعلمى أنك ترفضين سعادة لا ينالها الا نفر قليل من خيرة الأنام ، وشرفا تتطاول اليه أعناق ربات الحجال . وهل تجهلين أنك اذا أطعتنى تنالين عزا لم يحلم به أحد من أهلك ، وأنك اذا ظللت على غيك أسأت الى أبيك ، لأننى اذا رأيت منك الرضاء بما عرضته عليك جعلت والدك من أقرب

المقربين فى البلاط ... »

فلمّا سمعت قوله لم تصبر عن الغضب وأحسّت بسلطان لها يفوق سلطانه ، فخاطبته بما لا يخاطب به الملوك ، قالت وهى تشير بأصبعها الى نفسها : « تزعم يا رودريك انك تدعونى الى السعادة والشرف ، وأنت انما تدعونى الى الشقاء والدناءة . وأنت حين تخاطبنى بهذا القول ــ ولو تلميحا ــ قد أهنتنى واستصغرتنى . بل أنت ان توهمت قبولى لذلك تجعلنى أدنى خلق الله .. فأقلع عن ذلك ودعنى وشأنى ، فانك صاحب عز وسلطان ولك الرقاب والأموال . وأما أنا فليس لى الا هذه الجوهرة ، أفتسلبنى اياها ؟ وهل تظن أنك اذا أردت ذلك تستطيعه ؟ » وارتعشت يداها وارتجفت شفتاها وابيضتا من شدة التأثر ، فاستطردت قائلة : « كلا ، لا يستطيع أحد أن يسلبنى هذه الجوهرة ، فانها أثمن من خزائن العالم بأسره .. وهى سلاحى وترسى ودرعى . وهى سبيلى الى السعادة الأبدية »

فعظم على الملك ما سمعه من توبيخها حتى رقصت لحيته على صدره ، ولكن هيبة الحق وسلطان العدل غلبا على غضبه ، فلم يجسر على اهانتها ، غير انه كان ما يزال يرجو قبولها ، فأراد أن يطيل معها الكلام بأن يخلط الجد بالهزل ، فقال : « وهل ذلك الغلام أحق بك منى ؟ »

فلم يزدها قوله الا عزيمة وثباتا ، وقد أدركت انه يريد الحط من قدر ألفونس ، فقالت : « مهما يكن من أمره فانه نصيبى فى

هذا العالم ، وهو خطيبى بشرع الله »

فازداد دهشة لجسارتها ، وحدثته نفسه بأن يجافيها ويأخذها بالقسوة ، ولكنه أجّل ذلك الى أن تفرغ جعبته من حيلة يحتال بها لاقناعها ، فقال لها : « يظهر يا فلورندا أن صغر سنك لايزال غالبا على عقلك . ولولا ذلك لم تفضّلى غلاما لا شأن له ولا مقام على ملك ملوك الأسبان . ولكننى أعذرك على طيشك ، وأبيح لك التفكير فى أمرك حتى ترجعى الى صوابك ولا ترفضى النعمة التى أبذلها لك . فلا تضيّعى هذه الفرصة بما تتمسكين به من الأوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة .. وهذا آخر ما أبذله لك من النصيحة فتدبّرى أمرك »

فلما رأت أن التوبيخ لم يُجند معه نفعا ، عمدت الى اقناعه بنفس برهانة .. فسكّنت من اضطرابها ، وقالت بنغمة التعقل والرزانة : « يقول جلالة الملك اني أتمسك بالأوهام الباطلة والاعتبارات الفارغة ، فما قوله اذا علم أنجلالة الملكة تراود شابا عن نفسه ، وتطلب اليه أن يعيش معها ويكون شريك حياتها ... »

فلما أيقن رودريك قوة حجتها ، مع ما فى ذلك البرهان من التحقير له ، هاج غضبه ولاح له أن يستخدم العنف فى اقناعها ، وهمّ أن يأمر بالقبض عليها وتعذيبها لعلها ترعوى عن تمسكها بألفونس ، لأنه ظنها لم ترفض طلبه الا لتعلقها بألفونس، وتوهمها فيه القوة أو الثروة . وظل يعتقد أنها اذا تحققت من فقر ألفونس وضعفه تتركه ، ولا ترى أفضل لها من ملك الأسبان

ولقد توهّم رودريك ذلك لأنه لا يفهم معنى الحب الطاهر ، ولا يدرك منزلة العفة الحقيقية . وما درى أن القلبين اذا تعاهدا على الحب كانت السعادة كلها فى ذلك العهد ، ولا دخل للغنى أو المنصب فى أسباب تلك السعادة . وتوهّم رودريك أيضا أنه اذا حقّر الفونس فى عينى فلورندا زهّدها فيه ، فقال لها : « ألا تعلمين يا فلورندا أن ألفونس من بعض أتباعى ، وان زمامه فى يدى أفعل به ما شئت ..؟ يظهر انك لا تعلمين ذلك .. ولعلك لا تزالين على ما كنت تعلمينه قبل ضياع المُلك من يده ... »

- ١٢ -

الصلاة الحارة

والواقع أن ذلك التعريض بمكانة ألفونس زادها تمسكا به وتشبثا بحبته. والمحبة الطاهرة تزداد شدة بما تلاقيه من المقاومة ، كما تزداد الحرارة بالاحتكاك . ولكن ساءها أن يكون لهذا الظالم سبيل الى الكلام ، وخافت ان أجابته جوابا عنيفا أن يغضب على ألفونس ويتعمد أذاه . فأحبّت أن تقنعه باللطف ، لعلها تخفّف من غضبه ريثما يفتح الله عليها بالفرج ، فقالت : « اذا صح أن الانسان ينبغى ألا يحب غير الذى يكسبه مالا أو رتبة ، فما الذى حبّب جلالة الملك فى هذه الفتاة الحقيرة حتى أراد أن يجعلها سيّدة أهل قصرها كافة ؟ !.. واذا كانت القاعدة أن نهمل

الفقراء وأن لا نحبهم ، فما أجدرك يامولاى الملك بأن تنبذنى وتطردنى من حضرتك لأنى لم أعد شيئا بجانب سلطانك ورفعة مقامك .. فأرجو من مولاى أن يفعل ذلك فانه أولى بمنصبه وأحفظ لكرامته .. » قالت ذلك وقد توردت وجنتاها من عظم تأثرها واضطراب عواطفها ، واصطكت ركبتاها حتى لم تعد تستطيع الوقوف . ولكنها تجلدت وتشاغلت بملاعبة أطراف جدائلها بين أناملها ، ولبثت تنتظر جواب رودريك

أما هو ، فلما تبين رباطة جأشها وقوة حجتها رأى أن يأتيها بالحيلة ويترك العنف الى أن تنفذ حيلته . وذلك انه حين أنس تمسكها بألفونس وتعلقها به ، وتبادر الى ذهنه أن ابعاده عنها يغيرها ويحملها على أن ترضخ لرغبته .. فتظاهر بأمر طرأ على خاطره بغتة ، فقال : « لا أزال أعتقد أن الوهم يسيطر عليك ، وقد تذكرت أمرا يستلزم عودتى الى القصر الآن ، وذاك من حسن حظك .. اذ يتيح لك فرصة تعملين الفكر فيها لعلك ترجعين الى رشدك . فاذا لم ترجعى بعد هذه الفرصة ، فلا تلومى الا نفسك » قال ذلك بلهجة شديدة ومشى حتى خرج من الغرفة ، وترك فلورندا وحدها

أما هى فقد سرها هذا التأجيل لعلها تجد سبيلا للنجاة . فلما خرج رودريك من الغرفة مشت نحو غرفتها ، وقد فاضت أشجانها وعاد اليها الخوف وزاد اضطرابها . فلقيتها العجوز عند باب الغرفة ، فابتدرتها بالسؤال عما جرى فلم تجبها ، ولكنها ظلت فى



« فلما خرج رودريك من الغرفة .. مشت فلورندا نحو غرفتها ، وقد فاضت اشجانها وعاد اليها الخوف وزاد اضطرابها » .

سيرها حتى أقبلت على ايقونة السـيد المسيح ، فجثت أمامها وقرعت صدرها وقد خنقتها العبرات ، وتحول جَلَدها ورباطة جأشها ـ حين كانت بين يدى رودريك ـ الى الحزن والكآبة ، ولم تر لها فرجا غير البكاء .. فجعلت تتضرع الى صاحب تلك الأيقونة بدموع حارة ، وبعبارات صادرة عن قلب يتدفق محبة وتقوى ..

فلما رأتها العجوز جاثية جثت الى جانبها وصلّت معها ، وكلما قالت فلورندا عبارة أمّنت العجوز عليها . وكان فى جملة صلاتها قولها : « أبعد عنّى أيها المخلص هذه التجربة ، وغيّر قلب هذا الملك ليرجع الى طاعتك ويشعر بفظاعة الأمر الذى ينوى ارتكابه.. ارشدنى يارب الى سبيل أنجو به من هذه الشباك .. واحفظ عبدك ألفونس من كل شر واحرسه وكن معه .. واجمعنا أيها المخلص لنعيش معا على تقوى الله ومرضاته .. اسبغ الحنان على هذه المسكينة الغريبة .. هذه الفتاة التعسة التى ليس لها ملجأ سواك .. أنت ملجأ البائسين والضعفاء .. لا تسمح يارب بوقوع هذا الشر فى تذكار ميلادك المجيد .. »

وكانت كلما قالت عبارة تقرع صدرها ، وخالتهـا تقول : « آمين » وكلاهما تذرفان الدموع السخينة

فلما فرغتا من الصلاة نهضتا ، وأحست فلورندا بانبسـاط نفسها وارتياح ضميرها ، وشعرت كأن الأخطار قد زالت عنها حين ألقت متاعبها على الله . ومثل هذه الراحة لا يشعر بها غير أهل

الايمان الوطيد ، فان أحدهم اذا أحدقت به مصائب العالم تحمّلها بالصّبر وأزال آثارها بالصلاة . والبكاء شيء يزيح الانقباض .. فكثيرا ما يشعر الانسان بضيق ، فاذا بكى زال ذلك الضيق . ويغلب هذا الشعور فى النساء أكثر مما فى الرجال

فلما زال اضطراب فلوروندا ، جلست تفكر فى السبيل الى نجاتها ، واستغرقت فى التفكير ، والعجوز جالسة القرفصاء تنظر ما يبدو منها ..

- ١٣ -

يعقوب

فلنترك فلوروندا فى تأملاتها ولنرجع الى ألفونس ، لنرى ما كان من أمره بعد ذهابه الى منزله ، ولم يكن منزله بعيدا عن قصر الملك . فلما وصل الى باب المنزل ترجّل وسلّم الجواد الى أحد الخدم وهمّ بالدخول ، فأحسّ كأن شيئا يستوقفه ، فوقف لحظة ثم دخل وتوجه الى غرفته ، فرأى خادمه الخاص يقف ببابها ينتظر قدومه ليبلّغ أوامره الى من يريد

وكان ذلك الخادم كهلا ، قصير القامة ، جاحظ العينين ، أعقف الأنف ، بارز الذقن ، لحيته قصيرة تنقسم الى شعبتين مخروطتى الشكل ، بارزتين نحو الامام ، طرفاهما رأسا المخروط وقد دب الشيب فى ذينك الرأسين ، ولايزال أصل اللحية عند الذقن أسود

أو هو كستنائي اللون . وكان اسمه يعقوب ولم يكن يُعنى بتسريح شعره ، فكان الاهمال ظاهرا فى لحيته حتى لقد تحسبها جثزازة نعجة تلبّد صوفها وتشبّك ثم تشبشت أطرافها . على أن وجه الرجل كان بالاختصار مضحكا لبروز الأنف وجحوظ العينين وبروز اللحية على تلك الصورة ، وكان مع ذلك كثير الحركة خفيف الروح لا ينفك وجهه ضاحكا . وكان قد ربّى فى بيت غيطشة قبل أن يكون ملكا.. فلما تولى الملك قرّبه اليه وكان يثق فيه ويعهد اليه بأموره ويُسِرّ اليه بكثير من آرائه . وأهل القصر يحسدون يعقوب على ذلك التقرب وخاصة لأنه ليس قوطيا . ولم يكونوا يعرفون أصله ولا كيفية وصوله الى ذلك المنصب وقد تعجبوا من أمره ..

أما غيطشة فقد كان يحبه ويقربه ، ولما دنا أجله أوصى أولاده به وأوصاه بهم وخاصة ألفونس ، فقد أوصاه بالاعتماد على يعقوب فى كل ما يهمه . وكان ألفونس قد تعود احترامه والثقة به من عهد والده ، ويعقوب يتفانى فى خدمته . وقد لا يظهر لمن يراه لأول وهلة انه ذو رأى أو همّة لما يبدو فى وجهه من ملامح المجون مع خفّة الروح ، ولكنه كان فى مقام الجد من أكثر الناس حكمة وهمّة

فلما وصل ألفونس الى غرفته استقبله يعقوب ضاحكا ، وفتح له باب الغرفة .. فدخل ألفونس ولم يكلمه على خلاف عادته من ممازحته ومداعبته ، فأدرك يعقوب انه فى شغل هام .. فوقف

لايخاطبه فى شيء لئلا يقطع عليه مجرى أفكاره أو يثقل عليه بكلامه

أما ألفونس ، فكان أول شيء فعله عند دخوله الغرفة أن خلع قبعته ونزع سيفه وعلّقه بالحائط ، وجلس على كرسى من الخشب بجانب نافذة تطل على مغارس طليطلة عن بعد .. وأرسل بصره فى ذلك الفضاء والنهار لايزال صحوا والجو صافيا.. وقد لبث برهة لا يتكلم ، ثم حوّل بصره فجأة وصاح : « يعقوب ! » فاذا هو بين يديه . فقال له : « هل جاء عمّى الى هنا فى أثناء غيابى ..؟ »

قال : « كلا يامولاى انه لم يأت .. ألم تجده فى الكنيسة ؟.. »

فتذكر ألفونس الصلاة ، فتبادر الى ذهنه أن عمّه كان فى جملة المصلّين لأنه مطران « متروبوليت » . ثم عاد فتذكر أنه ــ لما بين عائلته وبين عائلة الملك من التباعد ــ ذهب ليصلّى فى كنيسة أخرى . فقال ليعقوب : « أتظنه سـار الى الكنيسة ؟ ولماذا لم تذهب أنت أيضا للصلاة .. ؟ »

قال يعقوب : «كنت مشغولا بأمور البيت ، وقد صلّيت هنا .. ألا يكفى ذلك ؟ »

قال ألفونس وكأنه قد تذكّر أمرا كان قد ذهب عن باله : « سامحنى ، فانى نسيت وصيّة والدى أن لا أسألك عن الصلاة .. ما رأيك فى عمّى المطران ؟ انى فى حاجة اليه .. ! »

فقال يعقوب : « قل وأنا أستقدمه على عجل ، ولو كان فى روميّة » قال ذلك وتبسّم ، فأدرك ألفونس أنه يلمح الى ما بينهم وبين روميّة من التنافر . فاستحسن منه هذا المجون وقال له :

« لا أظنه بعيدا بهذا القدر .. التى به »

فخرج يعقوب الى غرفة الخدم ، فبعث خادما يفتش عن المطران فى الكنيسة ، وآخر يفتش عنه فى بيته ، وآخر فى مكان آخر من مظانه ، ورجع وهو فى هم من أمر الفونس .. ولكنه لم يجرؤ على استطلاع أمره . فلما وصل الى الغرفة أخبر ألفونس بما فعله ، وظل واقفا وهو يداعب أطراف لحيته بين أصابعه وينتظر أمره ، فلم ينتبه ألفونس له لاستغراقه فى هواجسه وقد تزاحمت الأفكار فى مخيلته ، وأكثرها وضوحا أمر الملك ، وكيف استبد رودريك به واستخف بشأنه . وكيف أنه بعد أن كان مطمح أنظار وجهاء المملكة أصبح شبيها بأحقرهم.. وفكر فى وسيلة لاستلاب المملك منه ، فاذا هو قاصر عن كل شيء . لا مال عنده ولا رجال ، ولا شيء يقاوم به .. ثم تذكر فلورندا وانه عاهدها على استرداد الملك من رودريك ، فكيف يرجع عن عهده عاجزا مقهورا ؟ .. فتجسم لديه المصاب وثقل عليه الفشل ، وندم على ما فرط منه بين يدى حبيبته من القسم . فضاق صدره ، وصغرت نفسه ، وغلب عليه اليأس .. فتناثرت الدموع من عينيه بالرغم منه ، والدمع يفرج الكرب ان عزت على المرء وسائل التخلص من الضيق

وكان يعقوب لايزال واقفا ، فسمع تنهد الفونس ثم لحظ من بعض الحركات أنه يبكى . فأدرك أنه يفعل ذلك وهو يحسب نفسه فى خلوة ، فانسل — ولم يشعر به ألفونس — حتى جلس على كرسيه بجانب الباب ، وقد انشغل خاطره بألفونس ، فعزم

على استطلاع أمره من المطران بعد مجيئه ، وقد كانت له عليه دالّة كبرى ..

– ١٤ –

المطران أوباس

ولم تمض برهة حتى عاد أحد الرسل وأنبأ يعقوب بقدوم المطران ، فتذرع بذلك لمخاطبة ألفونس .. فدخل عليه وأخبره بمقدم عمّه . وكان ألفونس قد فرغ من بكائه وذهب بعض انقباضه .. فلما علم بمقدم عمّه ، لم يصبر عن الابتسام لما كان له من الثقة فيه لأنه اشتهر بسداد الرأى والتعقل مع محبته لألفونس

وكان اسمه أوباس « عباس » وهو طبعا مثل ألفونس يعتبر رودريك مختلسا ، وكان قد بذل جهده فى عدم انتخابه فلم يفلح ، لأن حزب الأساقفة الرومانيين غلبـه على رأيه : ولأنه المطران الوحيد من أمّة القوط ، أما سائر أساقفة طليطلة فهم من الرومان أو الذين ينتمون لروميّة . ولذلك غلب رأيهم .. وكان أوباس ـ منذ تولى رودريك ـ قد اعتزل الأعمال الا عند الضرورة . وكان فى ذلك اليوم قد صلّى صلاة العيد فى منزله ، ثم خرج بعد الصلاة للجلوس فى حديقة المنزل لأنه لم يكن يطيق أن يرى رودريك فى ذلك الموكب بدلا من ابن أخيه . فلما جاءه الرسول يدعوه الى ألفونس ، لبس رداءه وقلنسوته وجاء مسرعا

وكان أوباس حيوى المزاج ، طويل القامة ، طويل الأطراف ، عريض المنكبين ، عريض الجبهة ، بارز الوجنتين والفكين ، واسع الصدر ، أسمر اللون ، أسود الشعر غزيره ، وخاصة شعر لحيته فقد كان مرسلا على صدره الى أسفل منطقته ، وأصحاب هـذا المزاج فى الغالب فيهم قوة الارادة مع علو الهمة وقوة البـدن وعظم الهيبة . وهم عظام فى كل شيء : فى الحرب ، أو فى التجارة ، أو فى السياسة ، أو فى أى شيء يقومون به (١) ، فهم يمتازون غالبا عن أصحاب الأمزجة الأخرى ويفوقونهم فى كل شيء . وكان أوباس مع ذلك بطيء الخطوات ، كثير التفكير ، قليل الكلام ، جهورى الصوت ، وكان قوله سديدا ورأيه صائبا ..

ولم تمض برهة حتى سمع ألفونس خطوات عمه ، وكان يعرفها ببطئها وثباتها وشدة وقعها ، فوقف لاستقباله .. فلما دنا من باب الغرفة تقدم اليه وقبّل يده فباركه ، ثم تقدم يعقوب فقبّل يده فباركه وهو يبتسم له ، وكان أوباس قلّما يبتسم لأحد

دخل أوباس الغرفة مع ألفونس ، فأسرع ألفونس للحال وأغلق الباب التماسا للخلوة .. فنزع المطران قلنسوته ، فاسترسل شعر رأسه الى كتفه ، وكان غزيرا جدا ولم يخطه الشيب مع أنه فى نحو الخمسين من عمره . ونظر أوباس فى وجه ألفونس ، فرآه يبتسم ولكنه تبين الدمع فى عينيه وأثر الانقباض فى أساريره ، فأثر منظره فى نفسه ، فقال له : « مالى أراك كاسف البال يابنى؟»

---

(١) علم الفراسة الحديث

فلم يمسك ألفونس نفسه عن ارسال دمعتين أخريين وهو لايزال مبتسما ، ولكنه تجلد وقد ارتاح الى رؤية عمه ، فقال : « لا أظنني أشكو اليك أمرا لا تعرفه .. بل أظنك تشكو مثل شكواى أيضا ... »

فقال أوباس : « فهمت مرادك يا ولدى .. ولكن الأمر الذى تشكو منه قد أصبح قديما ، فلا بد من أمر حدث لك فجدّد أحزانك » ..

فقال الفونس : « صدقت ياعمّاه .. وأما ما جدّد أحزاني فهو أني وقفت بين يدى ذلك الوحش الكاسر فى هذا الصباح ، وقفة خادم بين يدى سيده . وقفت وقد استصغرت نفسى حتى حسبتنى ذبت حياء ، ولو طال بى الوقوف فانى لا أدرى ماذا كان يصيبنى . ولما خرجت من القصر رأيت رجال الحاشية لا يعبأون بمرورى بعد أن كانوا اذا مررت يتسابقون الى تقبيل يدى .. »

فقال أوباس : « وما الذى دعا الى وقوفك هذا الموقف ، وعهدى برودريك قلّما يدعوك اليه ؟ »

فقال ألفونس : « لأنى تأخرت عن موكبه فى هذا الصباح ، فلم أدركه الا وهو راجع من الكنيسة »

قال أوباس : « ما كان أغناك عن هذا التأخير ، اذن لم تكن لتسمع تعنيفا ولا تتحمل لوما حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا . وما الذى أخّرك عن الاحتفال ؟ »

فلم يخجل الفونس من أن يقصّ على عمّه سبب تأخيره لأن عمّه مطّلع على ما بينه وبين فلورندا من المحبة المتبادلة ، وهو الذى وضع عربون الخطبة بينهما ، فقال له : « سبب تأخيرى أنى زرت فلورندا فى هذا الصباح بعد أن طال غيابى عنها .. وأنت تعلم انقطاعى عن ذلك القصر وضواحيه منذ ابتليت بمصيبة أبى . وكنت أحسب فلورندا قد تغيّرت ، فزرتها لأتحقق من أمرها .. فطال الحديث حتى نسيت الموكب فلم أتنبه الا وهم عائدون من الكنيسة ، فأسرعت لأكون معهم ، ولم أكن أظن أن الملك يراقب حركاتى الى هذا الحد . فلما دخلت عليه استبقانى الى ما بعد خروج المهنئين وعنّفني تعنيفا لم يكن شـديدا ، ولكنه وقع على رأسى وقوع الصاعقة .. »

قال ذلك وكاد يشرق بدموعه .. فلم يبـال أوباس بدموع ألفونس لاسـتصغاره مثل هـذه الظواهر — ظواهر الضعف البشرى — فظل ساكتا ينتظر تتمة الحديث . أما ألفونس فلما رأى عمه لا يزال مصغيا ، استطرد فى الكلام فقال : « ومما زادنى ألما أن ذلك القس الهرم كان يحاول الايقاع بى فى الشرك ، فقد نبّه رودريك الى علاقتى بفلورندا .. وكنت أقرأ سوء القصد من خلال عينيه الغائرتين ومن وراء ألفاظه المختلطة .. »

فقال أوباس : « أراك يا ألفونس مضطرب العواطف كثيرا ، ولا فائدة من ذلك .. ولا عبرة بلفظ تسمعه أو اشارة تراها فانها

حركات طائرة فى الهواء ، وما هى من الحقيقة فى شىء .. فخفف عنك وارجع الى صوابك وابحث فى الأمر بحثا معقولا »

— ١٥ —

رباطة الجأش

فعجب ألفونس لقول عمه وشعر بصغر نفسه وضعفه ، ولكنه لم يستطع السيطرة على عواطفه ، فقال : «كيف لا نعبأ بالأقوال.. وكيف أستطيع الصبّر على الاهانة والاحتقار .. أترضى يا عمّاه أن نكون أرقّاء لذلك المختلس ؟.. » قال ذلك والحدّة بادية فى صوته ..

فأجابه أوباس بصوت هادىء : « لا .. ! »

فقال ألفونس : « فكيف تقبل هذه المعاملة ، وتقول انها حركات طائرة فى الفضاء ؟ اننى لا أستطيع الصبّر على ذلك .. وان الموت خير لى من الحياة مع هذه الاهانة »

فقال أوباس : « لا أقول ان الاهانة حركات فى الهواء ، ولكننى أرى الكلام الصادر عن الحدة والغضب بلا روية أشبه بحركات طائرة فى الهواء لا فائدة منها .. »

فخجل ألفونس من ذلك التوبيخ اللطيف ، ولكنه ظل مندفعا فى تيار العواطف ، فقال : « أتلومنى يا عمّاه على غضبى وقد قتلوا أبى واختلسوا ملكى ، ثم ضيقوا علىّ فى ذهابى ومجيئى

كأنى أحد عبيدهم .. ماذا تريد أن أفعل بعد ذلك .. ؟ »

قال أوباس وصوته لم يرتفع : « أريد أن تنظر فى الأمر بعين العقل والروية لأن الحدة تذهب الرشد وتؤدى الى الخطأ . وربما يخيّل لك اذا رأيت هدوئى وصبرى انى أقل منك استنكارا لأحوال هؤلاء .. ولكننى أفكر كثيرا وأقول قليلا . وسترى متى سكن جأشك ودار الحديث بيننا ، انى قضيت العامين الماضيين وأنا أسعى فى الأمر الذى لم يخطر ببالك الا اليوم .. وأنت انما ذكرته على أثر انفعالك وغضبك بعد أن قابلت خطيبتك وعنّفتك على ضعفك .. وأما أنا فانى لا أندفع بالغضب ولا أغضب للكلام الفارغ ، ولكننى أنظر بعين الحقيقة . وقد كنت أتوقع منك هذه الحميّة فى أول يوم خرج فيه هذا المُلك من يدك ، بغض النظر عما قد يلحق بك من الاهانة أو ما قد تسمعه من التعريض أو التوبيخ .. »

فلما سمع ألفونس كلام عمّه تهيّب واتعظ لما آنسه فيه من الرزانة والجد وقوة العزيمة ، وشعر بصغر نفسه لما تحمّله عمّه من الضيق فى السنتين الماضيتين وهو لم يشكُ ضيقا ، فأراد أن يصلح ما بدر منه من دلائل الضعف ، فتحمّس وقال : « لقد أصبت يا عمّاه .. انى تهاونت فى الأمر ولم أكن أحسبك على هذا العزم، أما الآن فأشر علىّ.. أشر علىّ بالذى أفعله لاسترداد ما اختلسه منا هذا الرجل »

وكان أوباس منذ شرع فى هذا الحديث ، قد أخذت علامات

الانقباض تبدو على محياه ، فازداد هيبة وجلالا واستغرق فى الأفكار ، وقد أرسل بصره من النافذة الى الفضاء . وكان من ينظر الى وجهه يتبين استغراقه فى الهواجس من ثبات بصره على لا شيء ، كأنه ينظر الى صور تمثلت فى مخيلته وفيها الخوف والغضب والفرح والنشاط

وكانت ظلال تلك العواطف تتجلى فى عينيه البراقتين ، ولو أحسن الفونس الفراسة لقرأ أفكار عمه فى عينيه وأسرته ، وكفى نفسه مؤونة الاستشارة والمداولة . ولكنه لم يكن على شيء من ذلك ، فلما فرغ من كلامه صبر لسماع ما يقوله عمه . فاذا هو ما يزال غارقا فى الهواجس وهو يعبث بأطراف جدائل شعره ، كأنه لم يسمع شيئا من ابن أخيه .. فتهيب ألفونس من منظره ، ولم يجسر على أن يشوش عليه أفكاره ، فظل صامتا

مضت لحظات قليلة وكلاهما صامت ، ثم بدأ أوباس الحديث فقال : « هل أدركت يا ألفونس المشروع العظيم الذى تعرض نفسك له ، وفهمت الأمر الذى تطمح اليه أنظارك ؟.. »

قال ألفونس : « كيف لا ؟.. انى ألتمس أمرا هو حق لى لا ينازعنى فيه أحد »

فقال أوباس : « فهمت ذلك .. ولكن هل دبرت الطريقة التى تستطيع أن تستعيد بها زمام الحكم ... »

قال ألفوس : « أعرض عليك رأيى ، وأنت صاحب الرأى »

قال أوباس : « قل .. »

- ١٦ -

فلسفة التاريخ

وعندئذ قال ألفونس : « لايخفى على عمّى العزيز أن القوة التى ساعدت رودريك على تسنم ذروة المُلك انما هم الرومان وخاصة الأساقفة . وأما رجال القوط أهلنا وأهل عشيرتنا فانهم لا يريدونه ، وهؤلاء جماعة كبيرة .. اذا اتحدوا هم ورجالهم وأتباعهم تألّف منهم جند كبير يتغلب على جند رودريك ، فلا يصعب علينا اذ ذاك استرداد الحكم من يده ، اما بالتنازل ، واما بالقتال » ..

فابتسم أوباس ابتسامة متكلفة دلّت على استخفافه برأى ذلك الشاب الذى بدا كأنه قليل التجربة ، ثم قال : « صدقت يا ولدى ان القوط على عهدنا ، ولكن هل تظن اذا دعوتهم الى الحرب ينهضون ؟ لا أظن أن شكواهم من هذا الملك تخرج عن حد الكلام . ولا لوم عليهم ، فهم يخافون على أرواحهم وأموالهم .. على أن أكثرهم لايرون بأسا من بقاء رودريك وغيره من صنائع الرومان لاشتراكهم معهم فى المذهب .. فانهم جميعا تابعون لكنيسة رومية ، وقد تغلّب الأساقفة الرومان على آرائهم وعلى قلوبهم كما تغلبوا على حكومتهم .. حتى نسوا جنسيتهم »

وكان أوباس يتكلم بصوت هادىء وتأن ، ولم يبد الهياج فى

عينيه الا عندما وصل الى هذا القول ،على أن الرزانة ظلت غالبة على حركاته . ولكنه سكت هنيهة وألفونس ينظر اليه ويتوقع بقية الحديث ، فقال أوباس وهو يجدل شعر لحيته بين أنامله :
« سامح الله ريكارد .. فانه هو الذى جرّ علينا هذا البلاء »

فلم يفهم ألفونس معنى هذا اللوم لأن ريكارد ملك من ملوك القوط حكم اسبانيا زمنا طويلا فى أواخر القرن السادس للميلاد ، وكان من رجال الحرب والسياسة ، فقال ألفونس : « ما الذى ارتكبه ريكارد يا عمّاه حتى استحق هذا اللوم ، والذى أعلمه أنه هو الذى حفظ لنا مملكة الأسبان ودفع الافرنج « الفرنك » عنها » (١)

قال أوباس : « صدقت يا ولدى انه نجّانا من الفرنك ، ولكنه ألقانا فيما هو أعظم خطرا منهم .. »

قال ألفونس : « وما هو ذاك .. ؟ »

قال أوباس : « ألا تعرفه .. ألا تعرف ان ريكارد هو الذى أضاع جنسيتنا .. وحل جامعتنا ؟ »

فلم يفهم ألفونس ما يهدف اليه ، فقال : « كلا يامولاى .. انى لا أعرف ذلك ، ما هو ؟ »

قال أوباس : « ألا تعلم يا ألفونس أن ريكارد هو الذى جعل مذهب كنيسة رومية (الكاثوليكية) هو مذهب حكومة اسبانيا ؟»

قال ألفونس : « نعم .. ألا تظنه فعل حسنا ؟ »

---

(١) رومى — الجزء الثانى

فقال أوباس : « نحن الآن على مذهب هذه الكنيسة أيضا ، وقد ربينا فى حبها ، ولا بأس فى ذلك ، ولكننى أنظر فى الأمر من وجهه السياسى.. انظر فيه من حيث جامعتنا القومية.. جاء أسلافنا القوط منذ بضعة قرون ، وكانت هذه البلاد فى حوزة الرومان فأخذوا المثلث من أيديهم بالقوة وتسلطوا عليها . ولا يخفى عليك أن مذهب أسلافنا الذى جاءوا به الى البلاد ليس الكاثوليكية مذهب كنيسة رومية ، بل هو مذهب الأريوسى نسبة الى آريوس الشهير . وكان ذلك مذهب معظم قبائل القوط قبل خروجهم على المملكة الرومانية (١) ، ففتحنا هذه البلاد وقضينا فيها نحو مائتى سنة ونحن على مذهب آريوس .. وأهل البلاد على مذهب كنيسة رومية ..

« ولا أخفى عنك أن ملوكنا القدماء لم يهتموا بنشر مذهبهم ولم يتبينوا علاقة الدين بالسياسة . ولكن الرومان لم يغفلوا عن اغتنام الفرص لاسترداد سلطانهم بطريق الدين ، فجعلوا يدسون أنوفهم فى مصالح الدولة رويدا رويدا ، ويبثون مذهبهم بين الرعايا بوسائل مختلفة حتى تولى ريكارد المذكور منذ قرن وبعض قرن.. فاستولوا على عقله حتى نبذ ديانة أجداده ، واعتنق المذهب الكاثوليكى وجعله مذهب المملكة فتم النفوذ لرومية ، حتى أصبح مجمع الأساقفة الذى يجتمع فى هذه المدينة يدير أمور المثلث كما يشاء . وربما أتوا بالأوامر من رومية نفسها .

(١) جبن — تاريخ المملكة الرومانية

ولا تزال الكاثوليكية ديانة هذه المملكة الى اليوم ، ولم يبق للآريوسية أثر الا قليلا جدا . ولا ريب عندى أن الذين استبدلوا مذهبهم فى أول الأمر انما استبدلوه موافقة لرأى ريكارد ، لا عن اقتناع بالبرهان ، لأن مذهب آريوس أقرب الى منطق العقل من سائر مذاهب النصرانية .. »

فلما وصل أوباس الى هنا ، أحسّ بأنه استطرد فى الكلام بين يدى ذلك الغلام ، وقد تحقق من ذلك مما بدا على وجه ألفونس من دلائل الاستغراب ، لما غرس فى ذهنه منذ طفولته من ذم الآريوسية ، حتى انه كثيرا ما سمع ذمها من عمّه نفسه ، وأدرك أوباس ما جال فى خاطر ابن أخيه ، فاستدرك قائلا : « لا يغرب عن ذهنك يا ولدى أنى لا أحبّب اليك الآريوسية دون سواها ، فاننا لا نفضّل مذهبا على مذهبنا الحالى .. ولكننى أخاطبك بلغة السياسة لا الدين ، لأبيّن لك نتائج الخطأ الذى ارتكبه ريكارد — سامحه الله — لأنه باعتناقه المذهب الكاثوليكى أضاع الجنسية القوطية ، لأن الدين — ياعزيزى — أثبت الجامعات وأشملها .. اذ قد يجتمع القوطى والفندالى والرومانى واليونانى والسكسونى والعربى وغيرهم فى بلد وهم أخلاط ، فاذا اعتنقوا مذهبا واحدا ضاعت جنسياتهم الأصلية بتوالى الأزمان وصاروا أمة واحدة ..

« وهناك جامعة أخرى ربما كانت مثل جامعة المذهب أعنى بها جامعة اللغة .. فهذه أيضا شاملة ، ولكنها فى الغالب تابعة للدين..

ألا ترى أننا بعد أن اعتنقنا المذهب الكاثوليكى أصبحت اللغة اللاتينية هى الغالبة فى كنائسنا ومجالسنا لأنها لغة ذلك المذهب ، وأخذت لغتنا القوطية فى الانقراض أو الضياع ؟ فلو ظللنا على الآريوسية واستبقينا لغتنا وعممناها فى الشعب ، وحولنا أهل هذه البلاد عن مذهبهم الكاثوليكى الى مذهبنا الآريوسى لكانت لغتهم لغتنا ، ومذهبهم مذهبنا وصاروا من أنصارنا . ولكننا غفلنا عن ذلك فانعكس الأمر ، وأصبح أولئك الرومان بعد أن أخرجونا من مذهبنا ولغتنا ، يحاولون اخراجنـا من سلطتنا بما اكتسبه الأساقفة الرومانيون من النفوذ فى أمور الدولة ، حتى لا ترى فى أوربا كلها مجمعا دينيا له على حكومة البلاد من النفوذ مثـل ما لمجمع طليطلة هذا على حكومة اسبانيا (١)

« وأول من أحس بهذا الخطر من ملوك القوط والدك ــ طيب الله ثراه ــ فانه سعى فى انقاذ حكومته من نفوذ رومية ، حتى كأنى سمعته يصرح برغبته فى الخروج عن مذهبها أو سلطانها الكنائسى ، وكان معظم أساقفة أسبانيا ممن تثقف وتشرب حبها وحب استقفها الأكبر ، فأنكروا رغبة والدك ، وما زالوا حتى حققوا أغراضهم التى أتحاشى التصريح بها ، لأنها تؤلمنى كما تؤلمك . ونصبوا رودريك هذا وهو رومانى الغرض وان ادعى أنه قوطى الأصل .. ففعلوا ذلك افسادا لما كان والدك قد أسسه »

(١) كيزو ــ تاريخ تمدن أوروبا

- ١٧ -

رأى أوباس

وكان ألفونس يسمع كلام «أوباس» باصغاء وقد تلذذ بسماعه لذة عظيمة لما آنسه فيه من الفلسفة والحكمة ، مما لم يكن يخطر له على بال من قبل ، فلما بلغ الى خروج المـُلك من يد أبيه لم يلبث أن سأل قائلا : « كيف استطاع هؤلاء تولية رودريك وأبناء غيطشة أحياء ؟.. »

وقال المطران : « حجتهم فى ذلك أن حق المـُلك عندنا انتخابى وليس وراثيا (١) اذ لو كان وراثيا لكنت أنت أولى الناس بهذا الأمر.. على أن كونه انتخابيا لايقضى بحرمانك منه ، وكان يجب أن ينتخبوك لأنك ابن الملك ، وقد فعلوا ذلك غير مرة . ثم لولا ما ظهر فى خلال انتخابهم رودريك هذا من الأغراض القومية التى مرجعها ضياع جنس القوط قاطبة لما شق ذلك علينا ... »

ثم استأنف أوباس الحديث كأنه أفاق من غفلة وقال : « أرانى خرجت من دائرة الموضوع الأصلى . وخلاصة ما قدمته لك أن الذين تعدهم قوطا وترجو أن ينصروك كى تتغلب على هــذا الرجل قد ضاعت منهم جامعتهم الجنسية فى الجامعــة الدينية واللغوية ، فربما كانوا أقرب الى نصرة أولئك منهم الينا ، فمثل هؤلاء لا يعتد بأقوالهم ولا يعتد على أحزابهم »

(١) دوزى : تاريخ اسبانيا ـ الجزء الثانى

فلما سمع ألفونس نتيجة البحث خاب أمله لأنه انما كان يتوقع شد أزره بأهل عشيرته ، فلما تحقق من ضياع أمله أحس بضعف عزيمته وظل مطرقا لا يبدى حراكا ولسان حاله يقول : « عجزت عن الحيلة .. »

فلما رآه أوباس مطرقا أدرك ضعف عزيمته فأراد أن يسبر غوره ، فقال له : « كأنك يئست من النجاح .. ؟ »

قال : « كيف لا ، وقد فرغت يدى من الرجال فضلا عن فراغها من المال ، ولم يكتف هؤلاء باختلاس المثلث بل أخرجونى منه صفر اليدين . فهل تعلم أين ذهبوا بأموال والدى ؟ .. »

فقال المطران : « ان أموال والدك قد أخذت بحق لأن الملك « رسيسويت » الذى تولّى هذا العرش منذ نحو ستين سنة ، سنّ قانونا يقضى برجوع أموال الملك وكل ما يقتنيه الى خزينة المملكة (١) . فلا ينبغى لنا أن نبالغ فى القاء التبعة على عدونا بالباطل . أما كيف نبلغ ما تتمناه ، فانه اذا أعجزتك الحيلة للوقوف عليه فأخبرنى لأرى رأيى وأرجو أن يكون سديدا .. »

فاستغرب ألفونس تواضع عمه ، وأشار بيديه وعينيه بما قد يعجز عنه لسانه من تفويض كل الأمر الى عمّه ، لأنه أكبر عقلا وأوسع تجربة ، فأصلح أوباس مجلسه استعدادا لحديث طويل ، والتفت الى ما حوله كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وان كان على ثقة من انفرادهما هناك . ثم وجّه كلامه الى ألفونس قائلا :

---

(١) دوزى

« اعلم يابنى أن الانسان اذا عزم على أمر لا بد من النظر فى عواقبه قبل الاقدام عليه والا كانت العاقبة وخيمة عليه . أنت تعلم أن الناس فى اسبانيا طبقات ، منها :

(١) طبقــة الاشراف وهم أرباب الأموال والمناصب ، ومنهم حكام الولايات ، وحكام المدن ، وأصــحاب العقــارات وغيرهم
(٢) رجال الأكليروس
(٣) طبقة المستخدمين وهم رجال البلاط وموظفى الحكومة
(٤) أهل الحرف وهم من أواسط الناس وسكان المدن
(٥) الخدم والعبيد وهم كل مابقى من أهل المملكة .. وهؤلاء هم القسم الأكبر ومنهم الفلاحون وخدمة المنازل ومعظم رجال الحرب

« فاذا شئنا أن ننهض لاسترداد الحكم من هذا الرجل فلا بد لنا من الاستعانة ببعض هذه الطبقات . فلنبحث فى أيها أقرب الينا ..

« فالأشراف اما رومانيو الأصل أو قوطيون ، فالرومان طبعا ضدنا . وقد بيّنت لك حال القوط ، فهم قد أضاعوا قوّتهم فى مذهبهم الجديد . فالاشراف لا فائدة لنا فيهم وكذلك أهل البلاط . أما الاكليروس فأنت تعلم انهم علّة هذا التغيير . وأهل الحرف بالنظر الى اقامتهم الطويلة فى المدن ، قد أضاعوا الحماسة اللازمة للقيام بمثل هذا الانقلاب . وزد على ذلك أن كلا منهم منصرف

الى عمله وتجارته ويخاف ضياع أمواله القليلة.. اذ لايخفى عليك أن بلاد أوربا كلها تقريبا مؤلفة من المدن والحقول ، فأهل المدن لايكادون يهتمون بما هو خارج حدود مدنهم (١) . وكل مدينة تهتم بنفسها ، ونحن لايكفينا الاستعانة بأهل مدينة واحدة لأن رودريك صاحب جنود وأعوان ، يستنجد علينا بحكامه فى الولايات فتذهب جهودنا عبثا ..

« بقى علينا النظر فى الطبقة الأخيرة من هذا الشعب وهى طبقة الخدم والعبيد ، فهؤلاء هم الجانب الأكبر ولا تستغنى عنهم سائر الطبقات . ومع ذلك فانهم مستبدون بهم استبدادا عظيما ، ولا يخفى عليك أن معظم هؤلاء العبيد انما دخلوا فى الرق على أثر الحروب ، وهم رجال أشداء ولا سيما بعد أن تعودوا العمل ، وعانوا الشقاء لاشتغالهم فى الحقول ، فان عقارات الأشراف وبيوتهم وأموالهم كلها فى قبضة هؤلاء العبيد . ومع ذلك فانهم مظلومون يقاسون من أسيادهم عذاب الذل ـــ وناهيك بعذاب الرق ـــ وأنت تعلم أن هؤلاء الأرقاء لا ينقصون عن أسيادهم من حيث المواهب الطبيعية ، ولكنهم تعودوا الخضوع لهم والخوف من أصواتهم حتى أصبحوا أطوع لهم من ظلهم . فكل ما للعبد فهو لسيده ، لا يستطيع أن يعمل عملا الا بأمره ، حتى الزواج . وكل ما اكتسبه العبد بالقصد أو بالاتفاق أو بالتجارة أو بالحرب ـــ حتى الأولاد الذين يولدون له ـــ فانها كلها

(١) مونتسكيو

لسيده .. وله أن يبيع العبد أو أمتعته أو أولاده بدون معارضة

« على أن أولئك الأسياد قد ينعمون على بعض عبيدهم بالحرية مكافأة لهم على عمل عظيم قاموا به ، غير ان هذه الحرية قلما تتميز عن الاستعباد ، فان العبد ولو عتق فانه يظل تحت أمر سيده ، فان عمل عملا فلسيده نصف ما يكسبه من ذلك العمل ، وان أراد أن ينتقل من خدمته وجب عليه أن يرد له كل ما معه من الأسلحة أو الأثاث ، ولا يعدُّ ذلك العبد من زمرة الأحرار الأصليين الا فى الجيل الرابع من أولاده (١) . والخلاصة فانى لا أطيل عليك الكلام لأنك تعلم كثيرا من أفعال هؤلاء الأرقاء ، ولكنك قلما فكرت فيما يقاسونه من الغبن والظلم ، وربما لم يخطر لك على بال أنهم من جبلّة مثل جبلّتنا ، فقد شببت وأنت تراهم على هذه الحال »

— ١٨ —

الوسيلة

فلما بلغ أوباس الى هذا الحد وقف وتنحنح وتفرس فى ألفونس ليرى أثر أقواله فيه ، فرآه منصتا بكل جوارحه لسماع ما يقوله عمه ، فعاد أوباس الى حديثه فقال : « فالأمر الذى أوجّه التفاتك اليه يا ولدى هو أن أقوى طبقات الشعب هم أولئك الأرقاء

(١) دومى

المظلومون ، وهم أكثر عددا وأقوى أبدانا وأصبر على الشقاء . فاذا اتخذناهم أعوانا لنا فى هذه المهمة قلبوا المملكة رأسا على عقب . وقد لا نحتاج الا الى تظاهرهم بالتعاون معنا ، فان اتحادهم يرعب الملك وحكامه وأشراف مملكته ، فننال المراد بغير حرب أو سفك دماء .. ولكن ما الذى يجمعهم ، أو كيف يمكننا أن نجعلهم حزبا مؤيدا لنا .. ؟ »

وكان ألفونس يرهف السمع لحديث عمه ، وقد رأى الصواب يتألق فى كل كلمة من كلماته . فلما وقف أوباس عند هذا الاستفهام ارتبك ألفونس فلم يحر جوابا لأنه لم يكن يتوقع هذا السؤال . أما عمه فانه لم يوجه اليه هذا السؤال وهو يتوقع منه جوابا ، فقال : « اعلم يابنى ان الوسيلة التى يجب أن نتخذها لجمع كلمة هؤلاء الآدميين المظلومين تحت لوائنا انما هى أفضل الوسائل وأشرفها ، بل هى فضيلة تبقى لنا ذكرا مدى الدهور ، ويحسدنا عليها كل من ملك هذه البلاد قبلنا ، وننال عليها الجزاء الحميد من الله سبحانه وتعالى .. أتعلم ما هى .. ؟ »

فلم يهتم ألفونس بالجواب هذه المرة لأن ملامح عمه كانت تشير الى أن الجواب آت . ثم قال أوباس : « ان الوسيلة يابنى لجمع كلمة هؤلاء انما هى أن نهبهم الحرية ونجعل لكل من ينضم الينا منهم حقا فى الظفر بحريته بعد أجل معين.. واذا نال تلك الحرية كان كسائر الأحرار دفعة واحدة .. لا يقاسمه أحد فى جهده أو كسبه ، على أن يكون ذلك مرتهنا برجوع المملكة

اليك ، وأنك متى توليت عرش أسبانيا هونت الاعتاق وسهلت الطريق اليه بوسيلة ترغّب أولئك المظلومين فى نصرتك .. »

فانبهر الفونس بما سمعه من عمه وأحسَّ بما بينهما من التفاوت فى الادراك والقوى ، وخيِّل اليه أن الأمر قد تم له على ما يروم حتى أصبح كأنه يرى زمام الملك ويهم بالقبض عليه .. ولم يكن ألفونس بليد العقل الا بين يدى عمه لما له من السلطان على عقله ورأيه . فلم يتماسك ألفونس فتناثرت من عينيه دمعتان من دموع الفرح ، وانحنى على يد عمه ليقبِّلها فاجتذب أوباس يده ، وهو لا تهزه عاطفة فرح أو غضب ، ولكنه اصطنع ضحكة وألقى يده على كتف الفونس ، وقبض عليها بقوة .. فأحسَّ الفونس بشدة تلك القبضة وتوقّع أن يسمع شيئا بعدها فاذا بأوباس يقول : « رأيتك اقتنعت بما سمعته ، ولم تعمل فكرك للبحث فيما يحول دون عملنا هذا من الحواجز »

فأجفل ألفونس وخشى أن تضيع آماله بعد أن أوشك أن يتراءى له أنه ظفر برغبته ، وفكر فيما عسى أن تكون تلك الحواجز التى قد تقف فى سبيل ذلك المشروع .. ولكنه قبل أن يتوصل الى الجواب ، سمع عمه يقول : « لا أظنك تجهل ما يحتاج اليه مشروعنا هذا من الأموال للانفاق على الجند ، وابتياع الأحزاب ، وانشاء المعاقل واغراء الأعداء .. »

— ١٩ —

سر جديد

فلما سمع ألفونس ذلك عاد اليه اليأس لأنه لا يجد المال فى يديه ولا يدى عمه ولا سائر أهله . واستغرب اغتراره برأى عمه الأول وتخيله وصوله الى الغرض المقصود مع أن مسألة المال لم تكن لتخفى عليه ، وقد كان منذ هنيهة يشكو الى عمه خروجه بعد موت أبيه صفر اليدين . على انه انما اغتر بذلك لشدة اعتقاده بسداد رأى أوباس ، وقد نشأ هذا الاعتقاد فيه منذ طفولته الأولى لأنه ما برح منذ أخذ يدب على الأرض يرى عمه يأتى الى أبيه بلباس الكهنة ، والكل يحترمون رأيه ويهابونه ، فشب على استسلامه له ، فاذا قال أوباس قولاً سلّم هو به واعتقد صوابه بلا روية ولا تبصر . كذلك كان شأنه معه فيما دار بينهما فى ذلك اليوم . فلما سمع ألفونس ذكر المال تحقق أنهما يتداولان عبثا ، فبدا أثر القنوط على وجهه ، وظل ساكتا ، وفى سكوته ما يغنى عن الجواب

أما أوباس فلما رأى ان ابن أخيه قد أسقط فى يده وكاد ان ييأس ، ابتسم ابتسامة أخرى وقال : « هل يئست يا ألفونس ؟ ما أسرع ما ترجو وما أسرع ما تقنط . لا تيأس يابنى انى لا أدع ثقتك العمياء فى عمك تذهب هباء . انى لم أقض هذين العامين نائما .. نعم انى أخاطبك على سبيل المداولة ولكننى — فى

الحقيقة ــ أعرض عليك مشروعا رتبته وسبرت أغواره ودبرت كل شئونه ، ولولا ذلك لم أرض بالخوض فيه معك » . قال ذلك ونهض فنهض ألفونس معه ، وهو لايدرى معنى ذلك النهوض ولكنه أصبح شديد الميل الى استطلاع تتمة المشروع ، وأصبح فكره مضطربا قلقا يريد أن يرى ما دبّره عمه من الوسائل للحصول على المال . على انه لم يجسر على سؤاله فظل صامتا فى انتظار الجواب .. أما أوباس فانه تناول قلنسوته فوضعها على رأسه فظنه ألفونس يهم بالخروج . ثم ما لبث أن سمعه ينادى : « يعقوب .. » وما عتم أن رأى يعقوب داخلا يهرول ولحيته وأنفه يسبقانه حتى وقف بين يدى أوباس ، وفى وجهه ابتسامة تدل على ما فى نفسه من الاطمئنان . فلما دخل جلس أوباس وأشار الى ألفونس أن يجلس ففعل ثم قال ليعقوب : «اجلس..» فأظهر يعقوب البغتة وقال : « حاشا ــ يامولاى ــ أن أجلس بين يديك أو يدى سيدى (وأشار الى ألفونس) وانما يكفينى أن تأذن لى بالوقوف »

فضحك اوباس ، ويندر أن يضحك لغير يعقوب ، ومد يده اليه حتى أمسك باحدى شعبتى لحيته وشده بلطف حتى أقعده على طنفسة فى أرض الغرفة ، ثم تظاهر بالاجفال وأرجع يده ومسح أطراف أنامله بمنديله وهو يقول : « متى تغســل هذه اللحية يا يعقوب ؟ أما آن لك أن تغتسل ؟.. »

فلما سمع يعقوب ذلك السؤال تبدلت سحنته بغتة وذهبت

عنها ملامح المجون وبدا الجد فى عينيه وقال : « سيادتكم أعلم مني .. ولكنني أرجو أن يكون ذلك قريبا »

فلم يفهم الفونس معنى هذا الجواب ولا سيما بعد أن رأى ذلك التغير فى وجه يعقوب ، ولكنه صبر ليرى ما يبدو منه فسمع عمه يقول : « وأنا أرجو ذلك أيضا .. ولكن غسل لحيتك ياصاح يكلف نفقات طائلة فهل تدفعها ؟.. »

قال : « نعم انى لا أدخر مالا ولا ولدا ولا نفسا فى سبيل غسلها كما تعلم .. »

فلم يزد الأمر لدى ألفونس الا غموضا وابهاما ولم يفهم لاستدعاء ذلك الخادم معنى ، ولا لتلك الألغاز مغزى ، وشق عليه أن يتحول موضوع المداولة من الجد الى الهزل ، وهو لا يعرف أن عمه يميل الى المزاح الا قليلا ، وأكثر ما يفعل ذلك مع يعقوب .. فحمل كلامهما محمل المزاح ، وظل ساكتا يتوقع العودة الى الموضوع الأصلى

أما أوباس فقال : « انى أعلم ذلك يايعقوب وقد آن لى أن أسعى فى غسل لحيتك ، فهل أنت واثق من المال مهما كبر مقداره ؟ .. »

قال : « نعم يا سيدى وأنت تعلم ذلك ... »

فقال أوباس : « قد كنت أعلمه ولكن هل حدث تغيير أو تبديل ؟ .. »

فقال يعقوب : « كلا يامولاى ، نحن على ما نحن عليه .. »

فأطرق أوباس مدة طويلة لايتكلم واستغرق فى الأفكار، كأنه يحل معضلة ويفكر فى أمر طرق ذهنه فى تلك الساعة ، ثم وقف فوقف يعقوب وألفونس فقال للأول : « أحب أن أراك الليلة فى منزلى » ..

فأشار بيديه وعينيه وشفتيه أن : « سمعا وطاعة » وخرج وأغلق الباب وراءه

- ٢٠ -

كتاب فلورندا

فتوقع ألفونس بعد خروج يعقوب أن يسمع من عمه ما يزيل ذلك القلق عنه فلما رآه قد جلس ، جلس هو الآخر وأصاخ بسمعه وهو ينظر اليه كأنه ينصت لما يقوله فسمعه يقول : « طب نفسا يا ألفونس ، ان المال تحت يدى عند الطلب ولا بد من جلسة أخرى أشرح لك فيها التفاصيل ، وأرتب الخطة التى يجب أن نسير عليها فى هذا العمل الخطير »

فقال ألفونس : « ولكننى لم أفهم علاقة ذلك بخادمنا هذا وبلحيته » ..

فقال أوباس : « ستعرف السر فى ذلك فى هذه الليلة ان شاء الله . هل تأتى معى الآن الى منزلى فنتناول الطعام معا ؟ لا بل الأفضل أن تبقى هنا وأسير أنا وحدى لأخلو بنفسى ، وأرسم

الخطة التى يجب اتباعها فى هذا المشروع » قال ذلك ونهض وسار الى الباب وهو يمشى الهوينى على عادته ، وألفونس من ورائه ليودعه عند خروجه . وقبل وصولهما الى باب الغرفة سمعا قرعا عليه ، ثم دخل يعقوب وفى يده كيس صغير من الحرير الأرجوانى مسطح الشكل كأن فيه كتابا ، وقد عقد بشريط من الحرير الأزرق . فلما رأى ألفونس الكيس خفق قلبه لعلمه أنه من فلورندا ، وكثيرا ما كانت ترسل اليه الكتب فيه ، فأسرع الى الكيس وتناوله وسأل يعقوب عمّن حمله اليه ، فقال : « أحد خدم القصر الملكى »

وكان قد شرع فى فضّه قبل أن يسمع الجواب. فلما فتحه أخرج منه قطعة من الخشب مربعة الشكل ، قد كسى سطحاها بالشمع وكتب عليها حفرا بقلم من حديد ــ وهذه من وسائل المكاتبة فى تلك الأيام قبل أن يخترع ورق الكتابة بأجيال (١) ــ فتناولها وتحول نحو النافذة وقد نسى وداع عمه وأخذ يتلوها بنفسه ، ولم يكد يصل الى آخرها حتى ارتعشت أنامله وتغيّرت سحنته. وكان اوباس قد توسّم فى الكتاب شيئا جديدا فتغافل عن الفونس ريثما يقرأ مكتوبه ، لكنه ما لبث أن رآه يقلّب تلك الصحيفة ويعيد تلاوتها وهو يوجهها نحو النور الداخلى من النافذة ويتفرس فى الكتابة بعينيه ، كأنه يشك فى كلماتها ، وقد امتقع لونه وارتعدت أنامله وظهر الغضب فى أسرّته ، فظل أوباس ينظر اليه

(١) دائرة المعارف البريطانية « باليوغراف »

ثم أغلق الباب ليخلو بألفونس ثانية . فشعر ألفونس بالباب وهو يغلق فانتبه ، ونظر فاذا عمه يمشى نحوه بكل هدوء وسكينة ، وكان نظره اليه قد خفّف ما قام فى نفسه على أثر تلاوة ذلك الكتاب ، وقد حاول التجلد تشبها بما كان عليه عمه من سعة الصدر ، ولكن التأثر كان قد غلب عليه . وتقدم نحو عمه وبيده تلك الصحيفة فقدمها له وهو يقول : « ويلاه لا ننجو من شر الا ونقع فى شر أشد منه وكل مصائبنا من ذلك المختلس السافل ..»

فمد أوباس يده وتناول الكتاب بكل رزانة وتفرس فيه ، فاذا هو مكتوب باللغة اللاتينية المشوشة بألفاظ قوطية (١) حفرا فى الشمع على الخشب فقرأ فيه ما معناه :

« حبيبى ألفونس

« ان الأمر الذى خفته من انتقالى الى هذا القصر قد أوشكت على الوقوع فيه ، فأنا فى خطر من براثن الأسد الا اذا أسرعت الى انقاذى . أنت تزعم أنك تحب فلورندا فأسرع الى انقاذها قبل أن تفوت الفرصة .. والا فان ما بقى من حياتها لا يتجاوز ساعات قليلة ، اذا انقضت قبل خروجها من هذا القصر . فاذا لم يكن لى نصيب من النجاة فانى أستودعك الله وأطمئنك أنى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر . أذكرنى بين يدى أهلى . وموعدنا الأمجاد السماوية فى أحضان الآباء القديسين

« كتبته فلورندا المسكينة »

---

(١) رومى ــ الجزء الثانى

وما أن فرغ أوباس من قراءته حتى بدا عليه التأثر أيضا ، ولكنه كان أثبت من الفونس جأشا وأصبر على الطوارىء ، وقد أحس أنه مسئول عما قد يصيب فلورندا من السوء ، وهو الذى وضع عربون الخطبة بينها وبين الفونس ، ولكن الفونس لم يعد يستطيع صبرا فقال : « اعذرنى يا عمّاه فقد نفد صبرى ونسيت كرسى المُلك وأنت الذى باركت عربون الخطبة بيننا ، فأنت مطالب باتمام العقد فضلا عما أنت مكلّف به من ذلك بواجب القرابة . ومهما يكن فى الأمر من شىء فانى أطلب اليك أن تمدنى برأيك » ..

فالتفت اليه بهدوء ورزانة ويده على لحيته يسرحها بأصابعه وقال : « طب نفسا يا ولدى ، اننى سأخرج فلورندا من قصر الملك وهى بخير ان شاء الله » .. ثم أطرق وأعمل فكره وهو يصعد بحاجبيه ، ثم يقطبهما بما يدل على استغرابه وحيرته ، ثم قال : « انى لأعجب من أمر هذا الرجل وانشغاله عن أمور رعيّته بما لايرضى الله ولا عبيده ، وأعتقد أن ذلك من الأدلة القاطعة على قرب سقوطه وذهاب مُلكه ، لأن الله لا يؤيد مَلِكا يخالف وصاياه » . وكان الفونس غارقا فى بحار الهواجس وقلبه يتقد غيرة على فلورندا . وحين تشاغل عمّه عنه بمناجاة نفسه أخذ يعيد النظر فى كتاب فلورندا فوقف بصره على قولها : « انى ذاهبة شهيدة العفاف والطهر » وفكّر فيما ينطوى تحت هذه العبارة من المعانى المثيرة للغيرة . ثم سمع عمّه ينادى : « يعقوب .. »

فدخل وقبعته فى يده وقال : « لبيك يا مولاى .. »

فقال أوباس : « هل تعرف اثنين من خدم هذا المنزل يمكننا أن نثق فى أمانتهما اذا كلّفناهما بمهمة ولو كانت ضد هذا الطاغية صاحب كرسى طليطلة اليوم »

فقال يعقوب : « أنا يا سيدى .. »

فقال أوباس : « اننا ندخرك لأمر آخر ، ولكننا نحتاج الى شابين أو ثلاثة أنت تثق فى أمانتهما ونشاطهما وبسالتهما ، لأن الأمر الذى سنكلفهما به يحتاج الى الاقدام والشجاعة والأمانة »

فأطرق يعقوب وقد أمسك بطرف لحيته وجعل يفتله بين السبابة والابهام ، حتى أصبح مثل طرف الحبل لما يتخلل الشّعر من الأوساخ .. فعل ذلك وهو مستغرق فى التفكير : ثم حرك أنامله بغتة فأعاد اللحية الى ما كانت عليه ، والتفت الى أوباس وفى وجهه أمارات البشر وقال : « قلّما أثق بأحد من هؤلاء وان يكن معظمهم نشأوا فى بيت مولاى وعاشوا على مائدته ، لأن الانسان أضعف من أن يضحّى بنفسه فى سبيل الوفاء والأمانة . ولكننى أعرف اثنين فقط أظنهما أهلا لهذه الثقة »

فقال أوباس : « ومن هما ؟ »

قال يعقوب : « هما أجيلا وشنتيلا »

فقال أوباس : « وكيف اخترت هذين وليس أحدهما ممن ربّى فى بيت الملك ؟.. »

فقال يعقوب : « اخترتهما لاعتقادى بقدرتهما على هذه المهمة

ولأنهما لا يزالان طامعين فى العلى .. اذ لايخفى على مولاى انهما كانا من طبقة العبيد ، وقد حررهما أخوك قبل وفاته وألحقهما بحاشيته لما آنسه فيهما من الكفاءة والشهامة . وقد ظهر لى بعد تحررهما من العبودية أنهما يطمعان فى الرقى ، شأن من يذوق طعاما لايعرفه فاذا استطابه زاد فى اشتهائه فيطلب المزيد منه . وأما من تعوّد طعاما حلوا فقلّما يستزيد منه . وهذان الشابان ولدا فى مهد العبودية ، ونفساهما من أنفس الأحرار ، وقد لمس الملك المرحوم عظم نفسيهما فى حـديث يطول سرده فمنحهما الحرية ، وألحقهما بحاشيته ، وهما الآن يتطلعان الى التقدم ، فاذا كان فى المهمة التى تنتدبهما لها ما يُطمع فى ذلك ، استماتا فى سبيلها والا اعتذرا عنها ، وهما لا يخونان ... »

فقال أوباس : « أراك بارعا فى فلسفة الأخلاق .. فاذا كان الغروب ، تعالَ الى منزلى وهما معك »

قال ذلك وحوّل وجهه الى الفونس ، ففهم يعقوب أنه يطلب خروجه فخرج.. أما الفونس فكان قد عاد الى هواجسه ، فلمّا أقبل عنه اليه قال له : « بماذا نجيب على هذا الكتاب ؟ »

قال أوباس : « أكتب اليها أن تكون على أهبة السفر فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وانك ستنتظرها فى القارب بجانب القصر »

فتناول ألفونس قطعة من نسيج غليظ كانوا يكتبون عليـه

أيضا (١) وكتب اليها ويده ترتجف ما معناه :

« الى مليكة القلب فلورندا

« لبّيك ياحبيبتى .. انى موافيك فى القصر فى الساعة الثانية من الليلة القادمة ، فتهيّئى للخروج بما تستطيعين حمله ، واشرفى من النافذة المطلة على النهر ، فاذا رأيت نورا مثلثا فاعلمى أننى فى انتظارك . تشددى وقوّى قلبك ولا تخافى

« كتبه محبّك الذى يفديك بروحه »

وطوى الكتاب وخاطه ، وجعله فى الكيس الأرجوانى وختمه ودفعه الى يعقوب ليعيده الى الرسول الذى جاء به ، ويوصيه بالاحتفاظ به لئلا يطلّع عليه أحد . فتناول يعقوب الكتاب وخرج

— ٢١ —

كتاب آخر

وكانت الشمس قد تجاوزت الأصيل فأخذ ألفونس يتأهب للخروج مع عمّه الى منزله للتشاور هناك فيما يفعلونه ، ومع شدة ما أصاب ألفونس من البغتة فانه ظل مستغربا ما سمعه عن يعقوب من الأسرار الخفية ، وكان الطقس قد تبدّل فغامت السماء واشتدّ البرد .. فلبس الفونس قباء من الفرو السميك والتف عمّه بردائه الأكليريكى وكان البرد قلّما يؤثر فيه . وفيما

(١) دائرة المعارف البريطانية

هما يتأهبان للخروج وكل منهما يفكر فى أمر على حدة ، فتح الباب بغتةودخل يعقوب وفى يده اسطوانة من جلد يلون القرمز، فعلم أوباس أن فيها كتابا من رودريك . وكانت كتبه الى عمّاله وأمرائه تكتب على الجلد وتلف وتوضع فى أسطوانة من جلد العجول مدبوغ بلون القرمز ، فلمّا وقع نظر ألفونس على تلك الاسطوانة تقدم لاستلامها ، فاعترضـــه عمه وتنـــاولها وقال ليعقوب : « من جاء بها ؟ »

قال يعقوب : « جاء بها شرذمة من فرسان الملك ، وقد سألنى رئيسهم عن سيدى ألفونس .. هل هو هنا ، فأردت استمهاله لأعود اليه بالجواب ، فابتدرنى قائلا : أخبرنى حالا فانى مأمور بتسليم هذا الكتاب اليه على جناح السرعة حيثما كان . فقلت : هو هنا . فدفع الىّ الكتاب وقال : انه ينتظر .. »

فنظر أوباس فى خاتم الاسطوانة فاذا هو خاتم الملك نفســـه ففضّه وأخرج الكتاب ، فاذا هو قطعة من الرق مما كانت الحكومة تستخدمه لكتابة الأوامر ، وكانت الرسالة ملفوفة على نفسها فنشرها وقرأ ما فيها ، وألفونس واقف الى يساره ، فاذا هى أمر رسمى من رودريك اليه يقول فيه ما معناه :

« من رودريك ملك القوط

« الى الشجاع الباسل عزيزنا الفونس : سلام .. وبعد فقد بلغنا أيها العزيز أن بعض العبيـــد والموالى فى كونتيّة ... قد تمردوا وتضامنوا على مقاومة حكومتنا هناك ،فاذا جاءك كتابى

هذا فأسرع الى مقر جنودنا فى طليطلة ، فان فرقة من الجند فى انتظارك لتذهب تحت قيادتك الى تلك المدينـــة لاخماد الثورة ، ولا بد من العجلة ، ويدلك على استعجالنا أننا كتبنا هذا الأمر فى يوم العيـــد الذى لا يجوز العمل فيه ، فان كنت واقفا فلا تجلس ،وان كنت ماشيا فلا تقف قبل انفاذ أمرنا هذا ، والسلام

«كتب فى قصر طليطلة فى الخامس والعشرين من شهر ديسمبر سنة ٧١٠ » ..

وما جاء ألفونس على آخر الكتاب حتى اسودت الدنيا فى عينيه وصاح لشدة هياجه : « لا أذهب الى مكان .. لا أذهب .. »

فالتفت أوباس اليه لفتة الاستصغار، وقال له : «كيف لا تذهب؟ وهل تستطيع ذلك ؟.. ألا ترى انه كتب اليك هذا الكتاب وفيه ما فيه من الملاطفة ، فاذا عصيت أمره سببت لنفسك البلاء .. »

قال ألفونس : « وأى بلاء أسببه لنفسى ؟ .. »

فقال أوباس : « اذا تخلّفت عن المسير اتّهمك بالعصيان وأمر بالقبض عليك ، فهل عندك من الرجال ما تدفع به قوة الحكومة الآن ؟ وعندئذ تكون النتيجة ايقاع الأذى بك وبنا جميعا لأن المجمع المقدس يجد مسوغا لذلك بعصيانك . فالحكمة تقضى علينا باللين والمسايرة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ... »

ولم يكن ألفونس يجهل ذلك ، ولكن غضبه لفلورندا ولخروجه من طليطلة وهى فى ذلك الضنك أغلق ذهنه . فلما سمع كلام عمه قال له : « ولكن ما العمل ؟ كيف اجتمع بفلورندا ؟.. »

فقال : « أترك أمرها التى .. فانى أتولى انقاذها الليلة وأخفيها فى مكان ثم أكتب اليك حيثما تكون ، وسنرى ما تأتى به الأقدار .. ولا تجزع ، بل أبشر بما ترجوه من وراء سفرك هذا من تمهيد السبيل لمشروعنا ، وتوكل على الله ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم »

فالتفت ألفونس الى يعقوب وقال له : « قل لحامل الرسالة اننى ذاهب بعد قليل ... »

فقال : « قلت لك يامولاى انهم كوكبة من الفرسان ، وقد علمت أنهم مكلفون أن لا يعودوا الا بك »

فقطع أوباس كلام يعقوب وقال لألفونس : « اذهب يابنى . اذهب الآن وسأتولى أنا كل شىء فى غيابك ، ولكن أنصح لك أن تصطحب يعقوب وتعتمد عليه وسوف يطلعك على أمور تهمك » ..

فقال يعقوب : « سمعا وطاعة .. » وأسرع الى ثيابه فلبس منها ما يصلح للسفر ، وكذلك فعل ألفونس ، وخرجا وألفونس يتجلّد وقد ألقى كل حمله على عمّه ..

— ٢٢ —

عود الى القصر

فلندع ألفونس يتأهب للسفر ولنعد الى قصر رودريك ، الى

حيث تركنا فلورندا فى غرفتها تفكر فى أمرها بعد أن فرغت من الصلاة وألقت حملها على الله ، وكان رودريك قد خرج من عندها وهو يضمر لها الشر العاجل . وكان أول ما عمل أنه لقى الأب مرتين فى غرفته يتلو بعض الصلوات ، وكان مرتين قد شعر بذهاب الملك الى قصر فلورندا ، وتحقق انه لن يعود من هناك الا وهو على نيّة التخلص من ألفونس أو ابعاده . فلما لقيه عائدا آنس الغضب والانفعال فى عينيه وجبينه ، حتى لقد يعجب من يراه لصبره عن قتل تلك الفتاة ، وهو اذا غضب لا يبالى أن يقتل المئـــات ، ولكن الحب .. الحب يخفف الغضب ويلجم القلب والعقل .. الحب يذل الأسود ويأسر الجبابرة ، وهو الذى يبعث على الشفقة والعطف . فاذا رأيت رجلا فى خلقه جفاء وخشونة فاعلم أن الحب لم يستول على قلبه بعد . نعم ان حب رودريك لم يكن خالصا من شوائب المنكر ، ولكن ذلك لايمنع تأثيره على القلب ، لأن سبب الحب واحد ، ولكنه يظهر فى الناس مختلفا باختلاف أخلاقهم وأحوالهم . ولا يبعد أن يكون رودريك قد همّ بقتل فلورندا وهى تعنفه وتقاومه ، ولكنه أمسك طمعا فى استرضائها واستبقائها . فتحمّل من آثار الكظم ما ظهرت علاماته فى وجهه حتى خيّل لمرتين — حينما رآه — انه فى أشد حالات الغضب ، فاستقبله ضاحكا .. فتجلد رودريك وحيّاه وهو يحاول عبثا اخفاء انفعاله ، فلم ير خيرا من أن يشاغل الأب بالحديث ، فقال له وهو يظهر الاستخفاف : « يظهر ان لذلك الغلام مأربا

فى بعض أهل القصر »

فأجاب الشيخ وهو يتلجلج : « كأنى بالملك لم يفهم اشارتى الى ذلك فى هذا الصباح .. »

فقال رودريك : « بلى فهمت .. ولكننى .. » وسكت

فأدرك القس أنه يضمر شيئا فظل ساكتا وهو ينقر بسبّابته على شفته الغائرة ، وعيناه تنظران الى الملك كأنه يتوقع تتمة حديثه . أما رودريك فلم ير بأسا من اطلاع مرتين على قصده ، ولا عجب فهو مستودع أسراره ، الا سر حبه فلورندا فانه كان يكتمه حياء من الناس وخوفا من زوجته .. ثم هو يعلم مقدار سيطرة القسس على النساء ، فخاف أن يقع حبه لدى القس موقع الاستهجان فيطلع الملكة على ذلك فتقف فى سبيله . على أنه أراد اطلاع مرتين على ما بقى من عزمه فقال : « أرى أن أسعى فى ابعاد هذا الشاب عن هذه المدينة بالحسنى فنشغله عن القصر وأهله .. »

فطأطأ الشيخ رأسه استصوابا كأنه رأى الجواب فى تلك الاشارة أهون عليه من الكلام .. ثم قال : « واذا أبعدته فقد ننتفع بخدمته ونتخلّص منه . ولكن الحيّة لا تموت اذا ظل رأسها سالما .. »

فعلم رودريك أنه يشير الى أوباس ويود ابعاده .. فقال : « ان ابقاء رأس الحيّة بين أيدينا أسلم عاقبة لنا ، ولا سيما اذا كان الذنب بعيدا » ففهم مرتين اشارته وسكت

فنهض الملك للحال وكتب ذلك الكتاب ، وبعث به الى ألفونس

كما تقدم وصبر حتى أنبأوه بنفاذ أمره ، وأن ألفونس جاء الى المعسكر وتهيأ للسفر . وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وأقبل الظلام وكأن اقباله زاد الملك تعاميا عن فظاعة ما نواه ولم يعد يستطيع صبرا الى اليوم التالى ، فتناول طعام المساء مع زوجته وأكثر من تعاطى الخمر على تلك المائدة ليدارى ما ثار فى نفسه من النيران الشيطانية

نهض رودريك عن المائدة وقد امتلأ جوفه ، ودارت الخمر فى رأسه ، وتحوّل توا الى غرفته ، والقس لا يزال على المائدة مع زوجته . وعندما دخل رودريك الغرفة ، أغلق الباب وراءه ، وفتح الباب الآخر وسار فى الدهليز نحو غرفة فلورندا

أما فلورندا فكانت بعد اعمال الفكرة قد كتبت ذلك الكتاب الى ألفونس ودفعته الى العجوز ، فأرسلته مع خادم تعتقد فى اخلاصه ، وعادت ولبثت تنتظر الجواب ، فشغلها الانتظار عن كل تفكير . فقضت فى الانتظار ساعة ظنتها شهرا أو سنة ، فكانت تارة تطل من الباب ، وأخرى من النافذة المشرفة على النهر ، وآونة تدعو خالتها وتستفتيها فى سبب التأخير ، وهى تهوّن عليها . حتى عاد الرسول بذلك الجواب فخفق قلبها سرورا ، وأول شىء فعلته انها قبّلت الايقونة وشكرتها على اجابة صلواتها ، وأخذت تجمع ما خفّ حمله من الحلى ونحوها ، والعجوز تساعدها حتى غابت الشمس . وعند ذلك تركت فلورندا كل شىء وتحوّلت الى النافذة وجلست اليها ، وأرسلت بصرها الى

مجرى النهر تنتظر ظهور النور المثلث مع علمها ان الموعد المحدد لايزال بعيدا . ولكن القلق أوهمها أنه قريب . وكان الطقس قد برد وتلبدت الغيوم فأغبرت السماء وعصفت الرياح وأومض البرق وقصف الرعد ، ولم يمض قليل حتى تساقطت الأمطار . ولكن ذلك كله لم يشغلها عن التفرس فى النهر وركبتاها ترتعدان أملا وفرحا .. وكانت كلما لاح برق ظنته مشعال حبيبها . وقد تنفرج الغيوم فيقع بعض ظل الكواكب فى مجرى النهر فتحسبها نورا مثلثا ، وربما كانت عشرين كوكبا فتظن تعددها ناتجا عن تكسر سطح النهر بالأمواج ، أو تتوهم ان السبب فى ذلك هو اعتراض بعض أغصان الحديقة بينها وبين النهر ، وبخاصة الأغصان الضخمة القائمة تجاه النافذة

— ٢٣ —

تجربة أخرى

وفيما هى تعلل نفسها بقرب الفرج ، وقد وجهت كل حواسها وعواطفها الى ما هو خارج تلك النافذة نحو النهر ، انتبهت بغتة فسمعت وقع أقدام رودريك فى الدهليز ، فخارت قواها وتسارعت ضربات قلبها حتى كاد يغشى عليها .. وأحست على الفور بما يحدق بها وكانت فى غفلة عنه ، فجلست على البساط وجعلت تتضرع الى الله أن يساعدها وينقذها هذه المرة . ولم تجد الا

خالتها فقالت لها : « أليست هذه هى خطوات الملك ؟.. » ولم تتم كلامها حتى خرجت العجوز ثم عادت وهى تقول : « الملك يدعوك الى تلك الغرفة .. »

فصاحت فلورندا : « ويلاه ما هذا المصاب ؟.. يا الهى .. » ولطمت وجهها وأخذت فى البكاء

فتقدمت العجوز اليها وجعلت تخفّف عنها وهى لاتدرى بماذا تعزّيها هذه المرة .. على انها لم تر خيرا من الرجوع الى العزاء الأكبر وهو ــ الدين ــ فقالت : « توكلى على الله فهو الذى أنقذك فى المرة الماضية وسوف ينقذك الآن ، وما ذلك على الله بعسير » ..

وكانت فلورندا من أهل الايمان الوطيد ، فتضرعت الى الله أن يعينها هذه المرة أيضا ، والتفتت الى خالتها وقالت لها : «أتوسل اليك يا خالة أن تصلّى من أجلى وتطلبى الى الله أن ينقذنى من هذه التجربة »

فقالت : « سأظل هنا جاثيـــة أمام هذه الايقونة الى حين رجوعك لأنى لو صحبتك ما نفعتك ، ولا يساعدنا على هــذا العدو غير الله وحده »

فاطمأن بال فلورندا لهذه العبارة .. ومشت كالشاة وهى تساق الى الذبح .. مشت وهى تقدم قدما وتؤخر أخرى حتى دخلت تلك الغرفة . وكان رودريك جالسا فى صدرها جلوس من لا يهمه النهوض ، ورأت فى وجهه من دلائل الغضب ما لم تره فى المرة

الماضية ، وقد احمرت عيناه واربد وجهه من أثر الخمر، وتتابعت أنفاسه واشتدت حتى أصبح شخيرا . فظنت فلورندا لأول وهلة أنها ترى هذه الملامح فى وجهه بسبب نور المصباح وهو ضئيل . ولكن حين وقعت عيناها عليه أسرع قلبها بالخفقان .. ولكنها استعانت بالله وتجلدت وتقدمت حتى وقفت على بضعة أذرع منه وأطرقت . وكانت قد ضفرت شعرها ومشّطته وغيّرت ثوبها تأهبا للسفر . فرأى رودريك فيها ما زاد شغفه بها ، وتضاعف ذلك الشغف حين نبّه الخمر غرائزه ، فخاطبها وهو لا يزال جالسا وقد مد ساقيه وبسط ذراعيه على الوسائد فى الجانبين ، فقال : « هل حدّثتك نفسك بشيء جديد ..؟ »

فظلت ساكتة ، ولكنها بالغت فى الاطراق ..

فأعاد السؤال وقد توكأ على ركبتيه كأنه يتحفز للنهوض فقال : « أجيبى يا فلورندا ... يظهر أنك أدركت السعادة التى أدعوك اليها . وبخاصة اذا علمت أنى أنقذتك من يدى ذلك الغلام الذى كان يغريك على حبّه وهو لا يحبك ولا يستحق قلبك .. »

فلما سمعت ذلك خافت أن يكون قد دبّر شرا لألفونس فرفعت بصرها اليه ، وتفرست فيه كأنها تستكشف مبلغ ظنها ، ولكنها ردت بصرها عنه لأنها توسمت فى عينيه معنى ارتعدت له فرائصها . رأت شيئا لو سئلت عنه ما استطاعت أن تسميه بغير « الشر » ، ولكنها عادت الى الاطراق وفى خاطرها أن تسمع منه ما يظهر الحقيقة ، فاذا هو قد وقف بسرعة وتقدم نحوها ، وقال

وهو يلاعب شاربه بين الابهام والسبابة ثم يسرح لحيته بأصابعه : « لماذا لا تجيبيننى كأنك تخجلين من الندم بين يدى الملك .. لقد سامحتك على ما مضى » .. قال ذلك ويمناه مرفوعة كأنه يهمّ أن يلقيها على كتفها تحببا

أما فلوروندا فلما رأته يدنو منها تقهقرت ورفعت ذراعيها تتحاماه ، ونفرت منه كأنه ذئب كاسر يهم بافتراسها . فتراجع رودريك وأظهر الاستغراب وهو يقول : « ما بالك تنفرين كأنك تخافين الأذى ، وأنا انما أتقرب اليك وأبغى رضاك ... »

وكانت فلوروندا لا تزال فى ريب من أمر ألفونس ، فأرادت أن تتحقق من ظنها .. وكانت الأمطار قد اشتد تساقطها ، واختلطت أصواتها بأصوات المياه المنحدرة من الميازيب وهبوب العواصف وقصف الرعد ، وفلوروندا فى غفلة عن كل ذلك لشدة ما قام فى نفسها من الخوف ، على انها لما أرادت أن تخاطبه تنبهت ، فوجدت كل ذلك يحول بين صوتها المنخفض وأذن رودريك ، فقالت بصوت عال لكنه مرتعش : « قد قلت لمولاى الملك ان هذا الموقف ليس موقفى ، وان الله قد جعل نصيبى سواه ... »

فقال لها : « كأنك لم تفهمى كلامى . قلت لك ان الغلام الذى تقولين عنه انه نصيبك قد مضى ولا سبيل اليه ... »

فلما سمعت قوله ، توهمت آنه قتله .. فصاحت فى ذعر وهى ترتعش وقد أحست كأن شخصا صب ماء يغلى على جسمها :

« ماذا تقول ؟.. ماذا فعلت بألفونس ؟.. ماذا ؟.. ماذا ؟.. هل قتلته ؟ .. »

- ٢٤ -

الاستنجاد

فلما رأى رودريك ما أصابها خاف أن يقضى عليها بغتة وهو يريد استبقاءها لنفسه ولو ساعة ، فقال : « ما هذه البغتة يا فلورندا .. ماذا فعلت بألفونس .. لا .. لم أقتله ولكنه بين يدى وحياته طوع ارادتى اذا شئت قتلته بكلمة واحدة وأنا لا أخطو لذلك الا خطوة واحدة.. يظهر أنك لاتزالين تجهلين من هو الذى يخاطبك ومن هو ذاك الذى تقولين انه نصيبك . نعم انى لم أقتله بل اكتفيت بابعاده ، ولكن اذا بقيت على اصرارك فانى أقتله . واذا ظللت على غيّك بعد قتله أقتلك أنت أيضا ، وأنا الآن لا أسترضيك ولا أستعطفك بعد ما رأيته من وقاحتك ، واعلمى انهذه الساعة هىالحد الفاصل بين تمنعك وبين ما أريد ».
قال ذلك بصوت عال ومشى مسرعا الى باب الغرفة وأغلقه ثم رجع وهو يقول : « فاختارى اذن الباب الذى تريدينه واخرجى منه » . ثم ألقى بنفسه على المقعد وهو يلهث من الغضب كأنه ثور يخور ، وقد زادت عيناه احمرارا وأوداجه انتفاخا

أما فلورندا فلما سمعت تصريحه بالمنكر ، وثبت لديها قرب

الخطر ، التفتت الى ما حولها كأنها تفتش عن ضائع أو تستنجد برفيق .. فعلت ذلك وهى لا تعلم لماذا فعلته ، وهمّت بالجواب . فقطع رودريك كلامها قائلا : « عمَّن تبحثين ؟ اننا فى غرفة ليس معنا ثالث . وليس على وجه الأرض من يستطيع أن يحول بينى وبين ما أريد .. فاقبلى طائعة ، فانه أحفظ لحياتك وأدعى الى سعادتك » ..

وكانت فلورندا حين سمعت قوله : « وليس معنا ثالث » قد تذكرت ما كانت تقرؤه وتسمعه من آيات الكتاب المقدس : وأن من يتوكل على الله لا يفشل ، وان الله موجود فى كل مكان . وقد تقدم أن فلورندا كانت من أقوى الناس ايمانا ، فأحست للحال باطمئنان وكأنها محاطة بزمرة من الملائكة يحرسونها ، وتشجعت ونظرت الى رودريك وهى تتفرس فيه ، وقالت : « تزعم أننا منفردان وأن الجو خال لك ، وقد فاتك أن الله موجود فى كل مكان ، لايدع لأحد سلطانا يغلب سلطانه ، ثم انى سمعتك تهددنى بالقتل .. فاقتل ، ثم اقتل .. اقتلنى فانى لا أبالى بحياتى . ولكن أتوسل اليك أن لا تمس ألفونس بسوء .. آه يا الفونس .. » قالت ذلك وقد خنقتها العبرات ، وأطلقت لنفسها عنان البكاء

فلما سمعها رودريك تبكى لم يزدد الا حنقا ، وبخاصة بعد أن سمع ذكر ألفونس . على أنه لما رأى توبيخها وثباتها مع شدة تعلقها بحبيبها ورغبتها فى بقائه ، تراءى له أن يعرض عليها استبقاءه فقال : « اذا كانت حياة ألفونس تهمك بهذا المقدار ، فانى اكراما

لعينيك أبقيه وأرقّيه وأجعله من أسعد أهل طليطلة .. ولايكلفك ذلك الا أن تقلعى عن عنادك »

فابتسمت استخفافا بذلك الرأى ، وقالت : « ان الأمر الذى يرضيك منى أن أبذله انما هو أثمن ما لدى فى هذا العالم .. أثمن من حياتى .. بل أثمن من ألفونس .. من الفونس نفسه ، لأنى بدون ذلك الاكليـل المجيد ، بدون تلك الجوهرة الثمينـة ، لا أستحق نظرة من ألفونس ولا من سواه .. بل أنا لا أساوى شيئا . وهل تظننى ــ لولا ذلك ــ أستطيع مخاطبة الملك بهذه الجرأة ؟ » ..

فرأى رودريك أنها تطيل الجدال ، وهو لا يجد ما يدفع به حجتها ، ولا هو يريد الاقتناع بقولها ، لأن ميوله البهيمية غلبت على عقله وارادته ، وقد يكون ــ وهو يجادلها ويراودها ــ مقتنعا بأنه يلتمس أمرا منكرا ؛ وأنها محقة فى توبيخه . ولكنه لا يملك عنان شهواته .. وفى هـذا الموقف الحد الفاصل بين الفضيلة والرذيلة.. لأن الناس يتشابهون فى ميولهم الجسمانية ، وفى تمييزهم بين الفضيلة والرذيلة . ولكنهم يتفاضلون بقوة الارادة على كبح الشهوات والعمل بما يقتضيه الضمير فى مثـل ذلك الموقف .. وأقربهم الى الفضيلة أقواهم ارادة . فأهل النزاهة والعفة لا يفضلون سواهم بالتمييز بين الخير والشر ، ولا يفهمون من معنى الفضائل والرذائل أكثر مما يفهم سواهم . ولكنهم يفضلونهم بالقدرة على ضبط عواطفهم برهة قد لاتزيد على بضع دقائق . فاذا استطاعوا

ضبطها حفظوا كرامتهم طول العمر وعاشوا فى راحة وسعادة ، يدل على ذلك أن الذين يعجزون عن كبح شـــهواتهم فيستسلمون لأهوائهم لا يلبثون أن يندموا حين لا ينفع الندم

— ٢٥ —

اليأس

وكان رودريك مع قوة بدنه ضعيف الارادة ، فلما سمع تقريع فلورندا أدرك خطأه .. ولكنه تجاهل وتعامى وتصامم وعاد الى المغالطة فأظهر الغضب ووقف بغتة ، وقال لها : « أراك تريدين المدافعة بغير فائدة ، ولم يبق لى صبر على أقوالك.. ألا تشعرين بما تعرضين نفسك له من الخطر ؟.. ومع ذلك فما لا يمكن أن تناله برضاك لابد منه برغم أنفك» قال ذلك ودنا منها وقبض على ذراعيها ويده ترتعش، فاقشعر بدن فلورندا وأحست كأنه ممسك ذراعها بقبضة من حديد فصاحت : « ويلك يا ظالم .. تبا لك يا فاسق .. ألا تخاف يوم الحساب ، ألا تخاف الله .. قبّح الله ملكا يتولّى انصاف المظلومين وهو أكبر الظالمين . ولعن الله رجلا يزعم انه أقيم لكبح جماح المتمردين ، وهو لا يقوى على كبح شهواته » . ثم أرسلت بصرها نحو السماء ورفعت يدها الأخرى ، وقالت : « اليك أتوسل أيها المخلص الحبيب .. وأعوذ بك من هذا الظالم الخائن »

وكان رودريك فى أثناء ذلك يحاول أن يمسك بيدها الأخرى وهى تحاول التخلص منه ، فاقترب فمه من وجهها فاشتمّت رائحة الخمر ، فهمّت أن تقول شيئا ، فاعترض قولها رعود قاصفة ، توالت بضع ثوان أعقبها صوت صاعقة انقضّت بالقرب من ذلك المكان فارتج لها القصر من أساسه ، ونفـذ وميض البرق من شقوق النوافذ كأنه حراب من نار . فكان لتلك الحركة تأثير شديد على نفس رودريك شغله لحظـة عن فلورندا ، وتولاه الرعب لأنه توهّم لأول وهلة أن القضاء يتهدده .. كما يفعل بعض الذين يربون فى مهد الدين ، فيعتقدون أن الأقدار تراقب حركاتهم وسكناتهم وأن الطبيعة لا تعمل عملا الا وهى تتعمّد به خيرهم أو شرّهم ، اما ثوابا على حسنة ، أو عقابا على سيئة . وربما اعتبر بعضهم العمل الواحد تارة ثوابا وطورا عقابا تبعا لما يوحيه اليه ضميره . والضمير يندر أن ينخدع الا أن يكون قد مات بتوالى ارتكاب المنكرات أو غلب عليه تيار الشهوات ، كما أصاب رودريك لما سمع قصف الرعد وانقضاض الصاعقة ، فانه تهيّب لأول وهلة، وامتقع لونه واختلج قلبه.. ولعله ندم وعوّل على الرجوع عن قصده . على أن ذلك الخاطر لم يمر فى ذهنه الا مرور البرق الى ما كان عليه

وأما هى ، فانها اغتنمت تلك الفرصة ونزعت يدها من يده ، وقد اعتبرت انقضاض تلك الصاعقة نصـيرا لها عليه ، اجابة لصوت دعائها ، فالتفتت اليه وهى تقول : « ألا تعلم أن فى الكون

من ينتصر للضعيف على القوى .. ألا يستطيع ذلك الجبّار أن ينزل عليك وعلى قصرك صاعقة تذهب بكما الى الفناء العاجل؟»

فأفحم رودريك لمّا رأى الأقدار تزيد حجّة فلورندا عليه ، ولكنه اعتبر نفسه فى موقف انتقام ، ولم يزدد الا تماديا فى غرضه فتقدم اليها وقبض باحدى يديه على كتفها ومد يده الأخرى ليقبض على يدها ثم يرفسها بقدمه ...فتشددت هى وجذبت نفسها من بين يديه ، فأفلتها بالرغم عنه لأنه لم يكن قد أمسكها بكل قوته.. فلما أفلتت منه اشتد غضبه ، فهجم عليها هجوم الثور وهو لا يبالى بما يكون من أمرها

فلما رأته فلورندا قد هجم عليها والشرر يتطاير من عينيه لفرط غضبه أيقنت بالخطر العاجل ، فعولت على الانتحار قبل وصوله الى ما يريد ، فجثت على ركبتيها ورفعت بصرها الى السماء كأنها تستغيث .. وهى لاتزال الى تلك اللحظة تعتقد ان العناية الالهية لاتتخلّى عنها . ولكنها لما رأت رودريك يكاد يصل اليها ، أسرعت هى فقبضت بكلتا يديها على عنقها وهمّت أن تخنق نفسها وهى تقول : « الموت .. الموت خير من العار .. اليك أسلّم روحى يا مخلّصى الحبيب » . قالت ذلك وضغطت على حنجرتها فانحبس الدم فى وجهها وجحظت عيناها ، فعمد رودريك الى رفع الضغط فأمسك بيديها وشدهما فأبعدهما عن عنقها ، وكانت قد خارت قواها فسقطت ، وقد استرخت عضلاتها واستلقت على ظهرها لا حراك بها ..

- ٢٦ -

رشّوها بالماء

فلما شاهدها رودريك فى تلك الحالة تنبهت فيه الحاسة البشرية لحظة ، وعمد الى تلطيف ما بها فجثا بجانبها وأمسك يدها وأنهضها يريد اجلاسها لتصحو من غيبوبتها .. فاذا هى لا تزال مغمضة العينين مسترخية الأعضاء فخفق قلبه وتحرك ضميره ، وتوهّم انها ماتت أو كادت تموت ، فتركها وأسرع الى الباب لعلّه يجد ماء فيرشها به . ففتح الباب وتوجه الى حجرة فلورندا ، فاستقبلته العجوز وهى خارجة من الحجرة وقد بغتت منذ سمعت فتح الباب ، لأنها كانت لاتزال الى تلك اللحظة جاثية تصلّى وهى تطلب نجاة فلورندا من هذا الخطر . وكانت وهى مستغرقة فى الصلاة لا تسمع شيئا مما حولها ، وقد أقفلت النافذة المطلّة على النهر لتحجب عنها العواصف ، فلم تتنبّه لقصف الرعد وهبوب الرياح الا كما يشعر الراقد بصوت يسمعه بين اليقظة والمنام . ولكنها حين سمعت فتح الباب تنبّهت كأنها استيقظت من نوم ، وهرعت نحو الباب فاستقبلها الملك والبغتة بادية على وجهه وقال : « ائتّى بكوب من الماء .. اسرعى حالا .. » قال ذلك وعاد الى الغرفة ، فتبعته العجوز بالكوب وركبتاها ترتعدان من الخوف على فلورندا . فدخل رودريك وهو يقول للعجوز : « رشيها بالماء » .. فلما رأت العجوز فلورندا ، صاحت : « فلورندا ..

ما الذى أصابك ؟.. » وأسرعت فرشّتها بالماء فأفاقت وجلست للحال وهى تنظر الى ما حولها ، فلما رأت رودريك صاحت : « ويلاه انى لا أزال حيّة ، ولا يزال هذا الشرير أمام عينى .. كنت أحسب أنى نجوت منه بالموت .. »

أما رودريك فأغضى عن ذلك ووجّه خطابه الى العجوز قائلا : « أرأيت ما الذى فعلته فلورندا بنفسها لطيشها وغرورها ؟ .. أعرض عليها السعادة فترفضها .. »

فلم تجد العجوز جوابا غير البكاء لأنها توهّمت أن نجاة فلورندا مستحيلة ، على انها لم تجد سبيلا غير التزلف ، فجثت أمام رودريك وقالت ودموعها تتساقط : « أتوسل الى مولاى أن يرفق بهذه الفتاة المسكينة ويتركها وشأنها ، فان فى قصره وتحت أمره مئات مثلها »

فاستاء رودريك من قولها وكان يتوقع مساعدتها ، فرفسها بقدمه وهو يقول : «ابعدى عنّى ياعجوز النحس..وانت أيضا؟» فخرجت العجوز وقد تذكرت الموعد الذى حدده لهما ألفونس ، فقالت فى نفسها : « لعل مع ألفونس رجالا يصعدون الينا فينقذونها من بين يديه بالقوة » فهرولت الى الحجرة وفتحت النافذة قليلا فعصفت الريح فى وجهها وبلّها المطر ، ونظرت الى جهة النهر فلم تجد نورا مثلثا ولا غير مثلث ، فأغلقتها وعادت الى الصلاة ..

أما رودريك ، فأقفل الباب وعاد الى فلورندا وهى لا تزال

جالسة على البساط في الغرفة ، وقد استراحت وعادت اليها قوتها وتصاعد الدم الى وجهها ، فعاد اليه الاشراق ، ولكن الكآبة ظلت غالبة على محياها . فدنا رودريك منها وهو يمد يده الى منطقته ثم أخرجها وهو قابض بها على خنجر يبرق فرنده كأنه يقطر سما وبيده الأخرى شيء كالخاتم يلمع ثم مد يده اليها وهو يقول : « لقد نفد صبرى يافلورندا فها أنا أعرض عليك السعادة لآخر مرة فاما أن تقبليها ، وهذا خاتمي عربون على ذلك ، واما أن أغمد هذا الخنجر فى صدرك فى هذه اللحظة .. أجيبى حالا .. »

فنهضت للحال وتصدرت له وهى تقول : « اغمده .. اغمد خنجرك فى صدرى وأرحنى من هذه الحياة ، وياحبذا الموت الذى ألقى به وجه ربّى بريئة طاهرة .. اقتل يارودريك .. اقتل »

فقال لها : « أمعنى الفكر ولا تظنى انى أقول ذلك لمجرد التهديد ، انّى فاعله حالا . وان تعقلت وحققت رغبتى أخذت هذا الخاتم عربون محبتى لك ، وكنت أسعد بنات طليطلة »

قالت : « وانت لاتظن انى أقول ما أقوله مزاحا.. فانى لاأرهب الموت فداء عن العفاف والطهر .. الموت خير لى ، الا اذا رجعت الى رشدك وندمت قبل فوات الفرصة ، لأنك نادم على أى حال . فاذا ندمت بعد ارتكاب هذا المنكر لاينفعك ندمك شيئا . واذا قتلتنى فانك تندم على قتل فتاة بريئة طاهرة لا ذنب لها الا اصرارها على العمل بوصية الله .. » ثم حولت وجهها نحو السماء وقالت : « يا أيها المخلص المجيد .. ربّى والهى .. الا كشفت لهذا

الرجل فظاعة ما هو مقدم عليه .. أقشع غشاوة الجهل عن عينيه »

فضحك رودريك ، وقطع كلامها قائلا : « أظنك تتوقعين قصف الرعد ووميض البرق جوابا على كلامك كالمرة الماضية .. لسنا فى عصر المعجزات .. »

– ٢٧ –

خطوات غريبة

وفيما هو يريد اتمام كلامه ، وقد أشهر الخنجر بيمينه كأنه يهم بأن يطعنها به ، سمع وقع أقدام غريبة فى دهليز القصر .. فأنصت فسمع تلك الخطوات تقترب من الغرفة وهى تسرع ، فخفق قلبه واقشعر بدنه ، وعاد اليه الاحساس الدينى الذى ربّى فيه .. فخيل له أن الله استجاب لدعاء فلورندا ، فأرسل بعض ملائكته لانقاذها ، لأنه يعتقد أن البشر لا يستطيعون الدخول الى قصره فى تلك الساعة .. واذا دخلوه فلا يجرؤ أحد على الوصول الى هذه الغرفة والأبواب موصدة والأوامر صارمة

قضى رودريك وفلورندا لحظات قليلة فى حيرة ، وهما واقفان وأبصارهما شاخصة نحو الباب ينتظران ما يكون ، وفلورندا ترتعش تخشعا وبغتة . وأما رودريك فانه رد الخنجر الى مكانه ، ومشى الى الباب وهو لا يزال يسمع خطوات القادم تقترب .. وقبل الوصول الى الباب سمع قارعا يقرعه قرعا عنيفا ارتجت له

جوانب القصر وارتعدت فرائص رودريك ، ثم أسرع الى فتحه . ولا تسل عن دهشته واضطرابه لمّا رأى أوباس داخلا وهو على ما يعرفه فيه من الهيبة والرزانة ورباطة الجأش.. دخل والماء يقطر من أردانه ..

أما فلورندا فتوهمت لما رأته أنه ملاك يلبس ثوب أوباس وظلّت واقفة وقد ملكت البغتة كل جوارحها حتى جف ريقها فى حلقها وأمسكت أنفاسها

أما رودريك فلم يسعه عند رؤية أوباس الا اظهار الدهشة من جرأته الى هذا الحد ، فقال له : « ما الذى جاء بك الى هنا فى هذه الساعة ؟.. وكيف دخلت هذا القصر بغير استئذان ..؟ »

فأجابه اوباس ، وهو لايبالى ، كأنه يخاطب غلاما : « أما الذى جاء بى فهو أمر يهم المملكة سأعرضه عليكم . وأما دخولى بلا استئذان فجلالة الملك يعلم ان أمثالنا لايستأذنون فى الدخول على الملوك أو مخاطبتهم ، وهم يخاطبون الله بلا استئذان .. »

ففهم رودريك أنه يعرّض بسلطة الاكليروس وبخاصة الاساقفة فانهم هم الذين أجلسوه على الكرسى . ولكن أوباس لم يكن منهم للأسباب التى قدمناها . فساءه ذلك التعريض ، ولكنه كان يشعر أنه ارتكب ذنبا عظيما ، والمذنب يغلب عليه الضعف والارتباك ولو كان ملكا ولا سيما بين يدى رجل مهيب مثل أوباس . فعمد رودريك الى تغطية ذنبه بالمغالطة وقد عوّل على أن يصرف أوباس ثم يعود الى فلورندا فقال له : « انتظرنى فى



« اما رودريك فانه رد الخنجر الى مكانه ، ومشى الى الباب وهو لايزال يسمع خطوات القادم تقترب . وقبل وصوله الى الباب سمع قارعا يقرعه قرعا عنيفـا .. »

الدار العامة ريثما آتيك .. »

قال أوباس : « لو كان الأمر الذى جئت من أجله يحتمل الانتظار ما جئتك فى هذا الليل تحت سيول الأمطار » قال ذلك ومد يده نحو فلورندا وهو يظهر انه يخاطب الملك وقال : «واذا فتحت النافذة المطلة على النهر تحققت الأمر الذى قلته لك ؛ ورأيت الأمطار بل الثلوج تتساقط .. فلو لم يكن مجيئى لأمر ذى بال ما عكرت على الملك راحته . انى لا أخرج من هذا المكان الا معك » ..

وكانت فلورندا كلها آذان وعيون لما يقوله أوباس أو يشير اليه ، فلما سمعت ما ذكره عن النافذة أدركت أنه يشير الى الموعد المضروب لانقاذها ففرحت

أما رودريك فالتفت الى فلورندا وأشار اليها أن : «اذهبى الى غرفتك ريثما أعود » وخرج مهرولا وأوباس لا يغيِّر مشيته ولا يكترث بانهماك الملك واستعجاله . فلما وصل رودريك الى آخر الدهليز تأمل الباب ، فرآه مفتوحا فتذكر أنه نسيه بدون أن يغلقه . فلما خرج أوباس عاد الملك وأغلق الباب وراءه كأنه يحاذر أن يختطفوا فلورندا من بين يديه ، ومشى أوباس لا يكترث بتلك الحركات حتى وصلوا الى الدار العامة حيث ينعقد المجلس عادة فجلس ودعا اوباس الى الجلوس ، فقال : « ان الأمر الذى جئت من أجله لا يصح ذكره فى هذه القاعة »

فاستغرب رودريك جوابه وقال : « وأين اذن ؟ .. »

فقال أوباس : « فى غرفة منفردة على حدة »

فنهض رودريك وقد ساءه هذا التعنت ومشى معه الى غرفة منفردة فيها مصباح نوره ضئيل . فجلس وجلس أوباس بين يديه ورودريك لا يستطيع صبرا عن سماع كلامه فقال : « قل ياحضرة الميتروبوليت »

فقال أوباس : « جئتك بأمر دعانى الله أن أبلغك اياه .. »

فأنصت رودريك وأرهف السمع الى ما يقوله . فقال أوباس بصوت هادىء على جارى عادته : « ان الله خوّلك سلطانا على الناس تحكم فيهم وتنصف مظلومهم وتضرب على أيدى الظالمين ، فلا تتخذ ذلك السلطان وسيلة الى ما يغضبه » ..

فبغت رودريك لما فى خطاب أوباس من التوبيخ وقطب حاجبيه اشارة الى استهجانه تلك الجسارة وقال : « هل عندك كلام فى غير هذه الشئون ؟.. »

فأدرك أوباس انفعاله وانه انما يريد تحقيره ورد التوبيخ اليه فلم يقبل منه ذلك فقال : « لعلك تظن ما أقوله وهما أو ليس هو بالأمر الهام »

فقال رودريك وقد ظهر الغضب على وجهه : « لا أرى ما يسوغ لك الاعتراض على أعمالى فى داخل قصرى ، فاذا كنت تعلم أمرا يتعلق بالحكم بين الناس أو بالأمن العام أو بسياسة البلاد فتكلم به »

فابتسم أوباس باستخفاف وقال : « ألا تعلم أيها الملك أنك

مسئول عن كل حركة تتحركها فى منزلك أو فى الخارج ؟.. وأن الصعاليك أقرب الى الحرية فى تصرفاتهم من الملوك ؟.. انك مؤتمن على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم ، وقد أعطاك الله هذا السلطان لصيانتها والدفاع عنها.. أفتتخذه وسيلة لسلبها ثم تتولى سلبها بنفسك ، واذا جاءك ناصح انتهرته واحتقرته ؟.. هذه أشياء لا تتفق وأخلاق الملوك المؤمنين »

فأعظم رودريك تلك الجســارة وازداد حنقا لرزانة أوباس ورباطة جأشه وقال : « هل كان أخوك المرحوم أقرب الى تلك الأخلاق منى ؟.. »

— ٢٨ —

التمتمة

ففهم أوباس أنه يعرّض بضياع المـُلك من أيديهم تحقيرا له ، فلم يصبر على ذلك ، فقال وقد ارتفع صوته ولكنه ظل هادئا : « دعنا من ذكر الأموات فلهم من يحاسبهم وانما نحن نحاسب الأحياء . على انى ما أظن غيطشة اذا كان حيا يفعل مثل فعلتك .. بل أنا أجله عن الاقدام على مثل هذا المنكر »

فوقف رودريك من شدة الغضب وقال : « دع عنك ذلك كله فما هو من شأنك لأنى أعلم الناس بواجبى .. » قال ذلك وتحوّل عنه اشارة الى رغبته فى انهاء الحديث

فظل أوباس جالسا وقال : « لو كنت تعرف واجبك ما أردت

السوء بفتاة طاهرة وأنت زوج . وبدلا من أن تستغفر عن هذه الخطيئة أراك تدافع عنها »

ثم وقف وأتم كلامه قائلا : « واعلم يارودريك ان انشغالك بهذه الأمور واهمالك كلمة الله ووصاياه من أول الأدلة على قرب انقضاء هذه الدولة »

فلما سمع رودريك تهديده بقرب انقضاء دولته التفت اليـه وهو يقول : « أراك تهددنى بخروج المـلك من يدى . انكم لن تستطيعوا ذلك ولو ملأتم الدنيا مؤامرات ، واستعنتم بقوات السماء والأرض »

قال أوباس : « اذا كان لنا مطمع فى هذا المـلك ، فان قوات السماء تقدر على نزعه من يدك .. »

ولم يتم أوباس كلامه حتى رأى باب الحجرة قد انفتح ودخل الأب مرتين بغتة وهو يهرول ويتمتم كأنه يريد الكلام ويمنعه التلجلج من شدة التأثر . ثم نطق فخرج كلامه مقطّعا موصّلا مختلطا يشبه قوله : « ت .. ؟ ت .. ؟ ت .. ؟ تهدد جلالة الملك .. ب .. باخراج المـلك من يده ..؟ يا للوقاحـة وق .. ق .. قلة الأدب .. » ولم يتم الأب هذه الجملة حتى امتلأت لحيته باللعاب المتطاير من فمه . فلما فرغ من الكلام تشاغل بمسح لحيته وجعل يذرع أرض الغرفة بسرعة وهو مطرق ولا يزال يتمتم

فأدرك اوباس انه يتهمه زورا ليوقع الشبهة عليه فسكت استخفافا ..

وأما رودريك فانه سر لهذه التهمة وتظاهر بالغضب والاقتصار وقال : « لابأس ، يكفى الآن ما سمعناه من خير وشر » . قال ذلك وتحوّل من الغرفة فتبعه الأب مرتين . فنهض أوباس وهو لايبالى بما رآه وانما كان كل همّه انقاذ فلورندا من بين يديه

وكان السبب فى مجىء أوباس الى القصر، وكيف دخل، هو انه لمّا دنت الساعة المعينة جاء أجيلا وشنتيلا الى منزل أوباس فأمرهما باعداد قارب للنزول به فى النهر ، فنزلوا به فتساقطت الأمطار وعصفت الرياح واضطرب الجو فهاج النهر ، ولكنهم لم يبالوا بذلك بل عدوه — بادىء الرأى — مساعدا لهم على اخفاء خطواتهم ، فوصلوا تحت القصر وفلورندا فى الغرفة مع رودريك وخادمتها فى الحجرة تصلّى ، وقد أغلقت النافذة فصعد الشابان ومعهما أوباس لايبالون بالأمطار والزوابع حتى وقفوا تحت حجرة فلورندا عند تلك الشجرة الجرداء ، ولم ينتبه لهم أحد من الحراس ولا الحاشية . فأشار أوباس الى شنتيلا أن يتسلق الشجرة ويقرع النافذة ، فتسلق حتى وقف على الغصن المقابل للنافذة فقرعها بطرف حسامه قرعا خفيفا ثم اشتد القرع ولكن أحدا لم يجبه ، لأن العجوز كانت قد خرجت بكأس الماء لترش فلورندا .. فنزل شنتيلا وأخبر أوباس بأنه لم يسمع جوابا

فوقف اوباس برهة يتأمل، وقال فى نفسه : « لوكانت فلورندا مطلقة السراح لم يكن ليشغلها عن هذه النافذة شاغل ، فلا بد من أن تكون فى ضيق ولا بأس عليها الا من رودريك » فتخيّل

أنها فى أشد الخطر وأنه ان تأخر عنها قد يقضى عليها ، فأمر الرجلين أن يربطا القارب بجانب القصر ، ويمكثا تحت القصر وحين يسمعان فتح النافذة يصعدان على الشجرة ويحملان فلورندا وما معها ..

قال لهما ذلك وتحول الى باب القصر العمومى ، وسأل الحراس عن الملك فقالوا انه فى القصر ، فدخل ولم يعترض طريقه أحد لأن الأساقفة كثيرا مايدخلون على الملوك لمهام خاصة ولاسيما ملك طليطلة ، لأن الاكليروس كانوا أكثر تدخلا فى شئون اسبانيا مما فى سائر ممالك أوربا تقريبا ، وعلى الأخص على عهد رودريك لأنه انما تولّى الملك بمعونتهم ..

نعم ان أوباس لم يكن من الذين انتخبوه ولكن الحراس الواقفين بالباب لا يهمهم التمييز بين أسقف وآخر ، اذ يكفيهم النظر الى الثوب الاكليريكى والزى بوجه عام . على ان هيبة أوباس تكفى وحدها لاحترامه واطاعة أوامره وبخاصة فى تلك الساعة وقد زاده الاهتمام جلالا ووقارا

دخل أوباس من أبواب القصر الواحد بعد الآخر لا يعترضه أحد حتى وصل الى غرفة الملك ، وكان يعرفها جيدا لأنها كانت لغيطشة من عهد غير بعيد : فسأل الحراس عنه فقالوا : « انه دخل غرفته ولا يدخل عليه أحد فيها »

فلم يبال بأقوالهم ، وكان قد نسيها مفتوحة فدخلها فلم ير فيها أحدا ، ورأى باب الدهليز المؤدى الى قصر فلورندا مفتوحا ،

فدخل ولم يكن فى الدار أحد من الخدم ، فمشى مشية من لا يهاب ملكا وجعل يبحث بنظره ، فرأى تلك الغرفة مضيئة وسمع لغطا فطرق الباب ثم دخل . وهو انما طرق الباب قبل دخوله مخافة أن يكون رودريك وفلورندا فى حالة يقشعر لها بدنه فلا يستطيع امساك غضبه .. والحر أبى النفس يأنف من التجسس ومباغتة الناس فى مخادعهم ، ولو كان فى استطلاع ذلك مصلحة له ..

فلما دخل الغرفة أدرك من مجرد النظر الى وجه فلورندا أنها مصونة سالمة ، فلم يبق الا أن يبعد رودريك عنها ريثما تستطيع الذهاب الى حجرتها وتنجو من هناك ، فطلب الخلوة بالملك على ما تقدم لغرضين : الأول ، اطلاق سراح فلورندا . والثانى : توبيخه على ذلك الأمر العظيم ، وهو لايبالى أأغضبه ذلك أم أرضاه .. ففعل وكان ما كان من غضب رودريك ، وخروجه على تلك الصورة ، وهو ينوى الانتقام وبخاصة بعد أن عاد الى قصر فلورندا ، ولم يجد لها ولا للعجوز أثرا

— ٢٩ —

الانتقام

خرج رودريك من تلك الغرفة وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما ، والأب مرتين يتبعه وهو يتمتم ويهز رأسه على مرأى من الملك اســتغرابا من «وقاحة» أوباس . وكان يظن أن الملك لايفارقه تلك الليلة حتى يتآمروا على الايقاع بأوباس .. ولكنه

ما لبث أن رأى رودريك تحوّل عنه راجعا الى غرفته ، فجلس هو على مقعد فى احدى طرقات القصر لا بد للملك — اذا عاد — أن يمر بها فلما أبطأ الملك سار مرتين الى غرفته

وأما رودريك ، فانه رجع الى قصر فلورندا وفؤاده يتقد حنقا وكيدا . ولا تسل عن حاله حينما لم يجد أحدا فى كل ذلك القصر ، ورأى حجرة فلورندا مشوشة بما حمل منها من الأدوات خفيفة الحمل غالية الثمن ..

رجع رودريك الى غرفته وهو يكاد يتميز غيظا ، وبعث الى قيّم قصره فى تلك الساعة فجاءه . فابتدره الملك بالسؤال عمن خرج من ذلك القصر فى تلك الليلة . فاهتم القيّم بالأمر وسأل الخدم ، فقالوا : انهم يقيمون فى الطبقة السفلى ولا يؤذن لهم بالصعود الى فوق مطلقا ، وهم على ثقة بأن باب القصر لم يفتح فى تلك الليلة وانهم لم يروا أحدا خارجا من مكان آخر لأن الظلام كان مخيما ، وقد منعهم سقوط المطر وهبوب العواصف من الانتباه لما يحدث فى الخارج . فسألوا الحراس فكان عذرهم انشغالهم بالزوابع والعواصف عن كل شاغل . وأخيرا بحثوا فى الطريقة التى يمكن الفرار بها ، فاذا هى من النافذة المطلة على النهر ورأوا على نواتىء الأغصان اليابسة تنفا من الفرو تناثر من أهداب قباء فلورندا

فتحقق رودريك عندئذ أن أوباس ساعدها على ذلك الفرار فحمى غضبه عليه ، وعزم على الايقاع به ، فعاد وقد أنهكه التعب

وأثّر الفشل فى نفسه ، فأحس كأنه أفاق من سكرة ، وأحب الخلوة فآوى الى فراشه ولكنه ظل يتقلب على مثل الجمر ، ولم يستطع نوما وقلبه يتقد حنقا من اوباس ، فلم يرَ ما يفرج كربته الا باستدعاء مرتين ، وهو مستودع أسراره ، فنهض من الفراش حتى لقى أحد الحراس الواقفين ببابه فأمره أن يستقدم الأب مرتين على عجل ولو كان فى فراشه

فذهب الحارس الى غرفة مرتين وطرق بابها ، وكان قد خلع ثيابه وتدثّر بقميص النوم وجلس فى الفراش وبدأ بصلاة النوم . فوقف الرجل خارجا حتى فرغ الأب من الصلاة ثم دخل عليه وأبلغه أمر الملك باستقدامه . ففرح لعلمه أنه لم يدعه الا للايقاع بأوباس ، فنهض فى الحال وهو لايزال بذلك اللباس ، وتزمّل فوقه برداء واسع من الفرو . ولم يضع القلنسوة على رأسه وكان شعره منفوشا أبيض كأنه كتلة من القطن فوق رأسه . ومشى حتى دخل على الملك ، وكان رودريك أيضا فى نحو ذلك من المظهر الغريب بعد أن تقلّب فى الفراش ، وقد اختلطت ضفائر رأسه بشعر لحيته وشاربه ، واثر الغضب والفشل فى سحنته .. فلما دخل مرتين عليه شعر بارتياح لرؤيته فنهض لاستقباله ، وقبّل يده ودعاه للجلوس بجانبه فجلس وهو يقول : « أرجو أن يكون جلالة الملك قد دعانى لأمر يسره »

فقال : « لا أظنك تجهل السبب الذى دعوتك من أجله .. وقد كنت فى هذا المساء ترى وتسمع ما كان من أوباس .. »

فرأى مرتين أن يتملق الملك ، فقطع كلامه قائلا : « انها وقاحة غريبة وليس أغرب منها الا صبر جلالة الملك عليها .. »

فقال رودريك : « انها فى الحقيقة وقاحة لم أكن أتوقعها من قوم قد أذقناهم الذل وأخذنا الحكم من أيديهم .. ألا يخاف أوباس من غضبى .. ؟ »

فقال مرتين : « أظن أن جلالة الملك لم ينتبه لفحوى أقواله . وأوباس مشهور بقلة الكلام وكثرة التفكير، واذا قال كلمة يجب التمعن فى فحواها لأنه لايتكلم عن هوى ولا يلقى الكلام جزافا . ألم تسمع قوله لجلالتكم : « اذا كان لنا مطمع فى الملك فان قوات السماء تقدر على اخراجه من يدك » انها جسارة غريبة تدل على ما يعده من الشراك والمكايد .. ولا أظنه الا محاولا أن يعقد المجالس السرية ويتعاون مع الأعداء على خلع الملك . ولكنه سيبوء ــ ولا محالة ــ بالخيبة ... »

وأحس رودريك عند سماع هذا التعليل بارتياح لأنه اكتشف بابا لاتهام أوباس ، والقبض عليه وعلى من فى منزله لعله يجد فلورندا بينهم ، وقد غلب على خاطره انها فرت الى هناك اذ ليس لها من الأقارب أحد ، فقال : « ما الرأى ياحضرة الأب فى هذا الخائن ؟ »

قال : « الرأى أن تقبض عليه حالا فى هذه الساعة قبل أن يتأهب أو يدس الدسائس .. لأنه خرج من قصرك وهو يهددك .. فلا تكن هينا .. والحلم فى هذا المقام ضعف .. »

ولم يكن رودريك فى حاجة الى هذا التحريض ، وهو أكثر رغبة فى ذلك ، ولكنه زاد على رأى مرتين أن يقبض على أهل بيته أيضا ويسوقهم الى السجن لعلّهم يكشفون عن دسيسة جديدة فقال : « ائتنى بقائد الحرس الملكى »

فخرج مرتين وأمر بعض الحرس باستقدام القائد وعاد الى غرفة الملك ..

— ٣٠ —

أوباس فى قصره

أما أوباس ، فانه لما خرج الملك من بين يديه ، نهض وسار على عجل الى منزله لموافاة فلوروندا والخادمين ، وتدبير وسـيلة لاخراجهما من طليطلة ، فلما وصل الى منزله ، سأل الخدم : «هل جاء أحد للسؤال عنى » فقالوا له : « كلا .. » فانشغل خاطره لاعتقاده انهم كان يجب أن يسبقوه الى هناك لو لم يكن أصابهم سوء أو عاقهم عائق .. فأعمل فكره وعلّل نفسه بقرب وصولهم حتى مل الانتظار فعوّل على الخروج بنفسه للبحث عنهم فى الطريق الذى كان يتوقع أن يجيئوا منه ، ولكنه ما لبث أن سمع ضوضاء ووقع حوافر خيول أمام القصر ، فظنّهم جاءوا على أفراس ، فنهض وأطلّ من شرفة القصر والظلام لايزال حالكا ، فرأى جماعة من الفرسان دنوا من القصر وأحاطوا به عن بُعد ،

ولم يخاطبوا أحدا من أهله . ولم يستطع لشدة الظلام أن يتبين الوجوه ، ولكنه أدرك بفراسته أنهم من رجال رودريك وقد جاءوا لأمر يوجب قلقا . على انه لم يخف على نفســه لرباطة جأشه ولاعتقاده ببراءة ساحته واعتماده على عزيمته وقوة حجته ، ولكنه خاف على فلورندا ورفاقها اذا جاءوا فى تلك الساعة فانهم سوف يقعون فى الشراك لا محالة ..

وأعمل فكره هنيهة فرأى أن المبــادرة الى العمل أجدر به فتحوّل الى غرفته ، فتزمّل بالقبــاء وخرج الى الباب ونادى أقرب فارس اليه فجاءه وترجل وحيّاه باحترام . فقال أوباس : « ما الذى تفعلونه هنا ؟ »

قال : « اننا مكلفون بالوقوف هنا الى الصباح .. »

فقال اوباس : « ومن أمركم بذلك ؟ .. »

***

فسكت الرجل وحوّل وجهه الى جهة أخرى ونادى ضابط تلك الكوكبة ، فجاء وترجل وحيّا أوباس وهمّ بتقبيل يده ، فاجتذب أوباس يده بعنف وقال : « من أمركم بالوقوف هنا وما الغرض منه ؟ »

فقال الضابط : « أمرنا به من ينوب عن الملك .. لماذا أقلقت راحتك وخرجت فى هذا الليل من فراشك ؟.. نم مستريحا » ..

فقال أوباس بنغمته الهادئة : « أفصح ياجندى عن الغرض من وقوفكم هنا أو ارجعوا من حيث أتيتم »

فقال وهو يخفض صوته تهيبا من أوباس : « اننــا مكلفون بالقبض على قداستكم حين تهمون بالخروج من هذا المنزل .. »

فاستشاط أوباس غضبا ولكنه ظل هادئا وقال : « مكلفون بالقبض عليّ ؟.. ومن أمركم بذلك ؟.. »

فقال الضابط : « يعذرنى مولاى فانى مأمور ولا يسعنى الا الطاعة .. اننا مكلّفون من قائدنا الأكبر بناء على أمر جلالة الملك ، فهل نستطيع مخالفة الأمر ؟.. »

فقال أوباس : « كلا ، بل أنا أحرضكم على الطاعة دائما » قال ذلك وأعمل فكره فى الأمر ، وأراد أن يسرع خوفا من وصول فلورندا فى تلك الساعة فقال : « انى خارج الساعة معكم ، ولا حاجة بكم الى الانتظار حتى الصباح »

قال الرجل : « ليس فى الأمر يامولاى ما يدعو الى هذا القلق . فلو مكثت فى منزلك شهرا ما مسسناك »

قال : « بل أخرج الساعة .. هلم بنا .. »

فأشار الضابط الى فرسانه اشارة يفهمونها ، فتجمهروا وأتوا بجواد ركبه أوباس، وساروا به وهو فى وسطهم والجميع سكوت لا يجرؤون على الكلام فى حضرته

***

أما هو فكان فى أثناء الطريق يفكر فى الأمر الذى ساقوه لأجله وقد عزم على الثبات والتعقل . غير أن ذهنه ظل منشغلا بفلورندا

وخشى أن يلتقوا بها فى ذلك الطريق ، لكنهم بلغوا القصر ولم يروا أحدا ..

فلما وصل أوباس الى قصر الملك همّ بالترجل ، فأشار اليه الضابط بأنهم مكلّفون بمرافقته الى مخفر بالقرب من القصر الى الصباح ، ثم قال الضابط : « ولهذا السبب قلت لقداستكم أن تبقوا فى منزلكم الى الصباح ، وأردنا بذلك الحرص على راحتكم » ..

***

ولكن أوباس رأى أنه أحسن صنعا باخلاء الطريق لفلورندا ولو سبب له ذلك بعض الضيق ريثما يلقى الملك ويرى ما يريد . فدخل غرفة فى بيت بجانب القصر وظل الحرس بالباب

قضى أوباس بقية ذلك الليل يذرع تلك الغرفة ذهابا وايابا ، وهو يفكر فيما عسى أن يكون غرض الملك من تلك الدعوة على هذه الصورة . وخطرت له خواطر كثيرة وتهم شتى ربما يتّهمه بها رودريك ، ولكنه سُرّ بما توهمه من نجاة فلورندا ، وأما هو فلم يكن ليخاف موقفا أو يهاب خطرا فى سبيل الحق والحرية .. والرجل الحر لايفزعه موقف ولا يتهيّب من سؤال ، وهو محترم حتى من أعدائه ، الا انه قد يكون فى خطر من دسائس الدساسين أو استبداد الظالمين

- ٣١ -

البــلاغ

وانفرجت الأمور فى عينى أوباس بطلوع الفجر وتبدد جيوش الظلام ، رغبة منه فى الاطلاع على سر هذه الدعوة . ولكن النهار انقضى جانب منه ولم يطلبه أحد فازداد قلقه .. واستدعى رئيس الحراس ، وهو الضابط المنوط به هذا العمل ، فمثل بين يديه .. فقال له أوباس : « وماذا عسى أن يكون آخر هذا الأسر ؟ »

فقال : « لا أدرى ــ يامولاى ــ فعسى أن يكون خيرا . وأنا لو عرفت سر ذلك ما أخفيته عن سيادتكم »

قال أوباس : « انى فى حاجة الى الذهاب لمنزلى ، فاذا لم يكن ثمة ما يدعو للسرعة فى المقابلة ، فأرى أن يطلقوا سبيلى لأذهب الى منزلى ، ثم اذا أراد الملك منى أمرا جئت اليه .. »

***

فنظر الضابط الى أوباس وفى عينيــه خبر يتردد بين كتمانه واظهاره . فأدرك أوباس ذلك فيه فقال : « ما الذى تضمره ؟ .. قل .. »

فقال : « انك اذا ذهبت الى منزلك لا تجد فيه أحدا »

فبغت أوباس وقال : « وكيف ذلك ؟.. »

فقال الضابط : « لأنهم قبضوا على كل من كان فى ذلك المنزل

من الخدم والعبيد ، وهم فى السجن الآن وأبواب المنزل مغلقة »

فلما سمع أوباس قوله تحقق من عزم الملك على الفتك به جهارا ، ولولا رزانته لبدت البغتة على وجهه . ومما زاد قلقه خوفه على فلورندا ، وقد تبادر الى ذهنه أنهم لم يقبضوا على أهل منزله الا لأنهم رأوا فيه فلورندا .. على انه لم يبال بالوقوف على التفاصيل ، فنظر الى الضابط وقال بسكينة وتعقل : « لا ينفعهم ذلك شيئا .. » ثم تحوّل الى الداخل فخرج الضابط الى مكانه ..

وكان ذلك الضابط ممن يعرفون فضل اوباس وعائلته ، ولكنه كان كأكثر رجال الدولة مندفعا مع التيار الأكبر يرى الحق ويقوله ولكنه لايفعله . شأن الدول فى أدوار انحلالها وتقهقرها ، فانها لا تخلو فى أثناء ذلك الانحلال من رجال عقلاء ، يشعرون بما أصاب دولتهم من الخلل وينتقدون أعمال حكومتها فيما بينهم وهم خارج المناصب ، ويزعمون انه لو أتيح لهم الوصول الى تلك المناصب لأدخلوا فى الحكومة اصلاحا كبيرا . فاذا تولى أحدهم الحكم رأى نفسه مندفعا — برغمه — مع تيار الأحوال العامة كما فعل أسلافه . واذا حاول مقاومة ذلك التيار عرّض نفسه للخطر . ويندر أن يطول بقاؤه على عزمه القديم وهو فى منصبه لعجزه وهو فرد عن مقاومة مجرى الأحوال . والدولة انما بلغت تلك الدرجة من الانحطاط بتوالى الأجيال . والبدن اذا ابتلى بالضعف من الهرم لا يترجى عوده الى الشباب . الا أن

يكون المصلح فى أكبر المناصب ، فقد يأتى باصــلاح ذى بال ولكنه يذهب بذهابه ..

وقد كان فى طليطلة كثيرون ممن يرون الخلل المتسرب الى الدولة ، ولكنه لم يكن لهم سبيل الى مناصبها الكبرى . وأما صغار المستخدمين فليس لهم الا التذمر والكظم كما كان شأن ذلك الضابط ..

رجع أوباس الى مقعد فى تلك الغرفة ، جلس عليه واستغرق فى الهواجس حتى مضى بعض النهار . فلما رأى الخادم آتيا اليه بالطعام تحقق أن بقاءه سيطول هناك ، وزاد قلقه فرفض أن يأكل ورد الطعام ، واستقدم الضابط ، وقال له : « انى لا أستطيع أن أتناول طعاما قبل أن أعرف سبب هذه المعاملة ، فهل لك أن تستطلع ذلك من أحد ؟ »

فقال : « أرى يامولاى أن تكتب كتابا أحمله الى مجلس الملك لعلّى آتيك بالجواب الشافى .. »

فأخرج أوباس من جيبــه لوحا مشمعا كتب عليــه بالمسمار ما معناه : «حملنى جندك الىهذا المكان بلا ذنب اقترفته ، والملك يعلم أن رجال الكهنوت لا تجوز معاملتهم على هــذه الصورة ، وانما هم تحت سيطرة الكنيسة ، فلا أدرى سبب هذا السجن . الا أن يكون ذلك من جملة ما نخر فى حياة هذه الدولة »

فحمل الضابط الكتاب وسار به الى القصر . ولم تمض برهة حتى عاد وهو يقول : « ان الأب مرتين قادم لمقابلة قداستكم »

فلم يُسر اوباس لذلك الخبر الا على رجاء أن يعلم منه سبب ذلك الأسر، وقد علم أنه آت بأمر الملك . فظل أوباس جالسا فدخل مرتين مهرولا وهو يتمتم كأنه يتلو بعض الأدعية حتى وقف بين يدى أوباس فحيّاه ، وهمّ كأنه يريد تقبيل يده لارتفاع رتبته الكهنوتية . فلم يبال أوباس بكل ذلك بل ظل ساكتا . فجلس مرتين على كرسى تجاه مقعد أوباس وهو يبتسم ووجهه يتهلل فرحا — ولا يفرح الانسان بشيء أكثر من فرحه بفوزه على عدوّه » ..

وتنحنح الأب مرتين مرارا ومسح وجهه ولحيته غير مرة استعدادا للكلام كأنه يهم بالتلفظ ، ولكن عقدة لسانه كانت تحول دون الافصاح الى أن فتح الله عليه ، فقال وهو يقطّع الكلام :. « قد بعثنى جلالة الملك لأبلّغ قداستكم أنه يعلم امتيازات الكهنة ، وانه لايجوز سجنهم أو محاكمتهم الا فى مجالس كهنوتية ، ولكنه انما أمر بالقبض عليك مؤقتا ريثما يجتمع مجلس الأساقفة وهم ينظرون فى أمرك ... »

فلما سمع أوباس قوله زاد استغرابا ولم يفهم المراد تماما لأن مجمع الاساقفة انما يجتمع مرة فى السنة أو مرتين (١) ولا يجتمع غير اجتماعاته المعينة الا للنظر فى أمور فى غاية الأهمية ،كانتخاب الملك أو البحث فى خطر يتهدد المملكة أو غير ذلك .. واجتماع هذا المجمع يقتضى مكاتبة أساقفة الأقاليم والمطارنة ، مما يستغرق

(١) تاريخ اسبانيا لرومى — الجزء الاول

أياما عديدة.. فأطرق اوباس وأعمل فكره فى هذا الأمر ولم يجب
وكان الأب مرتين قد ثبَّت بصره فى اوباس ليستطلع ما يبدو منه ، وكان يتوقع استياءه وغضبه ليشفى ما فى نفسه ، لأن من يتعمد اهانتك اذا لم ير قوله قد أغضبك شعر بالاهانة ترجع اليه ويشق ذلك عليه . فلما رأى مرتين أن أوباس لايزال كما كان ولم تظهر عليه علامات الاضطراب ، ولا احتد ولا أجاب باعتراض ولا استفهام توهَّم أن ذلك ناتج من عدم ادراكه لخطر الأمر الذى يترتب على ذلك الاجتماع فقال : « ولايخفى علىقداستكم ان جمع الأساقفة يقتضى زمنا طويلا، وأما الآن فلأن أكثرهم جاء الى طليطلة لتهنئة جلالة الملك بعيد الميلاد فان الانتظار لايطول فى جمع المجمع .. فلا تضجر »

***

فظل أوباس هادئا ولم يقل شيئا لأنه كان قد أدرك ذلك من تلقاء نفسه ..

فلما رآه مرتين لا يزال ساكنا رابط الجأش ، جاشت أحقاد صدره واشتد غيظه .. فأراد أن يلمح له بالتهمة الموجَّهة نحوه فقال : « ويسوءنى ياحضرة الميتروبوليت أن تصدر منكم أقوال تدعو الى اساءة ظن الملك بكم كما فعلتم فى مساء الأمس .. فهل يليق بمثلكم أن يهدد جلالة الملك بالخلع ؟.. ولولا وجودى وسماعى ذلك القول بأذنى ما صدقت ، ثم انكم لمحتم بمثل ذلك أيضا فى كتابكم اليه الآن »

- ٣٢ -

توقع المصيبة شر من وقوعها

أدرك أوباس أنهم يريدون محاكمته بتهمة سياسية ضد الملك فاستعظم التهمة ، ولكن باله ارتاح لاطلاعه على حقيقة الخبر ، والانسان يكون أكثر قلقا أثناء انتظار الخبر مما هو بعد سماعه ، ولذلك قالوا : « توقع المصيبة شر من وقوعها » . فلما وقف أوباس على سر الأمر لم ير فائدة من الكلام مع مرتين فى هذا الشأن فضــلا عن أنه يشفى غله بذلك الكلام . فوقف بهدوء ورزانة وقال : « صبرا الى يوم الاجتمـــاع . وكأن رودريك لا يريد أن يبقى عندى شك فى قرب سقوط دولته فزادنى بعمله يقينا بدنو أجلها ... » قال ذلك ومشى ولم يترك للأب مرتين فرصة للجواب ..

أما مرتين فانه نهض بنهوض أوباس وقال وهو يظهر الشفقة عليه : « ألا تزال تقول ذلك ؟ !.. يا للعجب .. كيف يطيعكم ضميركم على المؤامرة ضد الملك وسلطانه وحياته ، وأنتم تعلمون أن الكنيسة هى التى نصبته باجماع أساقفتها ..! »

فأدرك أوباس أنه يريد أن يستدرجه فى الحديث ليضـــاعف التهمة عليه ويشفى غليله منه ، فتركه يتكلم وتحوّل عنه وولّى وجهه الى نافذة تطل على الحديقة

فلما رأى مرتين ذلك منه ضحك وهرول مسرعا نحو البـاب وهو ينادى الضابط ، فلما حضر بين يديه قال له : « يأمرك الملك أن تحتفظ بهذا السجين لأن أمره ذو شأن .. واحذر أن يفلت منك » ..

فأشار الضابط برأسه أن : «نعم..» وخرج الأب مرتين ظافرا منتصرا لولا ما ساءه من رباطة جأش أوباس وتأنيه وصبره . وكان يود أن يرى منه حدة أو غضبا ليوسعه تأنيبا ويشفى غليله منه

أما اوباس فانه عاد الى التفكير ، وهو لايزال مشغولا على فلورندا .. فتذكر الفونس وخروجه بالأمس لقيادة الجند فأراد الاستفهام عن مقره ، فعاد الى الباب واستدعى الضابط فوقف بين يديه ، فقال له : « هل علمت بخروج الأمير ألفونس من طليطلة ؟ » ..

قال : « علمت أن فرقة خرجت من طليطلة بالأمس . ولا أدرى اذا كان الأمير معها أم لا .. »

فرجح أوباس أن ألفونس سافر مع تلك الفرقة .. ولكنه ظل مشغول الخاطر بفلورندا لايدرى ما آل اليه أمرها ، وخشى ان تكون وقعت فى الأسر فى جملة أهل منزله ، وانهم انما قبضوا عليهم من أجلها .. وودّ لو استطاع استطلاع أمرها من أحد ، وحدثته نفسه أن يسأل الضابط ؛ ولكنه خشى عاقبة ذلك .. ولم يخدعه ما بدا من رقّة الضابط وحسن ظنه ، لعلمه ان الذين يطابق ظاهرهم باطنهم قليلون ، وأقل منهم الذين يثبتون على

عزمهم فيما يدعوهم اليه ضميرهم .. فخشى اوباس اذا كاشف الضابط بحديث فلورندا أو تظاهر أمامه بالاهتمام بها أن يبوح بذلك لدى أحد فيتخذوه حجة عليه مع اعتقاده أن الضابط مخلص له ، ولكنه عوّل على سوء الظن واعتبار الناس كلهم جواسيس عليه ..

قضى أوباس فى سجنه بضعة أيام وهو ينتظر اجتماع المجمع ، وفى ذلك الحين لم يتوفق الى سبيل للاستفهام عن فلورندا ، ولا اتفق له سماع شىء عنها فترجح لديه انهم قبضوا عليها وعادوا بها الى قصر الملك .. فلما تصور ذلك اقشعرّ بدنه ونسى الخطر الذى يهدد حياته ..

- ٣٣ -

الموكب

أصبح أهل طليطلة ذات يوم وقد دقت فيها النواقيس وزينت الشوارع ، وبخاصة الشارع الكبير الذى يصل بين قصر الملك والكنيسة الكبرى . واشتغل العبيد بكنس الشوارع وتنظيفها ، ووقف الحرس صفين فى القصر والكنيسة ، وفى أيديهم الحراب وعليهم الملابس الرسمية التى يلبسونها فى الاحتفالات الكبرى . فتساءل الناس عن سبب ذلك وتقاطروا الى الشارع الكبير وأطلوا من النوافذ وأشرفوا من أسطح المنازل يتوقعون مشهدا جميلا

أو منظرا ذا بال ، وكان يومها صحوا تجلت فيه الشمس على أبنية طليطلة ونهرها وبساتينها

وفى الضحى عج الشارع بالضوضاء ، فالتفت الناس فاذا هناك فرقة من فرسان الحرس الملكى بملابس الجندية خرجوا من قصر رودريك ، يأمرون المارة باخلاء السبيل لموكب الملك ، وعلى بضعة عشر مترا وراءهم زمرة من الشمامسة بالملابس الزاهية يتخللها الوشى المذهب ، بعضهم يحملون صلبانا قائمة على عمد ، والبعض يحملون الشموع ، وقلما يظهر نورها لطلوع الشمس ، على أن أكثرها قد انطفأ لهبوب الرياح لأن طقس الشتاء فى طليطلة — وان كان صافيا — فانه لايخلو من الريح لوقوعها على جبل ، وبعضهم كان يحمل أغصانا من الزيتون وآخرون فى أيديهم المباخر يتصاعد منها البخور وهم يترنمون بأناشيد لاتينية . وبعد حملة الشموع فرس عليه رودريك بتاجه وحوله الأساقفة بملابسهم الرسمية ووراءهم المطارنة والشمامسة وغيرهم من رجال الاكليروس .. ووراء ذلك كله كوكبة من الفرسان . فلما رأى أهل طليطلة ذلك الموكب علموا أن الأساقفة قادمون للاجتماع ، ولكنهم استغربوا اجتماعهم فى ذلك الحين ، وما هو بوقت الاجتماع . لأنهم كانوا يجتمعون اجتماعهم السنوى فى وقت معين من العام . فاشتغلت الخواطر واضطرب الناس لأن المجمع لا يجتمع فى غير ميعاده الا لأمر غاية فى الأهمية

وكانت المجامع الدينية فى اسبانيا ثلاث درجات : (١) المجامع الكبرى ، (٢) المجامع الاقليمية ، (٣) المجامع الأبرشـية (١) . فالأولى تجتمع بأمر الملك فى طليطلة للنظر فى الأمور الهامة المتعلقة بالمملكة ، كانتخاب الملك أو المصادقة على قانون أو نحو ذلك ، مثل اجتماعه فى ذلك اليوم للنظر فى التهمة الموجهة الى أوباس . والمجامع الاقليمية تجتمع فى الأقاليم بأمر الأساقفة مرة أو مرتين فى السنة ، والمجامع الأبرشية يحضرها رؤساء الأديرة والقسس والشمامسة ونحوهم.. فلما رأى أهل طليطلة الاهتمام بجمع هذا المجمع ، خافوا أن يكون هناك ما يتعلق بحرب أو عزل أو تولية

أما الموكب فظل سائرا حتى وصل الى الكنيسة فتنحى الفرسان الى الجانبين ، ثم انقسم الشمامسة بشموعهم وصلبانهم ومباخرهم الى قسـمين ، دخل كل قسم من باب جانبى . وترجـل الملك والأساقفة والمطارنة ودخلوا من الباب الأوسط

وكان خدمة الكنيسة قد نهضوا منذ طلوع الشمس واشتغلوا بالتنظيف ، ووضعوا المقاعد والكراسى بالترتيب اللازم فى هذا الاجتماع ، وأناروا الشموع وفتحوا الأبواب ، ووقفوا ينتظرون الموكب ويمنعون كل من أراد الدخول من العامة أو سواهم ممن لا يخول لهم حضور المجامع . والذين يجوز لهم حضورها هم : (١) أساقفة طليطلة والأقاليم المشتركة معهـا (٢) المطـارنة الميتروبوليت (٣) رؤساء الأديرة (٤) الشمامسـة والخوارنة ،

(١) دومى ـ الجزء الثانى

(٥) بعض رجال البلاط الملكى (٦) الملك

فلما دخل الموكب الى الكنيسة اتخذ كل منهم مجلسه . وكانت المقاعد قد رتّبت صفوفا متعاقبة ، جلس الأساقفة على الصفوف الأولى منها بترتيب الأعمار . ووراءهم الأساقفة الصغار، وهؤلاء جلسوا بحسب الأعمار أيضا ، وجلس وراءهم القسس ، والشمامسة وقوف بين أيديهم . وفى وسط القاعة أمام تلك المقاعد كرسى خاص بكاتب سر المجمع . وهناك عرش مزخرف أعدوه للملك ، والى جواره عدة مقاعد لمن يشهد الاجتماع من خاصة الملك . أما الأب مرتين فكان ينبغى أن يجلس — بوصفه قسيسا — بين القسس ، وربما كان فى مقدمتهم جميعا لكبر سنه ، ولكنه فضّل الجلوس بجانب الملك لسبب لا يخفى على القارىء

— ٣٤ —

افتتاح الجلسة

فلما استقر كل واحد فى مجلسه ، أغلقت أبواب الكنيسة وساد السكوت على تلك القاعة الكبرى . وظل السكوت سائدا برهة لا ينطق واحد بكلمة ، ثم تكلم رئيس شمامسة الكنيسة من على كرسى بجانب الهيكل فقال باللاتينية Oremus أى « فلنصل » وكان لقوله صدى قوى .. فلم يكد ينطق بتلك الكلمة حتى خرّ الجميع سجّدا على ركبهم ، وقد أخذ كل منهم يصلّى لنفسه

بصوت منخفض . ثم قطع صلواتهم أكبر الأساقفة سنا بصلاة قالها بأعلى صوته فأصغوا له . ولمّا فرغ منها صاح الجميع : «آمين» . ثم قال رئيس الشمامسة باللاتينية Surgite fratres أى : « انهضوا أيها الأخوة » فنهضوا وعاد كل الي مجلسه ، وعند ذلك افتتح الجلسة كاتب السر بتلاوة قانون الايمان (نؤمن باله واحد الخ) على ما تقرر فى مجامع القسطنطينية وختم التلاوة بعبارة تدل على الاعتراف بالمجامع المسكونية الأربعة (١)

ثم وقف شماس عليه ثوب أبيض ناصع وبين يديه كتاب ضخم على حمالة بجانب مجلس كاتب السر ، وقد فتح الكتاب فى مكان اختاره ، وكان الأساقفة وسائر الحضور ينتظرون ما سيتلوه ذلك الشماس ليعرفوا منه موضوع الاجتماع ، لأن ذلك الكتاب هو قانون المملكة ، وكان من عادتهم اذا التأم المجمع أن يقرأ الشماس فقرات من ذلك القانون ، تتعلق بالغرض الذى اجتمعوا من أجله ، فاذا هو يتلو مواد متعلقة بانتخاب الملك وبمن يسعى فى افساد نيّات الشعب عليه أو يتعمد خلعه ونحو ذلك . فأدرك الجمع الغرض من ذلك الاجتماع على وجه التقريب

فلما فرغ الشماس من تلاوة تلك المواد ، وقف كاتب الجلسة ووجه حديثه الى الحضور قائلا : « ربما تستغربون ما تلوناه على مسامعكم ، والأحوال على ما يتراءى لكم هادئة ، ولكننى أبلّغ قداستكم أننا اجتمعنا للنظر فى تهمة موجهة الى أخ من اخواننا ،

(١) رومى — الجزء الثانى

وللأسف انه أسقف من الأساقفة . وربما استغربتم عدم حضوره هذه الجلسة مع أنه مقيم فى طليطلة . ولاشك أنكم عرفتموه »

فلما قال الكاتب ذلك ضج الأساقفة وتهامسوا فى شأن أوباس، وأكثرهم لم يستغرب اتهامه بخلع رودريك ، لما يعلمونه من علاقته بالملك السابق وطمعه فى الملك لأبنائه . ثم قال الكاتب : « وسنستقدمه كى يقف بين أيديكم وقفة المتهم .. فاما أن يبرىء نفسه أو يجرى عليه القصاص »

***

فلما فرغ الكاتب من كلامه تكلم أحد الأساقفة الجالسين فى المقعد الأول وقال : « لابد لكل تهمة ممن يوجهها وممن توجه اليه ، وقد علمنا أن المتهم هو أخونا الميتروبوليت أوباس، ولكننا لم نعلم من يتهمه بذلك ... »

فأجاب الكاتب : « انكم ستعلمون ذلك متى حضر »

فسكت الجميع ولبثوا ينتظرون قدوم أوباس وسماع محاكمته، واذا بأحد الشمامسة يتوجه نحو غرفة تؤدى الى باب سرى ، فتوجهت أنظار الأساقفة الى تلك الجهة . ثم ما لبثوا أن رأوا أوباس داخلا بمشيته المعهودة ، وقامته المعتدلة ، وجلال محياه ، وهيبته ، وليس على وجهه شىء من دلائل الاضطراب أو الوجل . فلما وصل الى الساحة الوسطى أمام مجلس الأساقفة أجال نظره فيهم ، ثم التفت الى مجلس الملك ولم يعر الأب مرتين انتباهه كأنه لم يكن موجودا هناك

- ٣٥ -

المحاكمة

وقف أوباس هناك وقفة قاض وليس وقفة متهم . وقف وهو ينظر الى من حوله نظره الى أناس ضعفاء ، ولم يهمه عددهم ولا ما فى أيديهم من السلطة والنفوذ ، وخصوصا الملك ، لأن أوباس كان يعده غلاما غرا ، وزاد احتقارا له بعد ما شهد من أمره مع فلوروندا . والرجل الحر يقدر الناس بفضائلهم لا بمناصبهم وان كان الناس قد تعودوا احترام أهل المناصب والغنى والنفوذ ، ولكنهم لايزالون فى أعماق نفوسهم يفضلون رجال الفضيلة ولا يعدون احترامهم لغيرهم الا خوفا من الظلم أو التماسا للنفع . على أن منهم من يبالغ فى اطراء أهل النفوذ حتى ينخدعوا عن أنفسهم ويزداد ضررهم . فاذا كثر أولئك المتملقون فى بلاط ملك ضعيف اغتر بنفسه وانقاد لأهوائه وعمل بمشورتهم — والمتملقون لايصلحون للشورى — فتسوء الأحوال ، ويسود أهل الفساد ، وتؤول البلاد الى الدمار والعياذ بالله

وكان أوباس ممن لا يذعنون الا للحقيقة ولايخيفه الا الخروج عن جادة الحرية . ولم يكن يشعر انه حى لنفسه رغبة فى الحياة الدنيا أو طمعا فى مناصبها أو ملاذها . ولكنه كان يرى نفسه — منذ أن اعتزل العالم وانتظم فى سلك الكهنة — انه انما يعيش عبدا

لمبدأ يراه مجسما فى مخيلته ، ويستغرب تغافل الناس عنه ـ كان يرى نفسه أسيرا للحق عبدا للحقيقة وحرية الفكر ، لا يعرف المداهنة ولا المراوغة ، فلا تعجب اذا رأيته واقفا فى ذلك المجلس لا يهاب أحدا منهم ، اذ كان يرى الحق أعظم منهم وأشد هيبة

فلما وقف أوباس وقف الكاتب ووجّه خطابه نحوه قائلا : « أبلّغ سيادتكم أننا استقدمناكم الى هذا المجمع يا حضرة الميتروبوليت لتهمة موجهة اليكم ، وكل واحد منا يتمنى أن تكون باطلة وتبرأ ساحتكمْ .. انكم متهمون بالمؤامرة على خلع جلالة الملك ... ولا يخفى على سيادتكم أن مثل هذه التهمة لا تمس جلالة الملك فقط ، بل هى تتناول هذا المجلس كله ، لأنه هو الذى انتخبه وأقرّه ... »

وكان الأب مرتين فى أثناء كلام الكاتب شاخصا بعينيه متطاولا بعنقه . فلما سمعه يقول ذلك أشار باطباق جفنيه وهز رأسه أن : « أحسنت » لأنه حسب أن ذلك يزيد نقمة الأساقفة وسائر أعضاء المجمع عليه ..

أما أوباس فلم يكن يعبأ بما يبدو من أحد ، فلما فرغ الكاتب من كلامه استولى السكوت على الجلسة وتطاولت الأعناق لسماع ما يقوله أوباس ، فاذا هو يقول بصوت هادىء : « سمعت كلامك وما تقوله من أمر اتهامى ، ولكنى لا أجيب عليه قبل أن أعرف الرجل الذى اتهمنى .. »

فالتفت الكاتب نحو الملك وحنى رأسه كأنه يقول : « جلالة الملك نفسه » ..

فقال أوباس : « وما هى أدلته على هذه التهمة ؟ » فأراد الأب مرتين أن يقلد اوباس فى رباطة جأشه وتأنيه.. فظل جالسا والتفت الى الأساقفة لفتة الاستخفاف والتهكم وأخرج شفتيه من غورهما وزمهما ، وأصعد حاجبيه وهز رأسه كأنه يقول لهم : « اسمعوا قول هذا الغبى كيف يطلب من الملك شاهدا على قوله .. »

أما الكاتب فلم يسعه الا أن يلتفت الى رودريك كأنه ينتظر جوابه على قول اوباس .. فأشار الملك الى الأب مرتين أن يجيبه فوقف مرتين وقد نسى التأنى ورباطة الجأش وعاد الى فطرته العجولة . فلما رآه الأساقفة يهم بالكلام أصاخوا بسمعهم لما يقوله لئلا تفوتهم ألفاظه بالتمتمة فلا يفهمون ما يريد — وهم سيبنون حكمهم على جوابه — أما هو فقال : « أتطلب الأدلة على ثبوت التهمة عليك وكل القرائن تؤيدها.؟ يكفى أنكم منذ كان الملك السابق حيا لا تزالون تسعون فى خلع طاعة الكنيسة الكاثوليكية والرجوع الى الأريوسية ، وقد كان تنصيب جلالة الملك ضربة كبيرة عليكم جميعا . فأخذتم تبذلون كل رخيص وغال فى مقاومته ولكنه مؤيد من الله والكنيسة . ومن عجيب أمرك أن تطلب الشهادة على صدق قول جلالته » . ولم يبلغ الى هنا حتى تعبت آذان الحاضرين من كلامه المتقطع . فالتفت أوباس الى الحضور وهو يبتسم وقال : « بل من الغرائب

استغراب طلب الدليل على تُهمة موجهة نحو أسقف له مكانته الدينية بين الناس .. تهمة أقل ما يقال فيها أنها مختلقة .. نعم مختلقة ولو قالها جلالة الملك ، لأن الحق فوق الملوك والأساقفة .. ثم لا أدرى ما الذى يسوّغ هذه التهمة .. كيف يقال انى تآمرت على خلع هذا الملك ؟ ومع من تآمرت ، وأين ، وكيف ؟.. وهل تكون المؤامرة أو التواطؤ الا بين جماعة . فمن هم شركائى فى التهمة ؟.. انه قول غير معقول ، لا أقول ذلك فرارا من العقاب لأن العقاب لا يهمنى »

- ٣٦ -

التصريح

فلم يصبر الملك على ما قال اوباس .. فأجابه بنفسه وقد حملق عينيه وقطب حاجبيه : « يا للعجب من هذه الوقاحة ، كيف تنكر هذا الأمر وقد سمعتك بأذنى هذه وأنت تهددنى بقرب انقضاء هذه الدولة ، وانه يهون عليكم اخراج هـذا الأمر من يدى . هل تنكر ذلك ؟ وقد سمعه الأب مرتين أيضا . فهل من دليل أوضح من هذا ؟.. »

وكان الأساقفة وهم يسمعون الأقوال يميلون الى التصديق لأسباب ، منها ان أكثرهم يكرهون أوباس لحريته وصراحته وتمسكه بالحق ، ولأنه قوطى . ناهيك بالقرائن التى تساعد على

اثبات التهمة لأن أهل طليطلة كلهم يعرفون كراهية بيت غيطشة أجمعين لرودريك ، وكل من يقول بقوله وبخاصة الأساقفة ، لبواعث تقدم بيانها . فلما سمعوا شهادة الملك نفسه وشهادة قسه مالوا الى الحكم على أوباس، وزد على ذلك انه كان يمكنهم الحكم عليه بدون محاكمة .. ولكنهم اجتمعوا ذلك الاجتماع ليقضوا به شبه واجب عليهم . فلما فرغ الملك من كلامه وجّهوا أبصارهم نحو أوباس ليسمعوا قوله . فرأوه لا يزال على ثباته ورباطة جأشه . وقبل أن يشرع فى الجواب اعترضه أحد الأساقفة قائلا : « انى لأعجب من نقمة بعض رجال القوط على تنصيب جلالة الملك ، انما كان تنصيبه بالانتخاب على مقتضى قوانين الدولة والكنيسة . والذين يدعون الحق لأبناء غيطشة أو غيره من أعضاء عائلته فى الملك إنما هم مخطئون .. لأن الملك فى اسبانيا الآن انتخابى كما لا يخفى على سيادتكم ولا يجلس على هذا العرش الا الذى ينتخبه هذا المجمع المقدس . فهل تنكرون أن جلالة الملك منتخب على هذه الصورة ؟.. »

فلما سمع أوباس ذلك أدرك أنهم يحاولون ايقاعه ، فلم يبال وعزم على أن يجول فى الموضوع الى آخره ، فقال وقد وجّه خطابه الى الأسقف : « ان هذا السؤال ياحضرة الأسقف خارج عن موضوع التهمة ومع ذلك فانى أجيبك عليه . نعم انّ هذه المملكة أكثر ممالك أوربا خضوعا للكنيسة . وأساقفتها هم الذين ينصّبون الملك كما ذكرت ، ولا أنكر أن جلوس هذا الملك كان

بانتخاب هذا المجمع ، فانتخابه كان قانونيا وان كنت لا أعتقد أن المجمع توخّى كل الطرق القانونية لنقل الصولجان من الملك السابق اليه ، مما لا أخوض فيه الآن . ولكنى لا أخفى عنكم أيها السادة اننى أرى الكنيسة قد تمادت بسلطتها فى هذه المملكة دون سائر الممالك حتى تجاوزت حدها . أقول ذلك وأنا من أعضاء الكنيسة ، ولا أظن أحدا منكم يقول هذا القول ولو كان يؤمن به لأنه يغاير مصلحته »

وكان الأب مرتين حينما سمع تعريض أوباس بالمجمع فى الانتخاب أشار الى الكاتب أن يدون ذلك القول أمامه ليطاليه به .. ففعل

أما الأسقف الذى كان الكلام موجها اليه فأجاب قائلا : «يظهر انك تنكر فضل الكنيسة على المملكة ، وهل يخفى عليك أن الكنيسة الكاثوليكية هى التى حفظت النظام والتمدن فى هذه القارة . وقد جاء أجدادكم الجرمان على اختلاف قبائلهم وأكثرهم وثنيون فتغلبوا على المملكة الرومانية وتفشوا فى مدنها ، قبائل رحّلا لا علم عندهم ولا تمدن ، فجمعتهم الكنيسة فى أحضانها وهذبت أخلاقهم وجعلتهم أمما وممالك ، وهى التى حفظت لهم العلم والحكمة ، وهى التى دربتهم فى كل شئونهم السياسية والادارية والاجتماعية .. ولولاها لكانت أوربا فوضى لا علم فيها ولا نظام »

فهمّ أوباس بالجواب ، فدق الكاتب جرسا أمامه اشارة الى التماس السكوت فسكتوا ، والتفتوا فرأوا الملك يهمّ بالكلام فأصغوا . فقال الملك وهو جالس على عرشه وصدره يتقدمه وشعره مرسل على كتفيه من تحت تاجه : « لا حاجة بنا الى الخوض فى مسائل لاعلاقة لها بالموضوع.. يكفى ماقد سمعتموه من كلامه الآن من استهجان أعمال المجمع فى انتخاب الملك ، وانكم لم تنتخبوه بطرق قانونية .. فمن يصرح بمثل ذلك فى مجلس القضاء ، هل يستغرب اتهامه بالمؤامرة ؟ »

فالتفت أوباس الي رودريك قائلا : « لا علاقة أيها الملك بين استحسانى الانتخاب أو استقباحه وبين مؤامرة تزعمون أنى دبرتها لخلعكم . نعم انى أشك فى الطرق القانونية التى اتخذت فى الانتخاب ولكننى لم أبن عليها مؤامرة . أو على الأقل ان السبب فى وقوفى هذا الموقف هو اعتقادكم أنى فعلت شيئا من ذلك .. »

فاعترضه الأب مرتين قائلا : « وكيف لا يعتقد جلالته ذلك. وقد سمعه من فمك كما سمعته أنا .. يا للعجب .. » قال ذلك والتفت الى الملك وقال : « يظهر ان أمر المجادلة طال والتهمة صريحة واضحة »

— ٣٧ —

التحامل

فالتفت الملك الى الأساقفة وقال : « قد سمعتم بما قاله هذا

فاما أن يكون الملك رودريك قد جلس على عرش طليطلة بغير حق أو أن أوباس هذا قد لبس ثوب الكهنوت بدون استحقاق» قال ذلك وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما حتى نزل عن عرشه ومشى وهو لا يعي، ثم عاد الى كرسيه وجلس بعنف

ففهم أوباس انه يعرض بتجريده من رتبته الكهنوتية قصاصا له فقال : « لا تظن أن هذا التهديد يضعف من عزمي فى قول الحق لأنى لست أسقفا بهذه البدلة ولا أنت ملك بهذا التاج ، وانما الأعمال بالنيات ومهما أردتم بى من القصاص فذلك لا يقلل شيئا من اعتقادى ، ولكنه يزيد ذنبك يا رودريك أمام الديان العظيم لأنه سبحانه وتعالى يعلم السبب الذى من أجله نقمت علىّ وسقتنى الى هذا المجمع . وأنت تعلم وهذا الأب المحترم أيضا يعلم السبب الذى نقمتما من أجله علىّ حتى سقتمانى الى هذا الموقف ، ولست أهاب موقفا أرانى فيه محقا ولو لم ينصفنى الناس فان الله نصيرى وهو المطلع على القلوب ... »

فلما سمع الملك تعريضه بحديث فلورندا خاف أن يحرجوه فيصرح به ويذكر اسمها وقصتها .. فتظاهر الملك بالغضب ووثب من مجلسه وصاح فيه : « ويلك !.. أبمثل هذا الكلام تخاطب ملك الأسبان ؟.. » ثم التفت الى المجمع وقال لهم : « اذا صبرتم على أقواله فها أنا أخلع نفسى أو هو مخلوع من ساعته .. » قال ذلك وتشاغل باصلاح منطقته المذهبة

فقال أوباس وهو لايزال رابط الجأش : « لابأس أيها الملك اذا

أنا خلعت هذا الثوب ، غير أن ذلك لايغسلك من الرجس الذى تعمّدت الانغماس فيه ، ومن أجله سمعت توبيخى فساءك الحق وثقل عليك ، فأردت الانتقام منى ، ولكن الله هو المنتقم .. »

فقاطعه رئيس الأساقفة قائلا : « أدعوك ياحضرة الميتروبوليت باسم الكنيسة أن تسكت » فلم يسع أوباس غير الاذعان

واستولى على الجلسة الصمت برهة ، والكل مطرقون ، وربما تهامس البعض بكلام لا يسمع له طنين . وكان الأب مرتين فى أثناء ذلك يجيل عينيه فى الأساقفة يتأمل ما يبدو فى وجوههم .. فاذا وقعت عيناه على عين أحدهم أشار بحاجبيه وشفتيه اشارة الاستهجان وهو يومىء الى أوباس كأنه يقول : « أنظر ما أوقح هذا الرجل .. وما هذه الجرأة التى ارتكبها فى مثل هذا الموقف المقدس ! » ..

أما أوباس فكان واقفا وقوف رجل برىء الساحة واسع الصدر يرسل بصره الى الأساقفة بلا اشارة ولا ملاحظة ، ولكن يظهر من رباطة جأشه وما يتجلى فى وجهه من الهيبة والسرور أنه غير مبال بما قد يكون من عاقبة تلك المحاكمة ، لاعتقاده أنه سيق اليها زورا وبهتانا . على أنه تذكر ما دار بينه وبين ألفونس قبل سفره وما تواطأ عليه من أمر الملك ونحوه ، فرأى التهمة تصدق عليه من هذه الناحية .. ولكنه راجع ماصدر من أقواله فى تلك الجلسة ، فلم ير فيها ما يمنع انكاره حق الملك على رودريك . وفيما هو يفكر فى ذلك وقعت عيناه على صورة كبيرة معلقة على أحد

جدران الكنيسة ، تمثل السيد المسيح واقفا بين يدى بيلاطس للمحاكمة فتذكر قبوله الصلب دفاعا عن الحق فزاد استمساكا به.

أما رودريك فكان قد عاد الى كرسيه ، ولما رأى المجلس ساكتا خشى أن يعودوا الى البحث فيما وجّهه أوباس من التهمة اليه فالتفت الى رئيس الأساقفة.. وقال وهو يتظهر الهدوء كمَن له سلطان يستطيع أن يدير آراء المجمع كما يشاء : « لقد كفانا ما سمعناه واذا رأيتم المسألة تحتاج الى نظر بعد كل ما بدا لكم من الأدلة الصريحة فانى أحل هذه الجلسة وتؤجل البحث الى جلسة أخرى » ..

فوقف الأب مرتين وقال بلهجته المعروفة ، موجها خطابه الى رودريك : « لايتبادر الى ذهن مولاى من سكوت سيادتهم انهم يشكّون فى حديث جلالة الملك أو يخامرهم أدنى ريب من ثبات التهمة على أخينا الميتروبوليت بعد الشهادة الصريحة التى نطق بهـا مولاى ولم ينكرها هو .. بل انه أيدها بما فرط منه من العبارات الصريحة التى تدل على غضبه من هيئة الحكومة الحاضرة وممن كان السبب فيها ، كأنه قال بصريح العبارة : « ان هـذا المجمع قد خان البلاد بانتخابه جلالة الملك .. » قال ذلك وهو يمضغ الكلام مضغا ثم يقذفه من فمه ، كأنه ينثر تبنا يتطاير على غير نظام فيقع على الثياب والوجوه .. والناس يطبقون أجفانهم لئلا يقع على عيونهم فيؤذيها .. !

أما أوباس فلما سمع قوله وما فيه من اثارة الخواطر عليه وجّه

خطابه الى رئيس الأساقفة قائلا : « قد سمعتم ماقاله الأب مرتين ــ ولا أضمن أنكم فهمتموه ــ وكأنى بكم تتوقعون انكارى ذلك خوفا من العقاب . كلا .. انى أشك فى قانونية انتخاب هذا الملك كما قلت لكم ، ولو خـيِّرت فلربما اخترت سواه .. وأما الدعوى التى سقتمونى من أجلها الى هنا فما هى فى شىء من ذلك .. ان رودريك هذا الذى تسمونه ملكا انما جمعكم لمحاكمتى واتهمنى بهذه التهمة لأنى نصحت له أن يرجع عن جريمة همَّ بارتكابها . ولولا خوفى من تدنيس هذا المكان المقدس بذكرها لكشفت القناع عنها . ولو فعلت ذلك وأنصفتمونى لبدأتم برجم هذا الجانى بأيديكم .. »

فضج المجمــع وهاج غضب الملك وخشى زيادة التصريح ، فتظاهر بالانفعال الشديد والاستغراب ، ولم يدر ماذا يقول ، فأنقذه الأب مرتين من تلك الورطة بقوله ، مخاطبا كاتب الجلسة : « يرى جلالة الملك أن أخانا الميتروبوليت قد تهور فى أقواله وخرج عن طوره الى الخلط والهذر ، كأنه جن لفرط ما خشيه من سوء العاقبة ، فلم يعـد يفقه ما يقول . ولذلك فجلالة الملك يأمر بانتهاء الجلسة حالا وتأجيل المحاكمة الى جلسة أخرى ، ولايجوز بعد صدور هذا الأمر أن يتكلم أحد فى هذه الجلسة بغير الصلاة الختامية .. »

فنزل كلام الأب مرتين بردا وسلاما على رودريك ، ولم يسع الكاتب الا العمل بالاشارة ، لأن للملك الحق فى بدء الجلســة

وانهائها دون سواه . ولم يكترث أوباس بذلك بعد أن قال ماقاله ولو بالتلميح .. ثم وقف رئيس الأساقفة فتلا الصلاة الختامية ..

وانفضت الجلسة فخرجوا الى منازلهم الا أوباس فانهم ساقوه تحت الحراسة الى مخفر آخر ، وأوصوا الحراس أن يشددوا عليه الرقابة ..

– ٣٩ –

الفونس ويعقوب

فلنتركه وشأنه ولنعد الى ألفونس وما كان من أمره بعد ذهابه بأمر الملك ، فقد خرج من منزله ومعه يعقوب ، وسارا الى مقر المعسكر فى بناء كبير بضواحى طليطلة وحولهما الفرسان الذين جاءوا بأمر الملك فأوصلوهما الى المعسكر وعادوا

فلما دخل الفونس استقبله الجند بالاحترام فترجل ومشى ، ويعقوب يسير بين يديه وليس معه من الخدم سواه ، وقد استغربوا منظره بما ذكرناه من اهماله لحيته وثيابه ، حتى وصلوا الى غرفة خاصة بالقائد الكبير ، فاذا بخادم واقف هنالك وبيده كتاب عرف ألفونس من منظره الخارجى أنه من الملك ، فخفق قلبه لفرط ما غاظه الكتاب الماضى .. فدخل ولم يطلبه حتى جلس فى صدر الحجرة ، فاستأذن الرسول من يعقوب فى الدخول على الفونس فلما أبلغ يعقوب ذلك لألفونس ، قال له : « لا حاجة الى دخوله

هات الكتاب منه » فأخذه منه وجاء به الى ألفونس وهو يقول :
« لا تغضب يامولاى . لعل فيه أمرا بالرجوع الى منزلك »

فتناول ألفونس الكتاب وهو صامت ، ثم فضه فاذا هو من الملك يقول فيه :

« من رودريك ملك القوط الى القائد الباسل ألفونس

« أما بعد ، فقد سبق أن كتبنا اليك بالذهاب الى كونتية .. ولم نعين لك المدينة التى تنزل فيها ، فانزل مدينة استجة Astigia من كونتية بتيكة وأقم برجالك فى احدى القلاع ريثما أكتب اليك عن الجهة التى تذهب اليها . وقد أرسلت اليك مع هذا كتابا تدفعه الى كونت بتيكة ليتلقاك بالترحاب ويمدك بالمال عند الحاجة . والسلام

كتب فى قصر طليطلة »

فلما فرغ ألفونس من قراءة الكتاب أمر يعقوب أن يأتيه من الرسول بالكتاب الآخر ، فجاءه به ودخل عليه وأغلق الباب وراءه وقدم له الكتاب وهو يتفرس فى وجهه . فلما رأى ما يبدو عليه من الانقباض واليأس أراد أن يخفف عنه فعطس عطسة ارتج لها المكان ، فانتبـــه ألفونس ونظر الى يعقوب فاذا هو ينظر اليه ويضحك ويهز رأسه ويحك ذقنه بأنامله . فاستغرب ألفونس ذلك منه وكاد ينتهره لو لم يسبق الى ذهنه ما آنسه من احترام عمه أوباس له واعتماده على أقواله . وتذكر السر الذى توسمه فى سيرته فابتسم له ، وقال : « ما الذى يضحكك يا يعقوب ؟ ..

هنيئا لقلبك » قال ذلك وتنهد

فتنهد يعقوب تنهدا سمع له صفيرا ، وقال له : « بل هنيئا لك أنت ، كيف يخدمك الحظ على أهون سبيل ؟ »

فهز ألفونس رأسه وقال : « تبا لهذا الحظ .. دعنى وشأنى » قال ذلك ونهض وهو يقول : « لا يليق بنا البقاء هنا ونحن مكلفون بالذهاب الليلة ، ولا بد لى قبل كل شيء من استدعاء القواد وابلاغهم الأمر بالاستعداد ، فامض الى قائدى الخمسمائة واستقدمهما الى .. »

وكان الجند الأسبانى فى عهد القوط مؤلفا من فرق ، كل فرقة ألف جندى يسمى قائدها رئيس المعسكر Prœpositus Ostis تحته قائدان كل منهما يرأس خمسمائة واسمه Quingentenarus وتقسم الخمسمائة الى مئات اسم قائد كل مائة Centenarus قائد المائة . وكل مائة تنقسم الى عشرات اسم قائدها Decanus أى قائد العشرة فالقائد العام يبلغ أوامره الى قائدى الخمسمائة وهما يتوليان تدبير الجند

فخرج يعقوب ثم عاد وأخبر ألفونس أن القائدين قادمان ، ثم جاءا وقد لبسا ملابس السفر وشعرهما ــ مثل شعور سائر القوط ــ مسترسل على أكتافهما ودلائل الصحة بادية على وجهيهما وملامح التنعم فى قيافتهما . فلما دخلا سلما على ألفونس باحترام وهما يعرفانه منذ كان أبوه حيا ويحترمانه من أجل ذلك ،

وقد سرّهما تولّيه قيادة تلك الفرقة لما يعلمانه من حسن أخلاقه وطيب عنصره ، وكانا من أهل الغيرة على عصبية القوط لم يرضيا برودريك الا مع الجماعة فاذا خلوا تحدثا بما كان من تحوّل النفوذ الى العنصر الرومانى بعد تولى رودريك ، ولكنهما لم يكونا يجسران على التصريح بذلك بين يدى أحد حتىَ ولا ألفونس نفسه لأنه أصبح مثلهم فى ذلك

فلما رآهما ألفونس تذكر أنه شاهدهما من قبل ، ولكنه استغرب تأهبهما للسفر قبل أن يصدر لهما الأمر بذلك فقال : « أراكما بملابس السفر ؟.. »

— ٣٩ —

ومبا

فتكلم أحدهما ، واسمه « ومبا » ، وكان طويل القامة شديد سواد العينين والشعر ، وقال : « لقد وردت الينا الأوامر بذلك من جلالة الملك تعجيلا للرحيل ، فالجند الآن كله على أهبة السفر ، ولم يبق الا أن يصدر الأمر من مولاى ألفونس »

فلما سمعه يذكر اسمه استأنس به وشعر براحة اليه وقال : « نغادر هذا المعسكر الآن ، فأرجو أن تتوليا تدبير الجند فى رحيله واقامته الى أن نبلغ مقصدنا .. »

فأشار باحناء الرأس أن : « سنفعل » . ثم تكلم ومبا ، وكانت

له جرأة وتقدم على رفيقه قائلا : « ألا ينبئنا مولاى عن الجهة التى نحن ذاهبون اليها ..؟ »

قال ألفونس : « اننا ذاهبون الى استجة على نهر السنجيل فى كونتية بتيكة ، فهل تعرف الطريق اليها ؟.. »

قال : « أعرفها جيدا ، فان الطريق اليها نحو الشمال والغرب الى مريدة على نهر أناس ، فنعبره ونسير شمالا شرقيا الى قرطبة ، ثم ننحدر شمالا شرقيا الى استجة على نهر السنجيل ، وقد عرفت هذه المدينة وصليّت فى كنيستها ، وأقمت فى قلعتها ، وعبرت على جسرها ، وعرفت أديرتها وأسواقها .. »

قال ألفونس : « بورك فيك ، لقد ألقيت الأمر اليكما فى تدبير هذه الحملة فى أثناء المسير ، ولكننى أوصيكما بأمر يهمنى كثيرا ، وذلك أننى لا أريد أن يعتدى الجند فى أثناء الطريق على أحد من الفلاحين ، ولا يأخذوا لأحد مالا أو زرعا ، ولا يسيئوا لأحد فى معاملة .. فاذا فعل أحد ذلك كان جزاؤه عندى الجلد أو القتل . واذا كان من أرباب الرتب جردته من رتبه وأملاكه وأهنته ، فانى أريد أن يسير هذا الجند بكل هدوء وسكينة .. »

فلما سمع ومبا ذلك ظهر الاعجاب فى عينيه البراقتين وقال : « بورك فيك وفى أصل أنت فرعه ، لقد عودنا المرحوم أبوك مثل هذا العدل والرأفه ... »

فلما سمع قوله عض على شفته وأطرق ، وكأنه يقول له : « ليس هذا وقت التصريح » .. ثم أتمّ كلامه قائلا : « وأوصى

الكهنة المرافقين لهذه الحملة أن يوصوا الجند بهذه الوصايا ، ولا يخفى عليكم أن جندنا أكثر ما يحسنون الحرب مشاة ، فلا تتعبوا المشاة بالمسير ولا تحمّلوهم أحمالا ثقالا . ويكفيهم ما يحملونه من الأدرع والأسلحة من السهام والحراب (١) »

فلما فرغ الفونس من كلامه ، لم يزد ومبا على اشارة الطاعة ثم قال : « ألا يأمر مولاى بحاشية من الأعوان والموالى تسير فى خدمته خاصة ؟ »

فأراد ألفونس أن يصرح له بالتخفيف عن الموالى ، فوقعت عيناه على يعقوب ، فرآه يشير اليه اشارة خفيّة أن لا يفعل فانتبه ، وقال : « لا أحتاج الآن الى أحد فان معى خادمى هذا ، وهو يدبّر لى ما أحتاج اليه واذا احتجت الى سواه طلبت .. »

فخرج القائدان فرحين بمرافقة ألفونس . أما هو فلما خلا بيعقوب قال له : « رأيتك تشير الىّ فى أثناء الكلام ... »

قال : « خفت أن يسبق لسانك الى قول تؤاخذ عليه ونحن بين يدى الأعداء ، فاحتفظ بكل ما دار بينك وبين مولانا ونبراسنا أوباس لنرى ماذا يكون . واسمح لى أن أتمم ما كنت قد بدأت به من قبل . اعلم يامولاى أنك موفّق باذن الله لأن الأمر الذى كنت لا تستغنى فى الوصول اليه عن بذل الأموال واستخدام الرجال قد وصلت اليه عفوا .. »

قال ألفونس : « وماذا تعنى ؟.. »

(١) دوزى — الجزء الثانى

قال يعقوب : « أعنى أن المشروع الذى فكرت فيه مع مولاى الميتروبوليت لقهر ذلك العدو الحاكم ، قد أصبح السبيل للشروع فيه ممهدا منذ الآن . هــذه فرقة من الجند الآن تحت أمرك فقرّبها منك وحبّبها اليك ببذل المال .. المال .. » قال ذلك وتلمّظ كأنه يتلذذ بطعام شهى

فقطع الفونس كلامه قائلا : « ومن أين لنا بالمال يايعقوب ..؟ ما أهون ابداء الرأى فيه وما أصعب العمل به .. ! »

فوضع يعقوب كفه على صدره وأحنى رأسه وأطبق جفنيه ، ولسان حاله يقول : « المال عندى وعلىّ احضاره » ..

— ٤٠ —

الخمر

فتذكر ألفونس مثــل ذلك الوعد بين يدى أوباس فى ذلك الصباح ، فتاقت نفسه الى استطلاع سر هذا الرجل فقال : « لقد ذكرتنى بوعدك السابق ، ولا يخفى عليك انى شديد الرغبة فى معرفة حقيقة أمرك ... »

فتحوّل وجه يعقوب الى الجد مع بعض الانقباض وقال : « فليأذن مولاى بتأجيل ذلك الى وقت آخر . وأما المال فانى سأبيّن له سبيل الحصول عليه بعد وصولنا الى استجة والأمور مرهونة بأوقاتها . طب نفسا وقر عينا وكن على يقين انى على قبح

خلقتى وقذارة مظهرى لا أخلو من حسنات نافعة . والآن لا بد لنا من الركوب لأنى أسمع قرع الطبول ايذانا بالمسير »

قال ألفونس : « ائتى بالفرس فأركبه وتول أنت أمر الخدم وتدبير ماقد نحتاج اليه من الطعام ونحوه ..وكن أنت نائبا عنى فى كل ذلك ، ولا تدع أحدا يأتى التى من الخدم ، فاذا احتاج أحد منهم الى شىء فليتصل بى بواسطتك .. »

فخرج يعقوب وأحضر فرسا من أحسن أفراس الحملة وعليه سرج ثمين ، وكان هو بملابس القواد وقد زينته شبابه وجماله . وقبل الغروب أذن بالرحيل فأقلعت الحملة فمرت فى طريقها قبل خروجها من ضواحى طليطلة بمرتفع مطل على طليطلة . فالتفت ألفونس الى المدينة وهى على مرتفع أيضا وقد بدت فيها الكنيسة الكبرى فوجه نظره الى قصر رودريك على ضفاف التاج ، ولما وقعت عيناه على قصر فلورندا خفق قلبه خفقانا سريعا وهاج به الوجد ، وتذكر ما كان من لقائه اياها فى ذلك الصباح ، وما آلت اليه حاله فى ذلك المساء ، ونظر الى السماء والغيوم تتكاثف وتتلبد أشبه بما يتكاثف على قلبه من سحب الهيام والشوق ، وخيل له ان الطبيعة تشاركه فى ذلك الشعور.. والمرء مفطور على تفسير حوادث الطبيعة بما يوافق شعوره ، وتعليلها بما يلائم اعتقاداته وأوهامه.. ويغلب فيه أن يراها مسخرة له لاتأتى بحركة الا لخيره أو شره ، وأنها تفعل ذلك عمدا بعناية خاصة ، فاذا أمطرت السماء وهو مسافر توهم أنها تفعل ذلك لتعوقه ، واذا

كان يرجو الغيث لزرع أو نحوه ، قال انها تمطر خدمة له . فلا غرو اذا توهم ألفونس أن السماء تعبس وتتقطب غيومها شعورا بفراق حبيبته ، والمحب كثير الأوهام سهل التطبيق لكل مايوافق احساسه من جهة حبيبه ولو كان ذلك مخالفا للنواميس الطبيعية

ولم تغب الشمس حتى أظلمت الدنيا وتساقطت الأمطار وهبت الرياح ولم يعد المسير ممكنا لهم . فأمر ألفونس بالنزول هناك فنصبوا الخيام .. وفى جملتها خيمة له ، نصبوها بسرعة ، وجاء يعقوب فاستدعاه اليها ودخل هو معه . وكانت ليلة باردة ، قاسى فيها ألفونس من هول الوحشة والشوق مثل ما قاسته فلورندا فى تلك الليلة من العذاب ، وألفونس غافل عن حاله لاعتقاده أنها على موعد معه ، ليأتى لانقاذها فى ذلك المساء ، وقد وكل فى ذلك عمه اوباس ..

فلما دنا الوقت المعين لانقاذ فلورندا تصورها ألفونس خارجة من قصر رودريك مع أجيلا وشنتيلا فى القارب الى منزل أوباس ، وتوهم أنها أصبحت فى مأمن هناك ريثما يبعث بها اليه حيثما يكون . ثم تذكر بغتة أن أوباس لا يعلم المكان الذى هم ذاهبون اليه ، ففطن الى السبب الذى من أجله غير الملك خطة مسيره ، والتفت الى يعقوب ، وكان جالسا فى أحد جوانب الخيمة وقد تزمل بقباء كثيف وتلملم وتجمع من شدة البرد ، والرياح تهب والرعود تقصف ، وقال له ولم يحاذر أن يعلو صوته لعلمه بانشغال الآذان بقصف الرعد عن سماع حديثهما : « هل علمت

السبب الذى من أجله غيّر الملك خطة مسيرنا ..؟ »

فرفع يعقوب رأسه وقال ولحيته ترتعش من البرد : « أظننى عرفت ، وعرفت أشياء أخر لولا البرد الشديد لكنت أقصها عليك » ..

قال : « وماذا عرفت ؟.. قل لى واذا كنت تشكو البرد فاليك بقدح من الخمر فاشربه فيدفئك » . قال ذلك وأشار الى خرج كان فى الخيمة يعرفه يعقوب ثم قال : « وأعطنى قدحا فأشربه أنا»

فتشدد يعقوب ووقف وهو يرتعد من شدة البرد . ومشى حتى أخرج الوعاء ، وصب منه الخمر فى قدح من الفضة ـ كان هناك ـ ودفعه الى ألفونس فشربه ، وتناول قدحا آخر صب فيه لنفسه وشرب، ثم صبّ قدحا آخر لألفونس وآخر لنفسه، حتى اذا دبت الخمر فى عروقه فأذهبت الرعدة ، ملأ القدح وتناوله ووقف بين يدى ألفونس ورفع يده والقدح فيها ، وهو ينظر الى ما حوله كأنه يحاذر أن يراه أحد وقال : « اشرب هـذه الكأس تذكارا للسرّ الذى بيننا ونرجو أن ينجح سعينا فيه .. وتذكارا للأمنية التى هى فى خاطر مولاى الفونس ويظن أن يعقوب غافل عنها ـ وان كان لا بد له من أن يكاشفه بسرها ـ اذ لا غنى له عن خدمته فى الحصول عليها .. »

قال ذلك وشرب وهو يبتسم وألفونس ينظر اليه وقد استغرب تعريضه بالسر الآخر ، وما هو الا سر حبه فلورندا ، فأراد أن يتحقق من ظنه فقال : « وأيّة أمنية تعنى يا يعقوب ؟.. »

فضحك يعقوب وقال : « لقد لعبت الخمر برأسى فأعذرنى اذا حسرت حجاب التهيّب ونطقت بالواقع . الأمنية يامولاى فى قصر رودريك ، وهى التى جعلت ذلك الظالم يبعث بك فى هذه المهمة ولكن لا بد من الانتقام والرجوع بالنصر المبين .. » قال ذلك وضحك وهو يمسح لحيته من آثار الخمر ، وكانت قد تلوثت بنقط تساقطت عليها وهو يشرب القدح الأخير . ثم خطا خطوة الى ألفونس وانحنى نحوه وهو يقول : « قد توهّم رودريك أنه قد نفّذ غرضه بارسالنا الى استجة ، وفاته أنه يخدم غرضنا ، اذ لا بد لنا من الذهاب الى هذه المدينة للمشروع الذى عزمنا عليه »

فاستغرب ألفونس قوله وضجر من الأحاجى والألغاز ، وقال له : « لقد أضجرتنى يا يعقوب باشاراتك وألغازك ، لماذا لاتصرح لى بما فى نفسك ؟.. »

فانقبض وجه يعقوب مرّة أخرى وقال : « قلت لمولاى ان موعدنا فى ذلك قريب ان شاء الله ، وأرجو أن لايلح علىّ فى الأمر فان الالحاح مضر . اصبر يامولاى وسأطلعك على كل شىء قريبا . واعلم أن رودريك هو الذى عجّل بكشف هذا السر حين أرسلنا الى هذه المدينة »

فندم ألفونس على الحاحه وضجره ، وأصبح ليعقوب عنده منزلة رفيعة لما آنسه فيه من الحمية ، فأراد أن يصرف عنه ذلك الانقباض فقال له : « ما رأيك فى المهمة التى أنفذنا رودريك فى قضائها ؟ » ..

قال : « أظنها ثورة نشبت فى بعض المدن من أمثال ما يحدث كل عام بين الرعايا المظلومين . ولا أخفى عن مولاى بعدما تعاهدنا عليه ، ان أهل هذه البلاد فى غاية الضنك من استبداد حكامهم ، وكانوا يشكون من ضغط الرومان عليهم .. فلما جاءهم القوط توهموا فيهم النجاة من نير الرومان ، فاذا هم تحت النيرين معا ، وقد أصبحوا أرقاء لا حرية لهم ولا منزلة ولا عقار ولا مال . فلما لمسوا ضعف هذه الدولة كثر تمردهم وهياجهم (١) وقد سهل هذا الأمر عليهم خطأ ارتكبه ملوك القوط المتأخرين مع جماعة اليهود ، فأكرهوهم على نبذ ديانتهم واعتناق النصرانية فأصبح اليهود عونا عليهم .. »

.. فقطع الفونس كلامه قائلا : « ولكن اليهود قد انقرضوا من أسبانيا الآن ولم يبق فيها يهودى كما لا يخفى عليك .. »

قال : « أعلم ذلك يامولاى وأعلم أيضا أن ملوك القوط قبل المرحوم والدك قد أسرفوا فى اضطهاد اليهود ، وخيّروهم بين القتل أو النصرانية أو الهجرة ، فهاجر بعضهم وتنصّر الباقون ، فاختفت اليهودية ، ولكنها لم تندثر.. وهب انها اندثرت فاليهود لايزالون موجودين » . ثم التف بعباءته لفا شديدا وهو يقول : « أرانا خرجنا من الموضوع قبل الأوان ، وخلاصة الأمر ان المهمة التى نحن ذاهبون من أجلها ، مهما يكن من أمرها فانى ضامن اخمادها بدون أن نجرّد سيفا أو نرمى نبلا.. طب نفسا واصبر

---

(١) دوزى ــ الجزء الاول

حتى نصل استجة فينكشف لك كل شيء » . ثم تحوّل الى مجلسه الأول وهو يقول : « وقد آن وقت النوم .. ألا يرغب مولاى فى ذلك ؟ »

فابتدره الفونس قائلا : « وقبل الذهاب الى النوم اسقنا كأسا أخرى واشرب مثلها وهى خاتمة الحديث »

فصب له قدحا وشرب مثلها وتوسدا ، وألفونس يعد نفسه بالاطلاع على أسرار كثيرة بعد وصوله الى استجة

– ٤١ –

الفلاحون

وناما تلك الليلة نوما عميقا على أثر ما عانياه من التعب بالرغم من البرق والصواعق وشدة هبوب الرياح . وأفاق يعقوب مبكرا وخرج لاعداد ما يحتاج اليه ألفونس ، ولم تشرق الشمس حتى كانوا على أهبة الرحيل ، فقوضوا الخيام وركبوا حسب النظام الموضوع ، وألفونس ويعقوب سائران على انفراد وهما صامتان . أما ألفونس فقد كان يمشي ويلتفت الى طليطلة وكان بعضها لايزال ظاهرا ، وبعد هنيهة عبروا الجسر فوق نهر التاج وكان عبورهم آخر عهد ألفونس بمرأى تلك المدينة لأنها توارت وراء التلال

سارت الحملة بأثقالها وأحمالها نحو الجنوب الغربى ، وقد صحا الجو وأشرقت الشمس وأرسلت أشعتها على البساتين والغياض والأودية والتلال ، وألفونس يعجب لما يقع بصره عليه من البقاع

الخصبة وفيها أصناف الأشجار والمغارس ، ولكنه استغرب لخلو المزارع من الناس ، ولم يكن يتوقع أن يرى فيها غير العبيد أو من جرى مجراهم من الفلاحين والحراثين ، وكان الأشراف وأصحاب الضياع يعاملونهم معاملة الأرقاء ، وهم يقيمون فى المدن ويندر من يقيم منهم فى المغارس . وكانت أوربا فى ذلك العصر مؤلفة من المدن والضياع . فالمدن مقر الحكام والأشراف ، أما الضياع فكانت عبارة عن المغارس يقيم فيها الفلاحون ويعملون فى الأرض . وهم والأرض وما عليها من الدواب والماشية ملك للأشراف (١)

وكان ألفونس قلما يخرج من المدن ، ولم يكن يهمه التفكير فى حال أولئك الفلاحين .. ولكنه بعد ما دار بينه وبين أوباس بشأن المثلث وما عزموا عليه من تحرير أولئك الأرقاء والاعتماد عليهم فى تحرير المملكة ، أصبح همه دراسة حال البلاد وأهلها . فاذا هم يمرون فى أرض لا يظهر أهلها عناية بزراعتها واستثمارها ، وقلما شاهدوا فيها أحدا من الناس . فلما تكرر ذلك المنظر حوله التفت الى يعقوب ، وكان راكبا جوادا وراء جواده ، فلما رأى ألفونس يلتفت اليه ساق جواده حتى حاذاه ونظر اليه نظرة مستفهم . فقال ألفونس بصوت منخفض : « كنت أتوقع أن أرى المزارع آهلة بالناس وقد قطعنا مسافة طويلة فى أرض عامرة ولم أشهد أحدا ... »

---

(١) كيزو — تاريخ تمدن أوروبا

فقال : « ان الناس كثيرون ولكنهم تعودوا اذا رأوا جندا مارا أن يختفوا من وجوههم .. فرارا مما قد يكلفونهم به من الأعمال الشاقة وما قد يتطلبونه من المؤونة ونحوها . ولم يخطر لهم أن جنودا يمكن أن يسيروا مثل سيرهم هذا لايتعرضون لأحد منهم فى شيء . والجند لم يسر بهذا الهدوء الا بأمر مولاى » .

فتأثر ألفونس من ذلك القول وتمثل له الخطأ الذى ترتكبه الحكومات الظالمة فى تكليف رعيتها فوق طاقتهم فتعود الخسارة عليها وعليهم ..

قضى ألفونس وحملته فى الطريق بضعة أيام قطعوا فى أثنائها سهولا خصبة ، وجبالا فيها كثير من مناجم الفضة والذهب ، وأودية يسيل فيها الماء فيستقى الغياض والبساتين ، وأرض الأندلس من أحسن البلاد خصبا وعمرانا وانما تحتاج الى من يتعهدها بالغرس ويظللها بالعدل ، فضلا عما كان فيها من المدن العامرة . وكانت أول مدينة كبرى مروا بها هى مريدة ، فقطعوا نهر أناس وساروا بضعة أيام أخرى الى قرطبة فعبروا نهرها وساروا الى استجة ..

— ٤٢ —

استجة

وكانت استجة مدينة آهلة بالسكان على الضفة اليسرى لنهر

سنجيل حولها سور متين عليه الأبراج من صنع الرومان . ولابد للقادم اليها من قرطبة ان يعبر على جسر فوق ذلك النهر ، فلما دنوا من المدينة فى الضحى بعث ألفونس رسولا بكتاب رودريك الى حاكمها ، فعاد الرسول ومعه نفر من جند المدينة وبيد كبيرهم أمر بتسليمهم القلعة الكبرى المشرفة على النهر من يمينه ، والنهر بينهم وبين المدينـة ، وهى قلعـة كبيرة بنيت لاقامة الجند . فاحتلوها وسار ألفونس الى غرفة فيها .. هى أحسن غرفهـا وأوسعها ، وله نافذة مطلة على النهر والمدينة ، وعلى ماوراءهما وبينهما من البساتين والمزارع

صعد ألفونس الى غرفته وكان يعقوب قد سبقه اليها وأعد له ما قد يحتاج اليه من لوازم الراحة ، وأمر بعض الخدم فأعدوا طعاما حمله هو اليه فوضعه على مائدة فى تلك الغرفة ودعاه اليها

وكان ألفونس منذ صعوده الى الغرفة قد جلس الى النافذة وخلا بنفسه ، فتذكر حبيبته وعمّه ومجيئه الى تلك المدينة رغم ارادته ، وليس هناك مايدعو الى ذلك سوى سعى رودريك فى ابعاده عن حبيبته . ثم تصور القصد من ابعاده عنها وما قد يكون فى عزم رودريك بشأن فلورندا ، فاقشعر بدنه وأحس كأن ماء يغلى يصب على رأسه . ثم تذكر الاحتياطات التى اتخذها لانقاذ فلورندا من ذلك القصر فهدأ روعه

وفيما هو فى هذه الهواجس سمع وطء أقدام فى الغرفة فالتفت فرأى يعقوب واقفا ويداه متقاطعتان على صـدره كأنه يسمع

صلاة .. فلما وقع نظره عليه هرول يعقوب نحوه وهو يبتسم ويقول : « ألا يأمر مولاى بتناول الغداء ..؟ »

فلم يصبر ألفونس عن الابتسام وقد انشرح صدره ، فوقف وأسرع الى المائدة بدون أن يتكلم ، وسار يعقوب فىأثره فجلس ألفونس وظل يعقوب واقفا مثلما يقف الخدم ، فأشار ألفونس أن : «اجلس» فأبى واعتذر . فقال ألفونس : « لم يعد يليق بى أن أعدك خادما بعد ما علمته من علو همتك وتمسكك بنصرة الحق..»

فقال يعقوب : « العفو يامولاى ، انك لم تعلم عنى شيئا بعد وما هى الا أقوال سمعتها ، فاذا رأيت منى عملا كبيرا ورأيت بعد ذلك اننى أستحق مجالستك أو مؤاكلتك فعلت .. »

فتذكر ألفونس وعده بكشف السر بعد وصوله استجة ، فلم يشأ أن يذكره بذلك لئلا يكون الجواب تسويفا فصبر حتى يكاشفه هو من تلقاء نفسه ، ولكنه قال له : « لك الخيار يايعقوب فيما تفعل . ثم انى فهمت من بعض أقوالك أنك تعلم قصة فلورندا وحديثها .. »

فأشار يعقوب برأسه أن : « نعم »

فقال الفونس : « فما رأيك فى شأنها وشأننا وهى لا تعلم مقرّنا ، ولا عمّى يعلمه .. ألا ترى أن نبعث اليهم بالخبر كى يحضرا الينا ونحن هنا بعيدون عن ذلك الطاغية ..؟ »

فقال : « لا تقل اننا بعيدون.. أتظن رودريك أبعدك عن قصره وأغفل أمرك ؟.. ألا تعلم ان معظم رجال هذا الجند عيون عليك

يراقبون حركاتك ، لعلهم يتقربون الى البلاط الملكى بالايقاع بك ؟ واذا هرمت الدولة واختلت شئونها كثر فيها الجواسيس وتعددت أسباب الوشاية ، وفسدت النيات وأصبح الأخ عينا على أخيه ، والابن عينا على أبيه . يساعدهم على ذلك انغماس الملك فى الترف وانشغاله به عن سياسة رعيته مع ما يحول من أهل التملق بينه وبين المتظلمين . فلا تثق بأحد ولا تأمن أحدا الا اذا رأيت له فى اخلاصه منفعة أو كانت مصلحته ومصلحتك سواء .. حتى يعقوب هذا .. » قال ذلك وأشار بسبابته الى صدره .

فعجب ألفونس لما سمعه ولم يكن قد اختبر شيئا من شئون الناس ، ولا اطلع على فساد الطبيعة الانسانية ، فسكت وعاد الى الأكل حتى فرغ من الغداء ويعقوب لايزال واقفا بين يديه

فلما نهض ألفونس عن المائدة قال يعقوب : « استرح — يامولاى — الآن وائذن لى بالنزول الى المدينة ثم أعود اليك قبل الغروب ، وفى الغد ننزل اليها معا لنرى أسواقها وساحتها »

فأدرك ألفونس بغتة أن الغد يوم أحد ، فقال : « ونسمع القداس أيضا »

فقال يعقوب : « نسمعه يا سيدى . وسنبحث فى الأمر غدا .. هل يسمح لى مولاى بالانصراف ؟ »

قال : « انصرف ، وقبل انصرافك ابعث الى بالقائد ومبا لأخاطبه فى أمر الجند »

قال يعقوب : « سمعا وطاعة » .. وخرج

وعاد ألفونس الى مجلسه بجانب النافذة وهو لايزال بملابس السفر ، وعاد الى التفكير فى فلورندا وأوباس ورودريك حتى فطن الى أقوال يعقوب ، فانبسطت نفسه بقرب موعد المكاشفة . ثم سمع وقع أقدام بالباب فتحول لملاقاة ومبا ، فدخل وألقى التحية ووجهه منبسط اشارة الى ما يكنه من الاحترام لألفونس والغيرة عليه ، فرد ألفونس التحية وسأله عن حال الجند ، فقال : « انهم فى نظام وسلام يدعون للقائد الباسل بالرغد والظفر »

فقال ألفونس : « هل سمعتم شيئا عن أحوال السكان هنا ؟ »

قال ومبا : « سمعنا أنهم فى هدوء لايبدون حراكا ، ولعلهم ركنوا الى السكينة على أثر سماعهم بقدومنا »

قال : « أرجو ، على كل حال ، أن تسهروا لمراقبة الأحوال ، وتواصلوا استطلاع الأخبار ولى فى درايتكم ما يكفل الاطمئنان»

وفهم ومبا ــ عند ذلك ــ من كلام ألفونس واشاراته أنه فرغ مما يريده ، فحيّاه وخرج من الغرفة . ولمّا خلا ألفونس بنفسه نهض فبدل ثيابه وعزم على البقاء بقيــة ذلك اليوم فى الغرفة للاستراحة من متاعب السفر

ــ ٤٣ ــ

يوم الأحد

ولما مالت الشمس الى الغروب ولم يرجع يعقوب ، استبطأه.

ألفونس وانشغل خاطره عليه ، وجلس الى النافذة المطلة على الجسر — ولا بد لمن يخرج من المدينة الى القلعة من المرور على هذا الجسر — ولم تمض برهة حتى رأى يعقوب قادما وقد تأبط صرة فظنه ألفونس قد جاءه بشيء من فاكهة المدينة ، فصبر حتى وصل الى القلعة ولبث ينتظر دخوله عليه . فأبطأ يعقوب ثم سمع خطواته ، وبعد قليل دخل وحيًا ويداه فارغتان

فقال ألفونس : « ما الذى حملته الينا من المدينة ؟ ».

قال يعقوب : « لم أحمل منها شيئا لأننا ذاهبون اليها غدا »

قال ألفونس : « رأيتك متأبطا شيئا فما هو ؟ »

فضحك يعقوب وقال : « لا شيء !.. »

فاشتدت رغبة ألفونس فى استطلاع حقيقة ذلك الشيء فقال : « هل ثمة ما يمنع اطلاعى علية ؟ » ..

قال : « انتظر الى الصباح يامولاى ولابد من اطلاعك عليه »

وفى الصباح التالى نهض ألفونس وهو شديد الشوق لمعرفة ما فى الصرة ، ولم يكد ينهض من الفراش حتى جاءه يعقوب بالثياب فغسل وجهه ومشط شعره ولبس ثوبه استعدادا للنزول الى المدينة ، وهو يتظاهر بالصبر على استطلاع ما فى الصرة حتى يأتيه بها يعقوب من تلقاء نفسه . فلما فرغ ألفونس من كل شيء ولم يبق الا الخروج ، دخل يعقوب والصرة فى يده ، وأغلق باب الغرفة وراءه . فوقف ألفونس واستعد لمشاهدة ما فيها ، ففتحها

يعقوب وأخرج منها شيئا من نسيج أسود شبيه بأقبية الكهنة ، واذا هما ثوبان أسودان كل منهما جلباب طويل يغطى الساق الى أسفل القدم . فتناول يعقوب أحدهما وبسطه وقدمه الى ألفونس وهو يقول : « ألبس هذا الجلباب يا مولاى » فوضعه ألفونس على كتفيه والتف به فغطى كل أثوابه ، ولبس يعقوب الجلباب الآخر والتف به ، ثم مدّ يده الى طوق ذلك الجلباب من خلف العنق فأخرج منه شيئا كالكيس معلقا من أحد جوانبه بالطوق من الوراء ، وأرسل ما بقى منه على رأسه حتى اشتمل على الرأس والوجه جميعا . وفى غطاء الوجه ثلاثة ثقوب ، ثقبان للعينين وثقب للفم فأصبح يعقوب شبحا أسود . وتقدم الى ألفونس فأخرج الكيس من قفا عنقه وألبسه اياه حتى صار مثله ، وكان يعقوب يفعل ذلك وألفونس صابر ليرى نهاية هذه العملية . فلما فرغ يعقوب من ارتداء الجلباب ، قال : « هذا الذى أتيتك به من أستجة فانزعه الآن الى حين الحاجة »

فاستغرب الفونس مما عمله يعقوب ، وقال : « ومتى نحتاج اليه .. ؟ » ..

قال : « قريبا ان شاء الله .. لا تكن لجوجا .. » قال ذلك ونزع جلبابه والجلباب الآخر عن الفونس ، وطوى كلا منهما على حدة وجعل أحدهما تحت درعه من جهة الصدر. وأرخى الدرع عليه حتى اختفى تحتها ، وأتى بالجلباب الآخر وطواه وطلب الى الفونس أن يخفيه تحت درعه ، ففعل وهو لا يفهم

الغرض من ذلك . ثم قال يعقوب : « هلم بنا الى الكنيسة .. »

وبينما كان يعقوب والفونس فى طريقهما للخروج من القلعة ، التقيا عند الباب بومبا ، فوقف للتحية فقال الفونس : « انى ذاهب الى الكنيسة فاحفظ ما عندك .. » فأشار ومبا برأسه ويده بالسمع والطاعة

سار الفونس ويعقوب يتبعه ، وليس معه من الخدم والأعوان سواه ، حتى مرا على الجسر ، ودخلا باب المدينة وهما لايتكلمان لأن يعقوب لايتقدم على الكلام الا جوابا على خطاب جريا على عادتهم فى معاملة الملوك . وكان الفونس غارقا فى الهواجس لا ينتبه لشيء مما حوله ، فقد كان مشغول البال بفلورندا وروردريك وحديث يعقوب وذلك الثوب الأسود . ولم يفق من تلك الخواطر حتى دخل الأسواق والناس يتسابقون فيها نحو الكنيسة . وبعد هنيهة أفضى بهما المسير الى ساحة كبيرة فى وسط المدينة هى ملتقى الناس من كل ناحية . ولم يكن الفونس يعرف الطريق الى الكنيسة وانما كان يقتفى خطوات يعقوب أو اشاراته . وبعد أن قطعا تلك الساحة أطلا على باب فخم تزاحمت عنده الأقدام بين داخل وخارج فوقف يعقوب هناك وقال : « هذا باب الشارع الأعظم وهذه هى الكنيسة .. » وأشار بيده الى باب كبير بجواره .. فاتجها نحوه ودخلا مثل سائر الداخلين والناس لايعلمون من هو الفونس ، ولكنهم تبينوا من استرسال شعره ونوع لباسه. انه من الأشراف وأصحاب المناصب

قضيا فروض الصلاة فى تلك الكنيسة وهما لايزالان صامتين. فلما انقضت الصلاة وخرج الناس ، خرجا والفونس لايدرى الى أين يذهب فتأخر حتى مشى يعقوب ، ثم تبعه حتى خرجا من باب المدينة من الجهة الأخرى . فاستغرب الفونس ذلك ، ولم يستطع أن يمسك نفسه عن السؤال ، فالتفت الى يعقوب وقال له : « الى أين نحن ذاهبان فى هذه المدينة ؟ .. »

قال : « اننا ذاهبان الى هذه الأكمة » وأشار الى تل قريب لا شيء من العمارة فيه . وما لبثا ان وصلا اليه حتى صعدا الى قمته والفونس لايفهم ماذا وراء ذلك ، فقال يعقوب : « انظر يامولاى الى استجة أمامنا .. وانظر الى سورها فانك ترى على هذا السور برجا عاليا .. »

وكان الفونس يرى ذلك البرج جيدا لأنهما على مقربة من المدينة فقال : « نعم »

فقال يعقوب : « اذا جئت هذا المكان فى الليل فلا تخطىء هذا البرج لارتفاعه فوق السور وليس على السور برج سواه . احفظ هذا ، واتبعنى الآن » قال ذلك وانحدر عن التل الى الجهة الأخرى فاذا هو أمام كهف مهجور وقف ببابه والفونس الى جانبه فقال له : « أرأيت هذا الكهف ؟ »

فقال الفونس : « نعم رأيته .. »

قال يعقوب : « فلنرجع الى المدينة نقضى بقية النهار ثم نعود الى هنا .. »

– ٤٤ –

الدرس والسرداب

وكان الفونس يتوقع الاطلاع على شيء من السر ، فلم يزدد الا حيرة واستغرابا .. فقال : « وأين نقضى هذا النهار ، فانه طويل عندى ؟ .. »

قال : « سأجعله قصيرا جدا » ومشى ، فمشى الفونس فى اثره حتى دخلا المدينة ، والفونس ينظر الى البرج ويتأمله . وما زالا سائرين فى الأسواق حتى انتهيا الى درب ضيق يؤدى الى باب صغير فقال يعقوب : « انتظرنى يامولاى هنا ريثما أعود » ودخل ثم عاد وأشار اليه فدخل ، وعلم مما رآه من الأدوات المنزلية ان البيت مأهول لكنه لم ير فيه أحدا . فدخل يعقوب غرفة من غرف البيت والفونس معه ، وقد مل الانتظار وكاد الحنق يخرجه عن جادة الصبر

أما يعقوب فانه أغلق باب الحجرة ، ثم أجلس الفونس على بساط وجثا الى جانبه وقال : « سأتلو عليك يامولاى ألفاظا غريبة لابد لك من حفظها .. »

قال : « ولماذا .. ؟ »

فقال يعقوب : « ان ما ستتعلمه الآن من الألفاظ والاشارات انما هو مفتاح السر وطريق العمل .. »

فأصغى الفونس اليه وقال : « قل ما تريد ... »

فقال يعقوب : « قل : شالوم عليخيم » فقالها الفونس ولسانه يتعثر بالعين والخاء ، فكررها يعقوب عليه حتى حفظها ثم قال له : « قل : أوهيل موعيد » فقالها وكررها حتى تعلمها . ثم نهض يعقوب وأمسك الفونس بيده وقال له : « قف يامولاى » فوقف فتقدم يعقوب أمامه بضع خطوات على نسق غير مألوف بين الناس ، وقال له : « اخط ياسيدى مثل هذه الخطوة » ففعل وكررها حتى أتقنها . ثم علمه اشارات يجريها بيديه أو أصابعه وغير ذلك والفونس كالببغاء يتعلم الألفاظ ويخطو الخطوات ويقوم بالاشارات وهو لايفهم لها معنى ..

قضى بقية اليوم فى نحو ذلك .. فلما غربت الشمس خرجا والفونس لايزداد الا استغرابا ، وقد نسى كل مشاغله بفلورندا وأوباس فى أثناء ذلك . وما زالا حتى خرجا من باب المدينة وكانت ليلة صاحية لكنها شديدة البرد . فصبرا على بردها حتى بلغا الأكمة وصعدا اليها والتفتا الى السور ، ثم تفرسا فيما حولهما فلم يجدا أحدا . لأن الناس يأوون فى الليل الى منازلهم داخل السور . فنزل يعقوب الى الكهف والفونس يتبعه حتى وقفا ببابه ولم يريا بداخله سوى الظلمة الحالكة . فدخل يعقوب ويده بيد الفونس فمشى به بضع خطوات والفونس يتلمس ويخطو كأنه يمشى على الشوك وهما صامتان . ثم وقف يعقوب وقال لألفونس : « اخرج جلبابك » فأخرجه وساعده يعقوب على

لبسه فلما لبسا الجلبابين أصبحا سوادا فى سواد ، ومشيا خطوات أخرى ويعقوب يقود الفونس ثم وقف يعقوب بغتة .. فشعر الفونس بوقوفه المفاجىء فخشى ان يكون عليهما بأس من ذلك . ثم احس ان يعقوب قد انحنى نحو الأرض ، وما لبث ان سمع خربشة كأن يعقوب يبحث بأنامله فى الأرض ، ثم ترك يعقوب يد الفونس فظل الفونس واقفا وقوف الصـــنم لايدرى الى أين يتجه لاشتداد الظلام

وكان يعقوب قد ترك يد الفونس لتتفرغ يده لرفع حجر ثقيل . فمضت بضع دقائق والفونس واقف لايتحرك ، ثم سمع صوت اقتلاع الحجر ، وأحس بنسيم بارد خرج من الفتحة ، واذا بيعقوب يقول له بصوت منخفض : « اتبعنى يامولاى فى هذه الفوهة على مهل» ونزل وتبعه الفونس ونزل سبع درجات ، فانتهيا الى سرداب يسع الانسان واقفا ، فمشيا فيه ويعقوب يقود الفونس وهما يتلمسان طريقهما . وشعر الفونس كأنهما يسيران فى دائرة ، ثم سارا فى خط مستقيم مع انجدار خفيف والظلام يتكاثف .. وبعد هنيهة وقف يعقوب وقال لألفونس : « امكث هنا يامولاى ولا تغير مكانك ريثما أعود اليك » . وتركه ومشى ، لا يسمع لخطواته وقع ، فأحس الفونس بوحشة غريبة . ومضى على غياب يعقوب دقائق ظنها الفونس ســاعات حتى مل الانتظار ، وحدثته نفسه ان يخطو فى أثره ولكنه تذكر وصيته اياه بالبقاء هناك ، فوقف ولكن الانسان يهوى استطلاع

المخبآت ولو ألقى بنفسه فى الخطر ، على انه نسى الجهة التى كانا سائرين فيها ومد يده الى ما حوله فلم تلمس شيئا فتوهم انه فى خلاء واسع . وفيما هو فى هذا الارتباك رأى نورا خفيفا عن بعد ، ورأى ذلك النور يقترب منه حتى تبين حامله ، فاذا هو رجل بجلباب اسود مثل جلبابه فظنه يعقوب فناداه باسمه فلم يسمع ردا ، فحسب ان سكوته تسترا ، ثم رأى وراء ذلك الشبح شبحا آخر فى مثل ملابسه وقد كشف عن وجهه فاذا هو يعقوب ، فعلم الفونس انه اقترب من المكان المقصود

ولم يكد يفكر فى الأمر حتى أسرع يعقوب اليه وأمسك بيد فنظر الفونس فى وجهه على نور المصباح ، فرأى لحيته قد ازدادت اضطرابا وقذارة وازداد وجهه غرابة لما تولاه من الاضطراب ، فخشى الفونس ان يكون عليهما بأس من ذلك المكان . ولكنه أسلس قياده الى يعقوب ، فأمسكه وسار به والرجل الثالث يسير بين يديهما بالمصباح ويعقوب يحذر الفونس مما بين يديه ، فنظر فى الأرض فرأى فيها حفرا جمة يخشى الماشى السقوط فيها حتى على النور فكيف فى الظلام . وأدرك السبب الذى حمل يعقوب على احضار المصباح ، فمشى مشية الحذر والتأنى بضع دقائق ثم انطفأ المصباح ، وعاد الظلام كما كان فصاح الفونس فى غير انتباه : « لا » فضغط يعقوب على يده أن « اسكت » وهمس فى أذنه : « لقد وصلنا »

— ٤٥ —

الجلسة

وكان الفونس قد ضاقت انفاسه من القناع المنســدل على وجهه فرفعه وتنفس الصعداء ثم أرخاه ، واذا بيعقوب قد وقفه وهمس فى أذنه أن يفعل مثلما فعل بعد فتح الباب ، ومهما رأى فلا يخاف ثم قرع بابا قرعا متواليا سبع مرات على أســلوب خاص ، ولبث برهة ثم طرقه ثانية ثلاث مرات بنسق آخر، فانفتح الباب عن دهليز قصير فيه نور ضعيف ، والى كل من جانبى الباب رجل بمثل جلبابيهما ، وبيده سيف مسلول ، والسيفان كالقوس فوق عتبة الباب ، فأجفل الفونس وتقهقر فسمع يعقوب يقول : « شلوم عليخم » فقالها هو أيضا ، ودخلا والسيافان لايتحركان كأنهما صنمان ، فمشى يعقوب فى ذلك الدهليز المشية الخاصة التى علمها لألفونس فى ذلك النهار، فمشى الفونس مثلها وهو يتعثر لاضطرابه وارتباكه ، حتى وصل الى باب مغلق فقرعه بنسق خاص خمس قرعات ، فانفتح الباب وانطفأ النور معا ، فأجفل الفونس ولكنه تذكر وصية يعقوب فثبت جنانه ، وسمع صوتا يخاطبه بلغة لم يفهمها ، وسمع « يعقوب » يقول له : « أوهيلَ موعيــد » فقالها هو أيضا ، ومشيا فى تلك الظلمــة والفونس يحسب نفسه صاعدا على سلم ، ثم انفتح لهما باب

آخر وعند فتحه أحس الفونس بهواء دافىء خارج منه تخالطه رائحة الأنفاس ، فشعر بالدفء ونسى ما كان يشعر به من البرد فى السرداب ، ودخلا من الباب فأشرفا منه على قاعة كبيرة فى وسطها شبه مائدة عليهـا سراج مضىء وبجانبه درج كبير ، وحول الجدران مقاعد عليها أشباح سوداء بمثل جلبابه ووجوههم مغطاة بمثل نقابه ، وأمام كل منهم سيف مسلول وفرنده يلمع بنور السراج الضعيف . فاضطرب لذلك المنظر الهائل ، وظن نفسه فى حال مزعج اذ لم يخطر له أن يرى مثل ذلك المنظر فى حياته ولا الدخول فى مثل هذه المخاطرات

على انه التفت الى جانبه فاذا بيعقوب قد مشى بخطوات كان قد علمه اياها ، فمشى مثله حول المائدة والسراج مرتين ، وقبّل الدرج وهو عبارة عن لفافة غليظة من جلد . ثم مشيا الى كرسيين فى صدر القاعة خاليين ، فجلسا عليهما وأمامهما سيفان مسلولان

فالتفت الفونس الى ماحوله فلم ير الا أشباحا سوداء بشكل واحد وقيافة واحدة ، وندم لمجيئه على تلك الصورة مخافة أن يكون فى خطر ، ثم تذكر ثقته بيعقوب ، فاطمأن باله ولبث ساكتا والجميع سكوت برهة . ثم نهض أحد الحضور عن كرسيه وتقدم الى المائدة وتناول الدرج وفتحه أمام المصباح ، فرأى الفونس عليه كتابة لايفهمها . ولما أخذ الرجل فى القراءة وقف الجميع والفونس فى جملتهم حتى اذا أتم قراءته قبل الدرج ورجع الى مكانه ، وجلس ، فجلس الباقون لا ينطق واحد منهم بكلمة

ثم تكلم الرجل بذلك اللسان كلاما طويلا أجابه عليه بعض الحضور، ثم تكلم يعقوب باللسان القوطى قائلا : «يسمح حضرة الرئيس فيعقد جلسة خاصة يحضرها هو ومن شاء للمداولة فى أمر هام ... » .

فوقف الرجل الأول وبيده سيف صغير وأشار به اشارة خاصة فوقف الجميع ، ثم تقدم منهم ثلاثة وقفوا بازائه وتقدم يعقوب والفونس حتى وقفا معهم ، ثم اتجه الرئيس الى باب وراءه ففتحه ودخل وتبعه الباقون الى دهليز مظلم وصلوا منه الى باب فتحه بيده ودخل الى حجرة مظلمة ، ووقف ببابها وتكلم فجاءه من بين الجماعة رجل بشمعة مضيئة مرتكزة على طبق من البرونز، فتناولها منه ورجع الرجل وأغلق الباب وراءه . فدخل الرئيس بالشمعة حتى وضعها على حجر مرتفع فى أحد جوانب المكان

— ٤٦ —

كشف السر

ونظر الفونس فى ذلك المكان فاذا هو حجرة صغيرة جدرانها سوداء ، وسقفها اسود ، وفى أرضها صندوق كالتابوت الكبير فوقه درج صغير ، وحول التابوت بساط جلسوا عليه ، والتابوت فى وسطهم . فتأثر الفونس من ذلك المنظر الرهيب وخفق قلبه لهول ما شاهده من الغرائب فى تلك الليلة ، وقد نفد صبره

لمشاهدة أشباح سوداء لايرى لها وجوها ولايدرى من يكونون
فلما جلسوا تكلم يعقوب بالقوطية قائلا : « هل يظن الرئيس ان الطعام قد نضج .. ؟ »
قال الرئيس : « انت أدرى منا بنضجه لأنك موقد ناره ».
فقال يعقوب : « أرجو أن يكون قد نضج ولكنه يحتاج الى أدم كثير لأن الطعام بلا أدم لايؤكل ... »
فقال الرئيس : « الأدم كثير ، ومنه فى هذا الصندوق ما يطبخ به طعام العالم بأسره ، فضلا عن أمثاله مما يحمل الى المطبخ عند الحاجة .. »
فلم يفهم الفونس مغزى تلك الرموز ولم يصبر عن الكلام فقال : « أما وقد خلونا فى هذا المكان ونحن بضعة رجال فأرجو أن يكون الكلام صريحا ... »
فتنهد الرئيس ولم يجب ، أما يعقوب فانه جثا منتصبا على ركبتيه والتفت الى الفونس وقال : « الصريح ان المادة التى تنقصك لاتمام مشروعك انما هى فى عشرات من أمثال هذا الصندوق ، جمعت فيها منذ أعوام ولكنها لا تبذل الا عند الحاجة .. » قال ذلك وأومأ الى الرئيس ، فأخرج من جيبه مفتاحا فتح به التابوت ، وحين رفع الغطاء أبرق ما تحته أصفر زاهيا . فنظر اليه الفونس فاذا هو نقود ذهبية خالصة ، ثم أغلقه الرئيس وأعاد المفتاح الى جيبه
فاندهش الفونس لمنظر ذلك الذهب وأدرك انه بين جماعة من

ذوى المقـدرة . وأحب أن يستطلع حقيقتهم فقـال : « أراكم تبالغون فى التستر ونحن انما اجتمعنا لنتداول فى هذا الأمر المهم فمن أنتم .. ؟ »

فالتفت اليه الرئيس وقال : « لا تطمع فى الكشف عن شيء غير الذى تراه ، واعلم انك عرفت شيئا لم يعرفه أحد من الذين رأيتهم فى الحجرة الأخرى ، وهم يجتمعون معنـا منذ أعوام وفيهم من يبذل ماله وروحه فى سبيل ذلك الغرض .. »

فتكلم عند ذلك يعقوب وقال : «يكفى مولاى ماقد شاهده ، وليعلم ان فى اسبانيا ألوفا من أمثال هؤلاء المظلومين وعندهم الأموال المختزنة فى الصناديق ، وهم على استعداد لأن يبـذلوا أنفسهم فى خدمتك فضلا عن أموالهم .. »

فلما سمع الفونس قوله : « المظلومين » أدرك انه بين يدى جمعية سرية تتواطأ على قلب الحكومة ، وتذكر ما كان يسمعه من كلامهم الغـامض فخطر له ان يكونوا يهودا ، ولكنه يعلم ان اليهود قد انقرضوا من تلك المملكة ، اما بالنفى أو بالقتل أو باعتناق النصرانية (١) فقال ليعقوب : « قد فهمت السر فالأولى أن تفصح وانت أعلم الناس بعزيمتى وقصدى وقصد والدى من قبلى .. »

فعند ذلك التفت يعقوب الى الرئيس وقال : « ينبغى لى أن أكاشف كلا منكما بسر الآخر . اعلم ياحضرة الرئيس ان الرجل

(١) دوزى — الجزء الاول

الذى جئتكم به الليلة هو نصيرنا الوحيد فى هذه الديار ، واذا قلت لكم من هو هان عليكم مكاشفته بأمرنا .. انه الفونس ابن المرحوم غيطشة ملك اسبانيا وهذا يكفى »

ولم يتم كلامه حتى ابتدره الرئيس قائلا : « لعله على عهد والده تماما .. ؟ »

قال : « نعم هو نصير المظلومين ، وقد عول على السعى فى انقاذنا من هذا الطاغية اللعين الذى يسمى نفسه ملكا. وانما يعوزه المال وهو عندنا . فاسمح لى بعد هذا التصريح أن أنبئه بحقيقة الأمر » . قال ذلك وحول خطابه الى الفونس قائلا : « اعلم أيها الملك ــ وأنا أدعوك ملكا لأننا لا نعرف ملكا على اسبانيا سواك ــ اعلم انك فى جمعية اسرائيلية وكل الذين رأيتهم فى هذه الجلسة يهود لايزالون على دين آبائهم وأجدادهم ، ينوبون عن ألوف من أهل هذا الدين منتشرين فى أنحاء المملكة الاسبانية ، يتظاهرون بالنصرانية فيحضرون القداس فى الكنائس ، ويتناولون القربان ويقومون بسائر الفروض المسيحية رياء منهم . وهم فى الحقيقة يهود يصلون فى خلواتهم سرا ، وكان منهم فى الكنيسة فى صباح هذا اليوم مئات ، وقد رأيناهم يسجدون أمام الايقونات ويتلون الصلوات تظاهرا محضا . وربما سمعناهم يدعون بنصر رودريك وهم يودون قتله . وقد صبروا على هذا الظلم وكظموا الغيظ أعواما ، وهم يجمعون المال ويختزنونه لاغتنام مثل هذه الفرصة لرفع هذا النير عن كواهلهم ، حتى اذا كادوا يبلغون بغيتهم على

يد والدك المرحوم استدله أهل المطامع بهذا الطـاغية ، وهو لا يستحق هذا المنصب بل انت هو صاحبه الشرعى فنرجو أن تكون النجاة على يدك .. » .

فلما سمع الفونس قوله انجلت له الأسرار التي ما برح يود الاطلاع عليها منذ خاطب عمه أوباس بهذا الشأن . فاكتفى بما رآه وسمعه ، وأجّل استطلاع مابقى من الغوامض الى فرصة أخرى .. ولبث صامتا يراجع ما مرّ به من الألغاز ، فرأى انه ينقصه أن يعرف وجوه أولئك الناس ولا سيما بعد أن عرفوه باسمه ، وكان يعقوب قد أدرك غرضه فقال له : « ولا يطمع مولاى الآن فى الاطلاع على ما وراء ذلك » ...

فقطع الفونس كلامه قائلا : « لا أطلب الاطلاع على شىء سوى معرفة هؤلاء الأفاضل الذين أنا فى حضرتهم ولا سيما بعد أن عرفونى »

فقال يعقوب : « كلا يامولاى .. ان ذلك ممنوع عندهم حتى فيما بينهم ، وقد لجأوا الى هذا التستر خوفا من أن يبوح أحد بأمرهم حتى من اخوانهم ، فأنت الآن بعد أن اطلعت على هذه الأسرار المهمة تمسى ــ اذا خرجت من هذا المكان ــ كأنك لم تدخله ، لأنك لم تر وجوه الأشـخاص ، فلا يمكنك أن تتهم أحدا من الناس ، وربما كان بعض هؤلاء من رجال الجند أو الكهنة أو العمال أو المزارعين ، وكلهم فى عداد المسيحيين .. ويكفيك أن تعرف واحدا منهم وهو أنا »

فأعجب الفونس بهذا اللون من الاحتياط ، وعلم ان يعقوب يهودى ، وتذكر ما كان يطلبه من التساهل فى أداء الفروض الدينية من الصلوات ونحوها ، وان عمه أوباس كان يساعده على ذلك ، وخطرت له خواطر كثيرة تدور كلها حول علاقة يعقوب بوالدم ، واعتزم أن يستطلع سرّ هذا الأمر فيما بعد .. ثم قطع تيار أفكاره دبيب توالت أصواته فوق رءوسهم فاندهل الفونس ، والتفت نحو السقف فابتدره يعقوب قائلا : « لا تستغرب يامولاى ما تسمعه لأن فوقنا شارع منشوارع المدينة ، والناس يمرون عليه ليل نهار .. وليس فى أهل استجة من يعلم بوجود هذا البناء تحت الشارع الا أعضاء هذه الجمعية » فازداد الفونس استغرابا لما شاهده تلك الليلة من طرق التحفظ ومظاهر الدهاء ، وقال فى نفسه : « ان قوما هذا مبلغ دهائهم وتعلقهم وصبرهم لجديرون أن ينالوا بغيتهم »

— ٤٧ —

طارق جديد

كان الفونس يفكر فى ذلك حين سمع قرعا بعيدا يشبه أن يكون على الباب الذى ينتهى اليه السرداب ، ولكنه وجد ان عدد الطرقات وطريقة ضربها يختلفان عما فعله يعقوب . ثم ما لبث أن رأى الرئيس ويعقوب وسائر الجالسين معه قد أنصتوا

وأصغوا لما عساه أن يعقب ذلك الطرق ، فخشى ان يكون وراء انصاتهم ما يدعو الى القلق ، ولو كانت وجوههم مكشوفة لاستطلع ذلك فى عيونهم وجباههم ، ثم سمع قرعا ثانيا على الباب الآخر بطريقة أخرى ، ولم يفرغ القارع من القرع حتى تحول انصات رفاقه الى الحركة وسمع الرئيس يقول : « لقد جاءنا رسول بخبر جديد ، عساه ان يكون قادما من اخواننا فى الشام أو مصر أو من افريقيا .. »

فاستغرب الفونس أن يتنبأ الرئيس بالرجل بمجرد سماعه وهو يقرع الباب ، وأدرك من قوله ان لهذه الجمعية علاقات واسعة فى الشام ومصر وغيرهما . فإندفع يقول : « كيف عرفت الرجل من مجرد سماع القرع عن بعد ، وهل لهذه الجمعية من أعضاء فى تلك البلاد ؟ »

قال : « عرفته من قواعد موضوعة لهذا الغرض يعرفها أعضاء هذه الجمعية ، وأما سؤالك عن اتساع الجمعية ، فان لها أعضاء فى أنحاء بعيدة أرسلتهم للبحث عن طريقة تتخلص بها من هذا الرق » وسكت هنيهة ثم قال : « ومن هؤلاء الأعضاء اناس قد تصدروا فى مجالس الدول وتقلدوا مناصبها ، ومنهم من يعمل عمل الخدم ويقاسى مرارة الذل والشقاء وهو ليس من فئة الخدم ، بل قد يكون من أهم أعضاء الجمعية ومن أكثرهم بذلا فى سبيلها ، وانما يتزيى بزى الخدم تحقيقا لغرض يعود على الطائفة بالخير » ..

وكان الفونس وهو يسمع كلام الرئيس يشعر بنور يضيء بصيرته ، فأدرك فى الحال ان خادمه يعقوب من بعض كبار هذه الطائفة ، ومن أهم أعضاء هذه الجمعية ، ولكنه ظل يتوق الى استطلاع علاقته بأبيه وعمه لأنهما كانا يعرفان سره على ما ظهر له من كلام أوباس .. فأجل ذلك الى فرصة أخرى ، ولبث ينتظر دخول الرسول القادم . ولم تمض برهة ، وهم سكوت يسمعون صدى الحركات فى القاعة الكبرى ، حتى سمعوا قارعا يقرع باب تلك الحجرة السوداء قرْعا خاصا ، فنهض يعقوب وفتح الباب فدخل منه رجل طويل القامة عليه ذلك الجلباب الأسود ، وعند دخوله توجه نحو الرئيس وكلمه بالعبرية كلاما لم يفهمه الفونس فأجابه الرئيس .. وتخاطبوا برهة بتلك اللغة والفونس لا يفهم . ولكنه استغرب أن يوجه القادم كلامه للرئيس ساعة وصوله ، وهو لايرى فرقا بين مظهر الرئيس وبين سائر الجالسين لأنهم بملابس واحدة ولون واحد ، فتوسم فى ذلك سرا سأل يعقوبا عنه فى أثناء الحديث بين الرئيس والرسول بالعبرية . فقال يعقوب : « لو أمعنت النظر فى ثوب الرئيس لرأيتَ على كتفه علامة تميزه عن سائر الأعضاء ولا تظهر هذه العلامة الا عند التأمل . وفى هذه الجمعية علامة لكل من أصحاب المناصب فيها كالكاتب والخازن وغيرهما ، غير ان هذه العلامات ضعيفة لايراها غير المتأمّل » ..

فتفرس الفونس فى كتف الرئيس فرأى عليها عقدة سوداء

بجانب العنق ، ونظر الى أكتاف الرفاق فرأى على كتف يعقوب عقدة تشبه عقدة الرئيس ولكنها بشكل آخر ، فأراد أن يستفهم منه عن دلالة علامته : فسمع الرئيس يخاطب القادم بالقوطية قائلا : « لقد سرني قدومك الليلة لنسمع حديث رحلتك ، وعندنا الآن من يهمه سماعها ويهمنا اطلاعه عليها ، ونحن في حجرة الخلود وما فينا الا عمدة الجمعية .. فمن أين أنت قادم الآن ..؟»

وكان الرجل قد جلس فى جملة الجالسين حول التابوت فقال : « انى قادم من سبتة وخبرى طويل لا يسمح الوقت بتفصيله ، ولكنى أروى لكم منه ما يهمكم ويهمنا ، ولو كشفت لكم وجهى لرأيتم البشر ظاهرا عليه ، اذ يظهر لى ان زمان أسرنا وذلنا قد انقضى أو قارب الانقضاء .. »

فلما قال ذلك ظهر الاهتمام فى حركات الجالسين وأصغوا وقد تطاولوا بأعناقهم الى المتكلم ، وقال الرئيس : « بشرك الله بالخير . عسى أن يكون قد انقضى أسرنا كانقضاء أسر أجدادنا فى بابل منذ بضعة عشر قرنا »

— ٤٨ —

حديث ذو شجون

فقال الرسول وقد وجه خطابه الى الرئيس : « لا يخفى على حضرة الرئيس انى مقيم منذ أعوام فى سبتة على شاطىء افريقيا

(فى مراكش) وهى وما يليها تابعة لهذا الطاغية صاحب طليطلة الآن مع انه يجب ان تكون تابعة لمملكة الروم الشرقية لأنها جزء من افريقيا ، ولكن الروم تقلص ظل سلطانهم عن افريقيا بما قام به العرب من الفتوح .. ففتحوا كل سواحل افريقيا تقريبا الا سبتة وما يليها فانهم لم يفتحوها ، فالتجأ صاحبها الى اسبانيا وصارت سبتة ولاية من ولاياتها كما تعلمون .. »

فقطع الرئيس كلامه قائلا : « يظهر ان أبناء اسماعيل قد افلحوا فى دينهم الجديد .. »

فأجاب الرجل : « نعم ياмولاى .. » ولم يفهم الفونس معنى هذا السؤال ولا من هم بنو اسماعيل ، ولكنه لم يستحسن أن يقطع الحديث ليستفهم فسكت . وأما الرجل فانه أتم كلامه قائلا: «انأبناء عمنا هؤلاء قد قلبوا العالم بأسره ومدوا سلطانهم علىالعراق والشام وافريقيا وفارس وخراسان الىأقصىالمعمورة»

فازداد الفونس استغرابا لقوله (أبناء عمنا) فالتفت نحو يعقوب فى دهشة . فأدرك يعقوب ما يريد قبل أن يتكلم ، فقال له : « ان العرب الذين قاموا بالدين الجديد هم أبناء اسماعيل بن ابراهيم ، واليهود أبناء أخيه اسحق فهم بهذا الاعتبار أبناء عمنا »

فأصاخ الفونس السمعلحديث المتكلملاتمامالخبر فاذا هو يقول للرئيس : « وقد تنقلت فى أسفارى للتجارة وخدمة الجمعية الى الشام ومصر واختلطت بالناس ، ورأيت كثيرين من اخواننا اليهود الذين استطاعوا التخلص من هذا الذل بالهجرة من هذه البلاد ،

وهم الآن فى افريقيا ومصر والشام ويقيمون فى سلام وسكينة لا يتعرض لهم أحد فى دينهم .. يصلون كيف شاءوا ومتى شاءوا ويقومون بأعمالهم وتجاراتهم فى أمان وسهولة ، وليس ذلك شأن اليهود الغرباء فقط ، بل هو شأن كل السكان من كل الطوائف ، لأن اليهود كانوا مضطهدين أيضا فى تلك البلاد تحت نير الحكم الرومانى (١) يذوقون العذاب ألوانا ، كما كنا نذوقه منذ بضع قرون قبل أن يجبرونا على النصرانية أو الهجرة أو القتل ، واضطررنا الى الفرار أو التظاهر بالنصرانية كما تعلمون (٢) . وأما اخواننا فى مملكة الروم فكانوا أحسن حالا منا ومع ذلك فانهم لم يصبروا على ذلك الضيم ، وكثيرا ما كانوا يفتكون بالنصارى ويقاومون الحكومة ، فلما جاء أبناء اسماعيل لفتح بلادهم كانوا من أعوانهم على ذلك . وقد أحسنوا صنعا لأنهم تحرروا من رق الروم واستبدادهم ، وأمنوا على أرواحهم وأموالهم وخفت عنهم الضرائب وهم فى نعيم »

فقال الرئيس : « وكيف كان ذلك ؟.. ألم يخرجوا من سلطان الى سلطان ، ومن ضريبة الى ضريبة ؟.. ألم يحكّم العرب فيهم سيوفهم أو نفوذهم ؟.. ألم يفرضوا عليهم الضرائب ؟.. »

قال : « بلى يامولاى .. ان العرب فتحوا تلك البلاد بالسيف أو بالصلح وصارت تحت سلطانهم ، ولكنهم فى الحقيقة قلما يمارسون شيئا من أمورها حتى انهم لا يقيمون فى المدن ولا

(١)،(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ـ الجزء الاول

يختلطون بالرعايا الا نادرا وفى أوقات معينة ولأغراض وقتية..»[١]

فقطع الفونس كلامه قائلا : « وكيف يكون ذلك ؟ .. وأين يقيمون ؟.. وكيف يحكمون البلاد وهم لا يقيمون فيها ؟ .. »

قال : « لا ألومك على استغرابك ذلك لأنه غير مألوف فيما تعرفونه فى هذه البلاد حيث يدس الحكام أنوفهم فى كل حركة من حركات الناس بل هم يعدون الرعايا عبيدهم . وأما هؤلاء العرب فانهم بعد أن فتحوا تلك البلاد وفرضوا عليها الجزية والخراج نزلوا فى ضواحيها ، وابتنوا لأنفسهم مدنا لا يقيم فيها سواهم ، كالقيروان فى افريقيا ، والفسطاط فى مصر ، والبصرة والكوفة فى العراق ، وتركوا أهل البلاد الأصليين على ما كانوا عليه فى أيام الروم أو الفرس ، كل منهم على دينه واعتقاده يقوم بعمله ولا يهمه الا ما يستحق عليه من الخراج أو الجزية كل عام . وهى ضرائب زهيدة لا تقاس بما كان الروم يسومون رعاياهم من أمثالنا . وكان الناس عند أول الفتح أهنأ عيشا منهم الآن ، وذلك لظلم بعض عمال بنى أمية .. ومنهم عامل فى العراق اسمه الحجاج ، شديد الوطأة على أهل البلاد يطالبهم بالخراج الكثير لحاجته اليه فى الحروب ، ولكن الملك الأكبر الذى يسمونه الخليفة يقيم فى دمشق الشام ، وكثيرا ما يبعث الى عماله أن يعودوا الى الرفق . ومع كل ذلك فان الرعايا من اليهود أو النصارى أحسن حالا تحت سلطان العرب مما تحت سواه ،

(١) تاريخ التمدن الاسلامى — الجزء الاول

وخاصة اذا عاد العرب الى ما كان عليه خلفاؤهم الأولون من العدل والرفق والمساواة .. ولولاها لم يسهل عليهم الفتح حتى امتد سلطانهم على معظم العالم المعمور فى الشرق »

فقال الرئيس : « ياحبذا لو أنهم يأتون الينا فيستولون على هذه البلاد لأنهم اذا كانوا أخف وطأة من بطارقة الروم فهم اذن أفضل لنا من حكومة القوط ... »

فاعترضه الرجل الرحالة قائلا : « لا يحق لنا أن نشكو من حكم القوط على الاجمال ، فان بعضهم كان كثير الرفق بنا وبخاصة غيطشة الملك السابق فانه كان عازما على تحرير رقابنا واطلاق حرية الدين لنا (١) ولكن المنية عاجلته أو هم عجّلوها له ، فخلفه الطاغية رودريك وهو من أظلمهم جميعا قبّحه الله »

— ٤٩ —

يوليان

فانتبه الرئيس لوجود ابن غيطشة بينهم وأعجبه ما قاله الرحالة من اطراء أبيه فقال : « لقد نطقت بالصواب ، وعلى كل حال فاننا وددنا لو أن هؤلاء العرب يأتون الى اسبانيا . ولا نظنهم يلقون صعوبة كبرى فى فتحها ، اذ ما من طائفة من أهلها لا تشكو من الحكومة » ..

(١) رومى — الجزء الثانى

فقال الرحالة : « ان هذا الأمر الذى تتمنونه وأنتم جلوس هنا قد سعى فيه اخوانكم هناك وأنا فى جملتهم ، وكثيرا ما حرضنا هؤلاء العرب على ذلك وحببنا اليهم هذه البلاد ، وبينّا لهم سهولة فتحها وهم يهابون ذلك .. ولكن يظهر أنهم أوشكوا على أن يحملوا عليها »

فابتدره الرئيس بلهفة قائلا : « هل تعنى ما تقول حقيقة ؟ »

قال : « نعم يامولاى ، وهو الخبر الذى جئت من أجله وكنت عازما على مباغتتكم به فأخرجنا الحديث عنه .. قلت لكم ان سبتة (فى موريتانيا) فى جملة ولايات الرومان ، فلما فتح العرب افريقيا أصبحت موريتانيا منفردة عن مملكة الروم ، فانحاز صاحبها الى اسبانيا ليكون فى كنف دولة نصرانية وقاعدتها فرضة سبتة على بحر الزقاق (بوغاز جبل طارق) . ولما خرجت أنا من اسبانيا الى موريتانيا كان حاكمها رجل اسمه «يوليان» فتظاهرت بالنصرانية وعمدت الى تجارتى أشتغل بها وأنا أرتحل فى البلاد وأعود الى سبتة ، وفى نفسى ما تعلمون من الغيظ لطائفتى لما تقاسيه من الفتك والعسف تحت نير القوط ، فأتيح لى أن أنتقم لها من يوليان هذا انتقاما ليس هذا محل ذكره ، وكنت مع ذلك من المقربين اليه يثق بى ويسر الىّ بأموره ، وأنا أظهر له الود وأغتنم الفرص لتحقيق بغيتى ، وما هى الا أن أحبّب الى العرب فتح هذه البلاد ، ولكنى أعلم أن السبيل اليها لا يكون الا اذا فتحوا سبتة لوقوعها على بحر الزقاق وهو أقرب سبل العرب الى هذه البلاد

« وكان عامل العرب على افريقيا فى الأعوام الأخيرة رجلا منهم اسمه موسى بن نصير وهو شجاع ذو همة .. فبعث رجاله حتى فتحوا طنجة ، وأقاموا فيها وحاصروا سبتة من البر ، ويوليان ممتنع فيها صابر على ولاء القوط مع علمه أن صبره لا يجديه نفعا ، ولكنه لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لأسباب لا تجهلونها .. »

فلما ذكر اسم يوليان خفق قلب ألفونس لعلمه أنه والد حبيبته فلورندا ، وأصاخ بسمعه لعله يسمع شيئا يتعلق بها . فلما وصل الرجل الى قوله : « ان يوليان لا يستطيع الخروج من طاعة رودريك لأسباب لا تجهلونها » أدرك أن أهم تلك الأسباب هو وجود فلورندا فى بلاط رودريك ، كأنها رهينة عنده يضمن بها طاعة والدها له . وتذكر حاله مع فلورندا وأنها خرجت من حوزة رودريك .. فهب بدنه كأنه رش بالنار ، ولكنه صبر ليسمع بقية الحديث ، وكان الرئيس قد أجاب الرجل قائلا : « لا نجهل تلك الأسباب .. ثم ماذا ؟.. »

فقال الرجل : « وكنت أنا فى أثناء ذلك الحصار فى قصر يوليان أجالسه كثيرا ، وهو يركن الىّ ويقربنى منه لثرائى وسعة تجارتى ، لعله يحتاج الى مال أو مئونة فى أثناء الحصار ، وأنا أشد منه رغبة فى ذلك التقرب كما تعلمون . فأصبحت منذ أيام وأنا فى منزلى واذا برسول يوليان يدعونى اليه عاجلا ، فمضيت حتى اذا دخلت قصره وأشرفت على باب غرفته ، رأيت شابا خارجا

منها يبدو من مظهره انه قادم من سفر بعيد .. وبدا من مظهر ملابسه انه من أهل طليطلة وأحسب أنه من خدم الملك .. فمرّ الرجل ولم يكلمنى فسرت حتى دخلت الغرفة ، وكنت أدخلها دائما بلا استئذان . فرأيت يوليان جالسا على كرسى بجانب نافذة تطل على البحر الكبير ، وبيده شيء قد قبض عليه وهو غارق فى الهواجس . فلما سمع خطواتى نهض بغتة ورمى التى بما كان فى يده ، وقد أخذ الغضب منه مأخذا عظيما وهو يقول : « اقرأ هذا يا فلان وانظر مقدار شقائى وتعاستى . ما كفتنى المصيبة التى أصابتنى من أول عهد شبابى حتى بليت بأقبح منها ، من رجل أنت تعلم أنى أقاسى عذاب الموت فى سبيل المحافظة على ولائه » فالتقطت ما رماه فاذا هو قطعة من قماش ، أظنها مقطوعة من قميص أو رداء ، وعليها كتابة حمراء كأنها كتبت بالدم . ولما قرأتها اقشعر بدنى استغرابا ، ولكن قلبى كاد يطفح سرورا لعلمى ان فى ذلك الكتاب حلا للمشكلة التى أصابتنا ... »

وكان ألفونس فى أثناء ذلك فى منتهى الاضطراب ، وكان سائر السامعين فى غاية الاصغاء لما يتوقعونه من الخير الجديد .. فقال الرجل : « فقرأت الكتاب فاذا فيه ما معناه :

« والدى العزيز

« سلمت ابنتك الى رجل يسمى نفسه ملكا وهو وحش كاسر لايرعى ذماما ولا حرمة ولا عرضا ، ولولا العناية الالهية لذهبت فريسة بغيه وفسقه . أكتب اليك هذا على قطعة من ثوبى وأنا

هائمة على وجهى ، لا أدرى أين أختبىء من بغى هذا الظالم الخائن ولا أدرى متى ألتقى بك ، فما جزاء من أراد بابنتك سوءا . وحامل هذا الكتاب ـ اذا استطاع الوصول به اليك ـ أنبأك شفويا بما قد يصعب عليك فهمه ..

« كتبته فلورندا »

— ٥٠ —

الاغراء

فلا تسل عن ألفونس واضطرابه وخفقان قلبه ، ولولا ذلك اللثام لافتضح أمره لاستغرابه قولها : « انها هائمة على وجهها » وقد كان يظنها فى مأمن عند عمه فعظم عليه الأمر ، ولكنه كتم عواطفه وصبر ليسمع بقية الحديث ، وكان يعقوب يشعر معه بالبغتة لأنه كان مطلعا على علاقته بفلورندا

أما الرجل فانه أتم حديثه قائلا : « فلما فرغت من قراءة الكتاب أظهرت الغيظ وقلت له : الى متى البقاء على ولاء رجل لا يرعى ذماما ولا يحفظ حرمة ولا يستبقى عرضا ؟.. أأنت تعرّض نفسك للخطر وتصبر صبر الأبطال فى الدفاع عن سلطانه ، وهو يفعل مثل هذا الفعل مع ابنتك ؟ » . وكان يوليان قد استولت عليه السويداء منذ أعوام على أثر مصيبة ابنته وثقل عليه حملها فجعلت أستحثه وأثير عواطفه حتى قال : « لابد لى أن أنتقم من

هذا الخائن وأسلّم هذه البلاد لهؤلاء العرب فانهم أحفظ منه للجميل . ولا يكفى ذلك بل سأحرضهم على فتح اسبانيا حتى يتمكنوا من قتل رودريك ، فأشفى غليلى.. » فسرنى عزمه على ذلك وهو الغرض الذى طالما تمنيته وسعيت اليه ، فجعلت أقوّى من عزيمته وأهوّن عليه الأمر حتى قلت : « واذا أحببت فانى أسعى عنك فى مخابرة العرب وأجعل تسليمك على سبيل الخدمة لك ولهم ، وليس عن ضعف أو جبن» فرضى منى بذلك وخرجت، فخابرت موسى بن نصير أمير العرب فسر ورحب بيوليان . فعرض عليه يوليان عبور بحر الزقاق الى العدوة الأخرى وفتح الأندلس على أن يكون هو معهم يطلعهم على عورات القوط (١) فرضى موسى . وعند سماعى ذلك لم أستطع صبرا فقدمت اليكم بهذا الخبر ، فما قولكم ؟.. »

فلما بلغ الرجل الى هذا القول استولت الدهشة على الجميع وبخاصة ألفونس فانه وقع بين عاملين : عامل الغرام بفلورندا وقد انشغل خاطره بشأنها بعد أن علم أنها ليست فى بيت عمه ، وعامل اليأس من الملك اذا فتح العرب هذه البلاد لأنها تخرج من سلطان القوط جميعا . وأدرك يعقوب ما يخطر ببال ألفونس وخشى أن يكون لذلك تأثير على رأيه فى مقاومة رودريك . ثم تذكر مسألة فلورندا وما بذرت فى نفس ألفونس من الحقد على رودريك ،

(١) وفى التاريخ أن يوليان وصله خبر ابنته قبل ذلك بسنة وبعض السنة .. فسلم للعرب وخابر موسى بن نصير بشأن فتح الاندلس ، وهو خابر الخليفة الوليد حتى قر الرأى على الفتح فى تلك السنة « ٩٢ هـ » .

فعلم انه لايمكن أن يصفو له قلبه ، ولا سيما بعد أن سمع شكاية فلورندا لأبيها . على أنه أحب أن يثبّت الفونس على عزمه ، فقال وقد وجّه خطابه الى الرئيس : « ان الخبر الذى جاءنا به أخونا هذا من الأهمية بمكان عظيم ، ولا نظن العرب الا فاتحين هذه البلاد وبخاصة لأن يوليان معهم يدلهم على الطريق، وطبعا سنكون نحن عونا لهم أيضا لأننا نخدم مصلحتنا.. ولا يغيّر ذلك شيئا من غرضنا الأول فى جعل الحكم بيد مولانا الملك (وأشار الى ألفونس) لأننا قد سمعنا الآن أن العرب يستبقون البلاد على ما هى عليه ، ولا نظنهم اذا علموا نصرة ملكنا هذا لهم الا أن يسلموا اليه مقاليد الحكم ويكتفوا بالخراج والجزية والسيطرة الخارجية »

وكان الفونس يسمع ذلك وقد همّه الخبران ، ولكن خبر فلورندا غلب على خاطره وأصبح شديد الرغبة فى الخروج من ذلك المكان للبحث عنها ، على انه أراد قبل الانصراف أن يثق من الأمر الذى جاء من أجله فقال : « ظن صاحبى يعقوب أن غرضى من النقمة على رودريك ، هو مجرد رغبتى فى السلطة .. والحقيقة أن الهدف الأول هو انقاذ هذه البلاد من استبداده واطلاق سراح اليهود الذين أجبروا على النصرانية ظلما . ثم انى أريد أن يعلم هذا الطاغية أن على الباغى تدور الدوائر ، فاذا حدث ذلك لايهمنى بعده من يتولى الملك »

فقال الرجل : « أؤكد لمولاى الملك أن المسلمين اذا فتحوا هذه البلاد فعلوا كما ذكرت ، ولا أظنهم يستغنون عن مولاى الملك فى

حكومة هذه البلاد بعد فتحها ، فقد ولّوا على طنجة رجلا بربريا اسمه طارق(١) مع أن البرابرة لم يذعنوا لسلطانهم اذعانا تاما حتى الآن ــ يفعل العرب ذلك لقلة عددهم بالنسبة الى سعة البلاد التي فتحوها ، فيضطرون الى الاستعانة بغير العرب فى ادارة شئون الحكم ــ فهل يتعينهم على تصريف شئون اسبانيا خير من ملكها .. وعلى كل حال فاننا لا نألو جهدا فى اقناعهم بذلك .. »

فلما سمع الفونس قوله ، اطمأن خاطره من ناحيــة المثلث وتركزت هواجسه على فلورندا ، وود أن تنتهى الجلسة بسرعة . فالتفت الى الرئيس وقال : « هل من كلام يلقى علينا ، أم تأذنون فى انصرافنا ؟ » ..

فوقف الرئيس ووقف الجميع ، فقال الرئيس : « اذا شئت الانصراف فالأمر أمرك .. ولكننا نأمل أن تؤمن بصدق اخلاصنا فى خدمتك ، وان اليهود فى كل هذه البلاد يضحون بأموالهم وبأنفسهم فى مصلحتك ، وعهد الله فى ذلك بيننا وبينك » ..

فشكره ألفونس وقال : « قد ذكرت لكم غرضى من التعاون معكم ، والله ولى التوفيق .. »

ثم سار يعقوب نحو الباب ، وأشار الى ألفونس فتبعه .. وخرجا من تلك الحجرة الى الغرفة الكبرى ، وفيها المقاعد حول المنضدة كما تقدم . فمشيا مشية خاصة وخرجا من باب الى باب حتى انتهيا الى السرداب ومنه الى الكهف . فلما أطلا على الخلاء

(١) ابن خلكان ــ الجزء الثانى

رأيا الفجر قد لاح ، فعلم ألفونس انهم قضوا طول الليل هناك وأحس ببرد الخلاء . ثم نزعا الثوبين الأسودين ، وخرجا من الكهف يلتمسان المدينة . وكان بابها قد انفتح فدخلاها وسارا يقطعانها نحو الجسر ، وألفونس لا يتكلم لما تزاحم فى مخيلته من الصور التى شاهدها فى ذلك الليل . وأصبح لايدرى كيف يعامل يعقوب بعد أن عرف انه من أعيان اليهود ، لكنه ظل على شوقه فى كشف بقية سره .. على انه كان قد استولى عليه الصداع بعد خروجه من السرداب اذ استقبله النسيم البارد على أثر سهره الطويل ، فأصبح لا يستطيع البحث فى شيء .: ولكن صورة فلورندا لم تبرح مخيلته . أما ما سمعه من أقوالها الى والدها فلم تغب عن سمعه ..

وصلا الى القلعة ، والفونس لا يزال ساكتا ويعقوب يراقب حركاته وسكناته ، وكان قد أدرك شيئا مما يجول فى خاطره ، ولكنه لم يشأ أن يحادثه فى شيء غير الاستفهام عما يريده من طعام أو نحوه . وصعدا الى غرفة الفونس .فأعد له يعقوب كل ما يحتاج اليه وهيأ له الفراش فنام ، ونام يعقوب أيضا

فلنتركهما نائمين بجوار استجة ولنذهب بالقارىء الى افريقيا (وهى بلاد البربر وهى اليوم شمالى أفريقيا وفيها : برقة وطرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراكش) ونبحث عن أحوال العرب هناك حتى فتح الأندلس

— ٥١ —

بعد فتوح الاسلام

توفى الخليفة عبد الملك بن مروان سنة ٨٥ هـ ، فخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك . وكان عبد الملك قد تولى الخلافة عشرين سنة قضى معظمها فى محاربة منافسيه عليها ، وكثيرا ما خشى خروجها من يديه .. ولكنه كان ذا سياسة ودهاء ، وقد نصره الحجاج بن يوسف أدهى عمال المسلمين وأشدهم وطأة فخلصت الخلافة لعبد الملك . فلما مات خلفه ابنه الوليد وقد نجا من المنافسين .. فانصرف همه الى توسيع المملكة الاسلامية ، فبعث قتيبة بن مسلم نحو الشرق لفتح ما وراء النهر ، فأوغل فى بلاد الترك حتى أدرك حدود الصين ، وبعث أخاه مسلمة بن عبد الملك شمالا لغزو بلاد الروم ففتح عمورية وهرقلة وقمونية وغيرها ، وأنفذ موسى بن نصير الى افريقيا فولاه اياها وأمره أن يتم فتحها

وكانت افريقيا قد فتحت فى صدر الاسلام وألحقت بمصر وأهمل شأنها لبعدها ومشقة المسير اليها . وأهل افريقيا الأصليون قبائل البربر، لهم ألسنة خاصة وعادات خاصة ، وهم قبائل عديدة جدا وبلادهم كثيرة الماشية والمرعى ، وكانوا — حين اشتغل الأمويون عن افريقيا بأنفسهم أيام عبد الملك — قد اغتنموا الفرصة وحاولوا التخلص من حكم المسلمين فتمردوا وشقوا

عصا الطاعة .. فبعث اليهم عبد الملك حسان بن النعمان فحاربهم وأخضعهم ونشر الاسلام بينهم .. ولكنهم كانوا أقواما أشداء ، فما لبثوا أن عادوا الى الاضطراب . فلما تولّى الوليد بلغه انهم فى انقسام فيما بينهم ، فرأى أن يغتنم الفرصة لتأييد سلطانه هناك واتمام فتح تلك البلاد ، فبعث موسى بن نصير — وهو عربى لخمى — وكان قائدا باسلا ، شديد الايمان .. فنزل القيروان ثم تتبع البربر الى بلاد السوس الأدنى وهم يفرون من بين يديه ، حتى اذا يئسوا من النصر جاءوا اليه مستسلمين .. وبذلوا له فروض الطاعة ، فولّى عليهم أناسا من رجاله ينظمون أحوالهم ويعلّمونهم القرآن وفرائض الاسلام ..

وكان فى جملة مواليه رجل من البربر اسمه طارق بن زياد ، وكان شجاعا قد اعتنق الاسلام وأظهر غيرة عليه ورغبة فى تأييده . فلما اتسعت فتوح موسى فى افريقيا ولّى مولاه طارقا على طنجة وأعمالها وترك عنده ١٩٫٠٠٠ فارس من البربر ممن أسلموا وحسن اسلامهم . ورجع موسى الى افريقيا ولم يبق فى تلك البلاد الا مدينة سبتة لم تخضع لحكم المسلمين ، وهى تدخل قليلا فى البحر وتشرف على بحر الزقاق المسمى الآن بوغاز جبل طارق . وكان حاكم سبتة هو الكونت يوليان المتقدم ذكره . ويقول مؤرخو العرب أنه ظل ثابتا على ولائه لرودريك (لذريق) حتى أساء رودريك الى ابنته فنقم عليه وحرّض العرب على فتح اسبانيا . وينكر مؤرخو الافرنج ذلك السبب ، ويقولون انه انما

أعان العرب على فتحها لأنه من أقارب غيطشة ، وقد فعل ذلك انتقاما من رودريك لأنه سلب الملك منه ..

وكان جماعة البربر فى المغرب يعبدون الأوثان الا بعض من خالط الروم على شواطىء البحر فانهم اعتنقوا النصرانية وهم قلة ، وكان لكل قبيلة أصنام وعبادات ، وكهنة يديرون شئونها ويتولون الأحكام بين أهلها ، ويحلون المشاكل التى تقع فيها كما كان يفعل الكهان عند العرب فى الجاهلية ، غير ان الكاهن يسمّى عند البرابرة « ماربوط » فيأتون اليه للاستشارة فى حرب أو سلم ويحملون اليه الهدايا من الماشية أو الحنطة أو الرقيق الأسود أو الأبيض ..

وكان التجار وغيرهم من الروم والقوط يسطون على قبائل البربر، فيخطفون الأطفال والغلمان ويحملونهم الى الآفاق يتجرون ببيعهم، كما كانوا يتّجرون بغلمان البيض من أهل اسبانيا وغيرها ، والغالب أن يكون هؤلاء من أسرى الحرب . وكان بيع الأسرى شائعا فى تلك العصور . واشتهر برابرة المغرب بركوب الخيل

— ٥٢ —

طارق بن زياد

وكان فى جملة قبائل البربر قبيلة الصدف ومنها طارق بن زياد

ولذلك قيل له الصدفى (١) وقد نشأ طارق فى الجبال وعاش عيشة البدو وتديّن بالوثنية مثل سائر أهله ورفاقه . وقد شب قوى البنية شديد البطش شجاعا .. وكان منذ نعومة أظفاره مشهورا بين رفاقه بالفروسية والقوة

وكان من بين رفاقه غلام أبيض اللون بخلاف سائر البرابرة ، وتقاطيع وجهه تختلف عن تقاطيع وجوههم : فالبرابرة ضخام الشفاه ، عراض الوجوه ، قصار الأنوف ، سود الشعر ، شديدو السمرة . وهذا الغلام أبيض الوجه أشقر الشعر أزرق العينين ، ولكنه بسبب معيشة البدو فى البرارى ، وركوب الخيل والغزو ، حال لونه الى السمرة قليلا وتضخمت أعضاؤه كلها فأصبح غليظ العنق والذراعين ، واسع الصــدر ، خشن الكف ، كث الشعر وكانوا يسمونه (بدرا) اشارة الى صباحة وجهه دون ســائر الرفاق ، وكان البرابرة يحبونه لخفة روحه وبسالته لاعتقادهم أن الشجاعة من خصائص السمر وأن البيض ضعاف جبناء

شب طارق وهو يرى هذا الغلام فى بيت أبيه ، ويعلم انه ليس أخاه لأن رئيس قبيلتهم دفعه الى زياد ، وأوصاه برعايته والاعتناء بتربيته لأنه توسّم فيه الخير .. فتصاحبا وتحابا . وكان طارق لا يهنأ له عيش الا اذا كان بدر معه ، وبدر يعجب بطارق ويحبه كثيرا ، ويعد نفسه أخا له ولا يتخاطبان الا بروح الأخوة وهما معروفان بذلك عند سائر قبيلة الصدف

(١) ابن الاثير ــ الجزء الرابع

ولما جاء موسى بن نصير الى افريقيا وصار عاملا عليها كان فى جملة من اتخذهم من الموالى طارق بن زياد ، ولما رأى شجاعته وحسن اسلامه رقاه حتى جعله قائد حاميــة طنجة كما تقدم .

وكان بدر رفيق طارق فى كل أعماله ولكنه لصغر سنه لم يتنبه له موسى ، على أنه أظهر فى الوقائع التى شهدها بسالة الأبطال المحنكين لأنه لم يكن يهاب الموت ولاسيما اذا كان مع أخيه طارق

فلما عرض يوليان على موسى فتح الأندلس ويكون هو عونا له فى ذلك ، بعث موسى الى الخليفة الوليد يستأذنه ، فأذن له على أن يخوضــها بالسرايا (ولا يغرر بالمســلمين فى بحر شــديد الأهوال) (١) فرأى موسى أن يجرب ذلك برجال من الموالى المسلمين غير العرب (٢) يرسلهم لفتحها ، ولم ير خيرا من طارق يوليه قيادة تلك الحملة .. فأعد سبعة آلاف من الموالى والبربر وفيهم بعض العرب ، وسلم قيادتهم الى طارق وأمره أن يعبر بهم بحر الزقاق الى الأندلس

فعبره فى سفن أعدها لهم يوليان حتى نزلوا جبلا على شاطىء ذلك البحر سمى بعد ذلك باسم طارق (جبل طارق الى اليوم) ولم يلق طارق مشــقة فى الاستيلاء على الجبل ، ثم بلغه أن رودريك صاحب طليطلة يتأهب لملاقاته فى جند عظيم ، فكتب طارق الى موسى فأمده بخمسة آلاف بربرى ، فصار جنده اثنى عشر

---

(١) ابن الاثير ــ الجزء الرابع . وذكر هناك ان ذلك كان سنة ١٩ هـ وأن موسى أرسل طريفا لغزا جزيرة سميت باسمه ، ثم أرسل طارقا

(٢) تاريخ التمدن الإســلامى ــ الجزء الثانى

ألفا وفيهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على نواحي الضعف ، ويتجسس لهم الأخبار ، ويبث فى أهل البلاد أن العرب جاءوا الأندلس لا للفتح والاحتلال ، وانما يريدون أن يملأوا أيديهم من الغنائم ويخرجوا ، وحبب الى الأسبان أن يسهلوا لهم التغلب على رودريك حتى يتخلصوا منه ويعيدوا الحكم الى من يريدون من ملوكهم الأضليين .. وما زال طارق يزحف بجنده على هذه الصورة حتى وصل الى وادى لكة (قرب قادس) وهناك التقى جنده بجند رودريك [1] على ما هو مدون فى كتب التاريخ

ووادى لكة أو وادى لينة ويسميه الافرنج (جوادى ليتى) Guadalete فى جنوبى الأندلس ما بين استجة وجبل طارق يصب فى خليج قادس

على ضفاف هذا النهر التقى جيش طارق بجيش رودريك فى أوائل سنة ٩٢ هـ ، وهناك جرت الموقعة التى قضت على جند القوط وأيدت الفتح للمسلمين على يد طارق بن زياد البربرى كما سيأتى ..

— ٥٣ —

رودريك وأوباس

كان المسلمون على ما ذكرنا من تيقظهم ونهوضهم للفتح ، والتوفيق حليفهم .. ورودريك فى بلاطه على نحو ما تقدم من

(١) نفح الطيب — الجزء الاول

انصرافه الى الترف والرخاء ، وقد تركناه وهو يكاد يتمزق غيظا من أوباس لاخراج فلورندا من بين يديه بعد أن كادت تقع فريسة له .. فطلب محاكمته فى مجلس الأساقفة ، فلما رأى منه ما كاد يفضح أمره أسرع الى انهاء الجلسة بحجة تأجيل النظر فى تهمة أوباس الى جلسة أخرى كما تقدم ، وهو لا ينوى العود الى ذلك وانما اتخذه ذريعة للتحفظ على أوباس فى السجن ريثما يبحث عن فلورندا ..

فلما انقضت الجلسة عاد رودريك الى قصره والأب مرتين الى جانبه يطنب فيما كان من تغلبهم على أوباس وارغام أنفه . والملك مع اقتناعه بتغلب أوباس عليه فى تلك الجلسة صدق ما تزلف به مرتين اليه ، وحسب نفسه مخطئا بحكمه على نفسه بالضعف واقتنع بفوزه المبين . وكأنه نسى ما كان من الصواعق التى أنزلها أوباس على رأسه فى أثناء المحاكمة ، وعمى عما كان من سقوط عرشه لو لم يتدارك الأمر بانهاء الجلسة ، والأساقفة الحاضرون يميلون الى تبرئته حفظا لكرامة مناصبهم . ولكن الانسان يتفانى فى حب الذات ، لذلك يسهل انقياده الى الاقتناع بفضله على سائر الناس عقلا ورأيا وقوة . ويقوى فيه هـذا الاعتقاد كلما ضعف عقله وأظلمت بصيرته ، لأن حب الذات يدعونا الى الاعتقاد بأننا أمضى الناس عزيمة وأصوبهم وأصحهم مذهبا ، بل هو يوهمنا بأن كل ما هو لنا خير مما لسوانا ، فأصبح كل منا يعتقد أن ابنه أحسن من أبناء سائر الناس ، وزوجته خير من نساء العالمين .

واذا كان مؤلفا كانت كتابته أبلغ ما كتبه الكتّاب ، ونظمه أحسن ما نظّمه الشعراء ، والمرء مفتون ببنات أفكاره .. الا اذا كان من أهل الرأى السديد والبصيرة النقادة ، فان حكمه يقترب من الحقيقة بقدر ما أوتى من تلك المواهب . ولكن يندر أن نقدر أنفسنا حق قدرها تماما .. ولاسيما اذا مثنينا بمن يتملقنا أو يمدح أعمالنا لمجرد رغبته فى ارضائنا لا لاستحقاق فينا . وأكثر الناس تعرضا لهذه الأخطار هم الملوك وغيرهم من أهل المناصب الرفيعة ، فان الناس يتسابقون الى استعطافهم بالتملق والمدح الكاذب التماسا لنفع أو تنفيذا لغرض كما تبين لنا من أمر مرتين ورودريك ..

فوصل رودريك الى القصر وهو مقتنع بشناعة ذنب أوباس وأنه يستوجب اضعاف تلك النقمة ، فعزم على ابقائه فى السجن ريثما يدبّر وسيلة لاستطلاع خبر فلورندا ثم ينتقم منه . ولم يعجل بقتله خشية أن يحتاج اليه فى البحث عنها .. وأول شىء قام به أنه بث العيون والأرصاد فى ضواحى طليطلة وفى الطرق المتشعبة منها ، ووعدهم بمكافأة كبيرة اذا قبضوا عليها وعلى من عساه أن يكون معها

أما أوباس فانه ذهب الى سجنه وهو منشرح الصدر لاعتقاده ببراءة ساحته وسلامة طويته ونبالة مقصده ، وخصوصا بعد أن أتيح له أن يكشف عن أعمال رودريك للمجمع ، ولو تلميحا . وهو مع ذلك لم يكن يرجو أن ينقلب المجمع على رودريك ،

وانما كان يهمه الانتصار للحق والاذعان لصوت الضمير الحى .. شأن الذين ينتظمون فى سلك الرهبنة رغبة عن ملاذ هذا العالم . فهؤلاء اذا أخلصوا النية فى تعبدهم ، لم يكن بين الناس أقدر منهم على نصرة الحق ، لزهدهم فىالشهرة أو الثروة ، ولاحتقارهم زينة هذا العالم — وهم انما عمدوا الى الرهبنة نفورا منها — وقد كان أوباس من أمثال هؤلاء ، ولم يكن سعيه فى رد الملك لابن أخيه الا من قبيل نصرة الحق

أقام أوباس فى سجنه المؤقت بضعة أسابيع وهو لا يبالى لو أقام فيه أعواما لولا انشغال خاطره بفلورندا ، لأنه لا يعلم أين هى ولا أين ذهب بها أجيـلا وشاتيلا . ولكنه رجح من قرائن مختلفة أنهم لم يقعوا فى قبضة رودريك . وكان لثقته بسالة ذينك الشابين وغيرتهما وصدق نيتهما فى خدمته مطمئن البـال على فلورندا ، على انه كان شديد الرغبة فى معرفة مقرها ومصـير أمرها . وكان من ناحية أخرى ، يفكر فى الفونس وفى المهمة التى أنفذه رودريك اليها ، وما قد يتعمده من أذيته اذا علم بسعيه فى انقاذ فلورندا وطلب الملك لنفسه ، ولكنه لانطباعه على نصرة الحق لم يكن يخشى بأسا علىأهلها .. فهو يعتقد أنالحق يعلو ولا يُعلى عليه ، وان على الباغى تدور الدوائر ، ولذلك فانه كان يتوقع وقوع رودريك فى شر أعماله ، وقد صرح بذلك غير مرة حتى بين يدى رودريك نفسه

والانسان العاقل اذا تدبّر مصير الحياة الدنيا مع ما تحفل به

من الأخطار ، يرى الرجوع الى غير الحق ضربا من الجنون .. لأن الحق هو الغالب ، وهو وحده الذى يبقى ..

— ٥٤ —

شريش وكرومها

« شريش » (١) مدينة فى جنوبى أسبانيا تابعة لولاية قادس ، على الطريق بينها وبين أشبيلية .. بينها وبين مدينة قادس ١٧ ميلا وهى تقع بالقرب من نهر صغير هو وادى « ليتة (٢) . والنهر المذكور ينبع من جبال ولاية قادس فى الشمال ويسير نحو الجنوب والغرب فيترك مدينة شريش الى يمينه ويجرى حتى يصب فى البحر الاطلانطى فى خليج بالقرب من مدينة قادس . ومدينة شريش تقع فى منبسط من الأرض بين جبلين يكتنفانها من الشرق والغرب . وبينها وبين مجرى النهر كثير من المغارس ولا سيما الكروم ، لأن هذه المدينة مشهورة بكرومها وخمرها المعروفة باسمها (خمر شرى) الشائعة فى أوربا وهى ثمينة يعتقونها ويتعاطونها على موائدهم . ومعظم ما يُصدّر الى العالم من خمر شرى الجيد يعصر من كروم ضواحى هذه المدينة

وكروم شريش تشغل مسافة كبيرة من ضواحيها الى النهر وما وراءه على أكمات مسطحة أو مائلة . وبين الكروم بيوت المزارعين

(١) Xeres

(٢) Guadalete

وبينها أبنية غريبة الشكل ، هى عبارة عن غرف كبيرة قائمة على صفوف من الأساطين الدقيقة . والغرف عالية السقوف ، فى جدرانها منافذ عديدة يتخللها الهواء ، وهى مستودعات يختزن الكرّامون خمورهم فيها لتعتيقها بمرور الأعوام .. .

وبحوار وادى شريش مما يلى وادى ليته سهل سماه المقريزى « فحص شريش » (١) التقى فيه طارق البربرى ورودريك القوطى وفيه كانت الضربة القاضية بفتح الأندلس ، وتمتّع العرب بغنائمها ومحصولاتها ، وهان عليهم الفتح بعد ذلك حتى طمعوا فى أوربا كلها ، وكانت فى غاية الاضطراب والضعف ، فلو ظلوا سائرين لما لقوا من يصد سيوفهم أو يقف فى سبيل نبالهم ، ولكنهم أجّلوا المسير فضاعت الفرصة منهم

ففى صيف سنة ٧١٠ للميلاد أى بعد الحوادث التى ذكرناها فى طليطلة ببضعة أشهر ، كانت مغارس الكروم فى شريش وضواحيها وعلى جانبى وادى ليتة قد نضجت أعنابها ، وأخذ بعض الفلاحين فى قطافها وأخذ البعض الآخر فى عمل دعامات تحمل ما ثقل حمله من الدوالى لكبر العناقيد ، واشتغل آخرون فى اعداد المعاصر ، وغيرهم فى نقل بعض ما اختزنوه من خمور العام الماضى لاختزان خمر هذا العام

ويشتغل فى كل ذلك عائلات من أهل البلاد الأصليين ، أو ممن قضى عليهم بالأسر فى بعض الحروب فأصبحوا فى مصاف

(١) دوزى — الجزء الاول

العبيد ، وفيهم من كان بين قومه من أهل الوجاهة (١) وقد صبروا على مضض الذل ، وهو غير ثقيل على أهل ذلك الزمان لأنه كان عادة يكابدها الجميع . لكنه لم يكن يمنع تذمر أولئك الفلاحين من تلك الحال ، وأكثرهم يشكون من صاحب تاج طليطلة .. على أن الرأى العام لم يكن راضيا عن رودريك لأسباب تقدم ذكر بعضها

وكانوا من الناحية الأخرى قد سمعوا بنزول العرب الى بلادهم عند بحر المجاز (بوغاز جبل طارق) ولم يكترثوا بنزولهم ولا علقوا عليه كثير أهمية . وكان فى حملة هؤلاء شيخ طاعن فى السن قضى حياته فى الأسفار بأسبانيا وما يقابلها من الناحية الأخرى بأفريقيا حتى وصل الى مصر والشام ، وشاهد بعض أحوال العرب فى أوائل ظهور الاسلام ، فكانوا اذا ذكروا العرب بين يديه يقول : « لا ينجينا من هذا الملك الا هؤلاء » فلما قيل له انهم عبروا البحر قال : « لقد قرب الفرج »

— ٥٥ —

مارية

وكان شيخنا المذكور فى أواخر يوليو من ذلك العام (سنة ١٧٠) الموافق رمضان سنة ٩٢ هـ (٢) جالسا فى كوخه وحوله

(١) دوزى ـ الجزء الاول

(٢) التقويم العام لخمسة آلاف عام

أولاده وأحفاده ، يشتغل النساء منهم باعداد الطعام وصـــناعة الألبان والجبن ، والأولاد يشتغلون فى علف الماشية أو صنع السلال لحمل العنب عند قطافه ، ولا حديث لهم الا تقدير موسم ذلك العام من العنب والخمر ، وان لم يكن لهم فى تقديره فائدة كبرى لأنه ليس ملكا لهم ، فلم يكن للفلاحين ونحوهم أن يقتنوا عقارا أو يملكوا بنيانا وانما المُلك والسيادة لطبقة الأشراف ، وأكثرهم من الرومانيين والقوط ، وللفلاحين حصة قليلة من المحصول .. ولكن الانسان ميّال للبحث عن المجهول ، ولذا فقد اشتغل الشيخ وأولاده معظم ذلك النهار فى تقدير غلة السنة حتى احتدم الجدال بينه وبين أحدهم وشغلوا بذلك عما حولهم . وكانوا جالسين فى ظل دالية كبيرة قد نصبوا بأغصانها خيمة على شكل العريش . وأجروا الماء من تحتها بقناة تقف عندها الماشية للشرب ، والناس للاستقاء ، ويستظل بظلها أهل تلك العــزبة وما فيهم غير الشيخ وأولاده وأحفاده ونساء المتزوجين منهم

أقبل المساء وهم فى ذلك ، وقد رجع من كان غائبا فى أثنـــاء النهار فى اصلاح الدالية أو تسنيدها ، أو تنظيف المستودعات أو صنع السلال ، أو نقل الأغصان اليابسة للوقود . فربما جاء الرجل وعلى رأسه سلة ، وعلى كتفه حزمة ، وتحت ابطه جرة ، وفى جيبه صُرة ، وفى يده رغيف ، وفى فمه لقمة يجر وراءه صِبْية .. هذا يقود خروفا ، وذاك يسوق حمارا ، وذلك يحمل عنقودا قطعه قبل تمام النضج وفيه حموضة قليلة ، وقد منعه ابوه عن ذلك

فخبأ العنقود فى جيبه وجعل يأكله خلسة ، واخوه بجانبه يهدده بالشكوى الى أبيه اذا لم يطعمه بعضه ، فيهرع هذا الى والدته يختبىء فى ثنايا ردائها وفى زعمه ان ذلك الرداء يحميه من كوارث الدهر وطوارق الحدثان ، كأنما هو راية كسرى انوشروان .. تلك عيشة السذاجة الفطرية ، ان يقتات المرء من ثمار ما يغرسه وألبان ما يرعاه لا مطمع له الا ان يجمع من ذلك مايكفى أهله بقية العام للكساء والطعام .. هناك النيات السليمة والقلوب الطاهرة ، هناك الاخلاص وصدق اللهجة .. اذا سمعت احدهم يقول لك انه مشتاق لرؤيتك فهو يعنى ذلك حقيقة ولايقوله على سبيل العادة التى أساسها الخداع والتملق .. والسعادة الحقيقية — اذا صح وجودها — انما تكون فى تلك المنازل الحقيرة وبين تلك المغارس التى تتجدد أوراقها فى كل عام وتتجدد قلوب أهلها معها .. ليس هناك ضغينة ولا حقد ولا طمع ولا نميمة ولا رياء لقلة حاجات الانسان وسهولة نيلها . فالمرء اذا قلّت مطالبه وهان عليه اكتسابها قلّما يداخل قلبه حسد أو حقد أو غيرهما من الرذائل .. لأن الحسد والحقد والرياء والنميمة انما يلجأ اليها الضعيف اذا كثرت مطالبه وعجز عن الحصول عليها بجده وسعيه ... ولذلك كانت الرذائل من جملة أدران المدنية

على ان الفلاح الساذج انما يكون سعيدا فى ظل الأمن والعدالة ، والا فهو من أتعس خلق الله لأن الظلم يقضى على سعادته قضاء مبرما ، اذ يسلبه ينبوع تلك السعادة وهو غلة

أرضه ، فكيف اذا لم يكن هو صاحب الأرض كما كان شأن فلاحى اسبانيا فى الأجيال الوسطى .. فلا يلام شيخنا المشار اليه اذا تمنى استبدال حكومته بغيرها ولو كان غريبا

غربت الشمس وهى ترسل أشعة ذهبية تشرح الصدر ويتطاول أهل المدن لرؤيتها وقلما يتفق لهم ذلك . ولو أراد الفلاحون لرأوها كل ليلة ، ولكنهم فى شغل عنها وعن سواها من مناظر المساء باعداد العشاء والاجتماع تحت سقف المنزل أو تحت بعض الأشجار . فلما غابت الشمس اجتمع أفراد تلك العائلة وهم يعدون بالعشرات وفيهم الأطفال والأحداث والشبان والشابات ، وأصغرهم سنا أكثرهم فرحا ..

وكان أعظمهم اهتماما ذلك الشيخ لأنه لم يكن يهدأ له بال الا بعد أن يرى أولاده وأحفاده تحت ذلك العريش فى آخر النهار. وخصوصا بعد أن جند أمير تلك الناحية بعضهم بأمر رودريك ليكونوا له عونا فى محاربة العرب القادمين عليهم من جهة البحر

فلما ظن الشيخ ان الاجتماع قد اكتمل تفرس فى أولاده فاذا احدى بناته لا تزال غائبة ، وكانت أعزهم على قلبه للطفها وحنوها فصبر هنيهة أخرى لعلها تأتى ، فلما استبطأها نادى زوجته قائلا : « أين مارية ؟ »

سمعته يسألها عنها بغتت وصاحت : « ألم تأت بعد ؟ »
قال : « كلا ... أين تركتموها ؟ »

قالت : « تركتها فى المستودع الكبير فوق الرابية تغسل بعض الأوانى ، وتنقل بعض الجرار الملآنة الى جانب آخر ومعها أخوها بطرس .. » قالت ذلك والتفتت الى ماحولها ونادت : «بطرس» فجاء الغلام مسرعا فابتدرته قائلة : « أين تركت مارية ؟ »

قال : « تركتها فى المستودع الكبير ... ألم تأت بعد ؟ »
قالت الأم : « لا ... »

ولم تتم العجوز قولها حتى وثب بطرس من العريش وأسرع نحو ذلك التل وهو يقول : « سأعود بعد قليل » وانما دفعه الى تلك العجلة شعوره بأنه أخطأ برجوعه وحده دون أخته

وكان القمر فى أواخر أيامه والليل مظلم والطرق بين الكروم شاقة وعرة ، الا على أهل الكروم فانهم يمشون بينها وأعينهم مغمضة لايعثرون بعود ولا حجر . ولبث الشيخ وأهله ينتظرون رجوع بطرس على مثل الجمر ، وهم يعدون خطواته ويقدرون الأماكن التى يمر بها ويتنبأون بوصوله الى كل منها ، حتى ظنوا انه وصل وعاد ، فاذا هو لم يرجع بعد، فانشغل خاطرهم وصبروا أنفسهم حتى طال غيابه.. فلم يعد الوالدان يستطيعان صبرا ، فوثب الوالد الشيخ كأنه شاب فى عنفوان الشباب ، واقتفى أثر ابنه عن طريق مختصر لايعرفه الابن .. ولم تكن المسافة بين العريش

وذلك المستودع تزيد على مائة متر شرقا من جهة النهر، والمستودع مشرف على ضفاف النهر وعلى معظم كروم تلك الناحية

— ٥٦ —

وادى ليتة

وصل الشيخ الى المستودع وصعد على السلم حتى بلغ بابه وهو يلهث من التعب ، فوجد الباب مغلقا وليس عنده أحد ، فطرقه طرقا متواصلا ، فلم يسمع جوابا.. فتأمل فى الباب وكيفية اغلاقه فرأى انه مغلق من الخارج كعادته دائما ، فبدا له ان مارية خرجت منه وأغلقته . فوقف بأعلى السلم ليستريح والتفت الى ماحوله فأطل على مدينة شريش الى ضفاف النهر من جهة ، وعلى كرومها من جهة أخرى ، والظلام يغشى بصره .. على انه رأى أنوارا على ضفة النهر من تلك الجهة عرف من بعثرتها وتعددها انها نيران جماعة كبيرة . ولم يكن يعهد ان فى تلك الجهات اناسا غير الفلاحين وعمال الحقول وهم لايوقدون نارا على هـذه الصورة ، فاضطرب خاطره ونسى غياب ابنته ووقف هنيهة ينظر الى تلك النيران ، ويرى ظلالها على صفحة النهر تتلألأ كأنها مصابيح موقدة تحت الماء وأشعتها تهتز باهتزاز أمواجه . ولولا تلك الظلال لم يعرف ان تلك النيران على ضفاف النهر

وعاد الشيخ بغتة الى وجدانه فتذكر ابنته التى غابت ، فخطر

له ان تكون قد عادت الى البيت ، أو لعل أخاها قد عثر عليهـا أثناء رجوعه .. ثم ما لبث أن سمع حركة ركض لأناس يمرون بين الدوالى ، فأنصت فسمع صوت زوجته ومعها بعض أولاده فعلم انهم جاءوا لاستطلاع خبر مارية ، فنـاداهم فكان أول صوت سمعه منهم هو صوت زوجته وهى تقول : « أين مارية ؟» .فلما سمع الشيخ ذلك اقشعر بدنه وزاد اضطرابه وقال : « أين بطرس ؟ .. هل عاد اليكم ؟ » ..

وكانت العجوز قد وصلت الى أسفل السلم فأجابت وهى تمد يدها الى اخمص قدمها وتخرج شوكة أصابتها فى أثنـاء جريها : « عاد بطرس ولم يجدها »

فنزل الشيخ عن السلم حتى التقى بزوجته ومعهـا عدد من أولاده فقال لهم : « يظهر لى ان مارية ضلت الطريق أثناء رجوعها من هنا ، فلنتفرق ويسير كل منا فى طريق حتى نلتقى فى البيت .. فمن يجدها منا فلينبه الباقين بالنداء حتى يكفوا عن البحث . ولتكن العلامة فيما بيننا هذه الكلمة (يامار بطرس) أما انا فاذا ابطأت بالرجوع فلا تقلقوا لغيابى » فأرادت زوجته ان تعرف السبب فلم يصبر لسماع كلامها ، وانحدر نحو النهر وهو يثب بين الكروم من تل الى تل ، يتعثّر تارة بالعليق وطورا بالحجارة ، وهو يتطلع نحو النهر مخافة ان يخطىء الجهة لاشتداد الظلام ، وكان اذا توارى النهر عن عينيه وراء بعض الدوالى العالية أو وراء التلال خشى أن ينحرف عن الجهة فتبعد المسافة عليه .. على

ان النهر قلما كان يغيب عن بصره . فلما قرب من النهر رأى النور على ضفتيه ثم سمع جعجعة عرف انها اصوات الجمال ، وكان قد سمع مثلها فى اثناء اسفاره ولم يعهد لها مثيلا فى اسبانيا . فلما سمع الجعجعة تنسم رائحة العرب وأدرك انه على مقربة منهم وتذكر ما سمعه عن نزولهم ببلاد الأندلس .. فتحقق انه بجانب معسكرهم ولكنه استبعد سهولة وصولهم الى ذلك المكان

وبعد هنيهة وصل الى أكمة وقف عندها وتفرس فيما بين يديه ، فاذا هو مطل على سهل كبير ينتهى الى النهر، وعلى الضفة البعيدة خيام تتخللها النيران . ورأى على الضفة القريبة فى طرف السهل نارا وبالقرب منها خيمة كبيرة لم يتبين لونها لشدة الظلام. فلبث برهة يفكر فى ابنته مارية حتى همّ بالرجوع للبحث عنها فى مكان آخر ، ثم حدثته نفسه بالنزول الى تلك الخيمة واستطلاع خبر هؤلاء القوم قبل رجوعه ، ولم يخش بأسا مما علمه فى اثناء اسفاره فى افريقيا والشام من عدل العرب ورفقهم بأهل البلاد التى يفتحونها ، وكان قد تعلم بعض الألفاظ العربية مع غرابة تلك اللغة عنده وبعدها عن لغته ، وكانت السنون قد علمته الشجاعة ورباطة الجأش .. فنزل من الأكمة وسار يلتمس تلك الخيمة وهو يعجب لانفرادها هناك مع كثرة الخيام على الضفة الأخرى ، فتبادر الى ذهنه ان القوم قد وصلوا الى النهر فى ذلك المساء وأخذوا فى عبوره ، فأظلمت الدنيا قبل اتمام العبور فأجّلوه الى الغد ..

سار الشيخ حتى دنا من الخيمة فطرق اذنه صوت ارتعدت له فرائصه بغتة واستغرابا ، سمع ابنته مارية داخل الخيمة تتكلم وصوتها مختنق بالبكاء ، فلم يصبر عن الوثوب نحو الخيمة وهو لايخشى أحدا ولا يعى شيئا من فرط ما هاج من عواطفه ، خوفا على ابنته ، فاقترب من النار .. واذا هو بباب الخيمة ، فاعترضه رجل واقف هناك وقد تقلد سيفا ورمحا وهمّ بالقبض عليه وهو يقول باللغة العربية : « من انت ؟ » ففهم الشيخ ما يريده فأجابه بكلمات متقطعة انه يريد الدخول الى الخيمة .. فاستمهله الرجل ريثما يدخل ثم عاد وأشار اليه ، فدخل الشيخ ولحيته ترتعش فى وجهه ، وكان على شيخوخته وبياض شعره تتجلى الصحة والنشاط فى عينيه شأن أمثاله من أهل القرى والفلاحين

— ٥٧ —

بدر ويوليان

دخل الشيخ وأخذ يجيل بصره فى اطراف الخيمة للبحث عن ابنته ، فرآها جالسة فى أحد جوانبها على الأرض ، ولما وقع بصرها على أبيها ، مع ضعف نور المصباح هناك ، وثبت نحوه وهى تصيح : « أبى .. أبى ». فاستقبلها الشيخ بين ذراعيه وقد دمعت عيناها من البغتة والفرح ، ونظر الى صدر الخيمة فاذا هناك رجل كبير الهامة عليه العمامة والجبة فعرف انه من البربر ،

وبجانبه رجل بملابس القوط لم يحدق فيه الا قليلا حتى عرف انه يوليان صاحب سبتة ، فلم يستغرب ذلك لأنه كان قد سمع عن اتفاقه مع المسلمين على القوط ، وكان يحسب ذلك اشـاعة كاذبة .. فلما رآه تحقق من الأمر وأيقن ان العرب غالبون لا محالة

مرت كل هذه الخيالات فى ذهن الشيخ فى لحظة وهو معانق ابنته يخفف عنها ، وسمع صاحب سبتة يقول له بلغة الأسبان : « لعل هذه الفتاة ابنتك ؟ »

قال الشيخ : « نعم .. يامولاى .. »

قال يوليان : « لاخوف عليها فانها فى أمان .. ولا تظن ان مجيئك غيّر شيئا من عزمنا فى شأنها ، فقد كان الأمير عازما على ارجاعها اليك آمنة سالمة . واما بكاؤها الذى تراه فانما هو من خوفها . وقد ظنت هؤلاء العرب يرتكبون مثل مايرتكبه حاكمكم رودريك ، فانه بمثل هذا الفعل الشنيع سيخرج سلطانه من يديه ان شاء الله » . قال ذلك وانقبضت أسارير وجهه للحال فلم يدرك أحد سبب ذلك الانقباض .. على انه استطرد فى الكلام قائلا : « وأما سبب مجيئها الينا ، فان أحد رجال الأمير خرج فى اصيل هذا اليوم لحاجة فرآها فى الطريق فجاء بها وهو يحسبها من السبايا ، فلما علم الأمير بذلك انكره عليه ، وقد كانا فى جدال عنيف فى هذا الشأن الى ساعة دخولك »

ولم يتم يوليان كلامه حتى وثب الى وسـط الخيمة شـاب بملابس العرب وعلى رأسه عمامة صـغيرة ، ولكن سحنته غير

سحنة العرب ولا البرابرة ، وهو فى مقتبل العمر تتدفق الصحة من عينيه وجبينه ونظر الى يوليان وهو يقول : « أراك حرمتنى من غنيمتى رغبة فى مرضاة ابناء عشيرتك .. »

فأجابه طارق ، وهو يبتسم ، قائلا : « لا تتعجل يا بدر ، فانك ستصيب كثيرا من الغنائم .. فنحن فى أول الطريق ، وغدا تلتقى بجند طليطلة فما تظفر به من غنائم أو سبايا فهو لك .. أما الآن فاننا لسنا فى حرب ، ولا يمكننا ان نعد هذه الفتاة سبية . وهذا ابوها شيخ قد طعن فى السن ، وقد رأيت ما كان من لهفتـه عليها فهل يليق بنا ان ننغص عيشهما بلا حق ، والاسلام انما يدعو الى الرفق والعدل . واما السبايا التى تؤخذ بالحرب فهى حلال لأصحابها .. ومَنْ كان فى مثل بسالتك وجهادك يظفر بأحسن الغنائم وأجمل السبايا .. »

ثم التفت طارق الى الشيخ وقال : « انصرف ايها الشيخ الى منزلك وانت فى امان حتى تصل اليه .. واعلم اننا لم ندخل هذه البلاد الا رحمة بأهلها ، وان ديننا يأمرنا بالرفق والاحسان ... فكن انت وكل أهل الأندلس على يقين من ان من يكف يده عن حربنا فهو فى ذمتنا ولا خوف عليه . وأما الذين يجسرون على مناوأتنا فما دواؤهم الا السيف .. » ثم نادى : « ياغلام » فدخل رجل بربرى من اعوان طارق فقال له : « اصحب الشيخ وابنتـه حتى يصلا الى مسكنهما .. » ..

فهمّ الشيخ بتقبيل يد طارق ، فمنعه وطيب خاطره وصرفه .

فخرج وهو يثنى على ما لاقاه من طارق وقال فى نفسه : « بمثل ذلك يملك الأمير الرعية ولا يملكهم بالعنف أو الظلم .. »

أما بدر فانه سكت احتراما لطارق وفى نفسه حزازة على يوليان لاعتقاده انه هو الذى منعه من غنيمته ، ولكنه كظم ما فى نفسه وخرج من الخيمة اخفاء لعواطفه

— ٥٨ —

الهروب

تركنا فلورندا وخالتها والرجلين ، اجيلا وشاتتيلا ، هائمين على وجوههم فى ضواحى طليطلة . وكان السبب فى ذلك ، كما علمت من سياق الرواية ، ان اجيلا وشاتتيلا كانا فى انتظار فلورندا عند اسفل القصر فى تلك الليلة الباردة المرعدة ، فلما تيسر لها الافلات من بين يدى رودريك ، بعد أن بغته اوباس كما تقدم ، أسرعت الى النافذة وحملت ما استطاعت حمله من الثياب وايقونة صغيرة للسيدة العذراء ، كانت شديدة الاعتقاد بكرامتها ، فخبأتها بين ثيابها والتفت بالقباء ، وخالتها العجوز تساعدها على التأهب . فلما أتما الاستعداد بقدر الامكان أطلت العجوز ونادت ، وكان الرجلان على أهبة العمل فتسلقا الشجرة وتكاتفا على انزال فلورندا سالمة ، ثم العجوز وما بقى من الأمتعة الضرورية ، ونزلوا جميعا من الحديقة والرياح تهب والرعود

تقصف وهم من الخوف فى شغل عن كل ذلك حتى نزلوا الى القارب .. وكانت فلورندا تتوقع ان ترى الفونس فيه لأنه هو الذى كتب اليها ان توافيه اليه فلما رأت القارب خاليا اضطربت وقلقت ، واستحيت أن تسأل عنه ، فخاطبت خالتها بالأمر ، فالتفتت العجوز الى الرجلين وقالت : « وأين الأمير الفونس ؟ »

فقال شانتيلا : « لم يأت معنا ياسيدتى ... »

قالت : « وأين هو ؟ .. »

فخشى شانتيلا ان يكون فى قوله ما يسىء الى فلورندا لعلمه بما بينها وبين الفونس من الحب المتبادل . لأن الرجلين كانا قد ادركا سر المهمة التى انتدبهما لها اوباس وان كان هو يحسبهما آلة صماء يستخدمهما فى تحقيق غرضه . ولم يكن الفونس يتوهم ان احدا يعرف ما بينه وبين فلورندا ـ ذلك شأن المحبين حيثما كانوا ـ يحب الشاب الفتاة وهى تحبه ويطول بينهما زمن التراداد وهما يحسبان ان الناس فى غفلة عنهما ، وقد يكون بين الناس من يعرف كل جملة وكل كلمة مما يدور بينهما . وأعلم الناس بذلك خدم المنازل فهم يوهمونك انهم يشتغلون فى اعداد الطعام ، أو ترتيب أدوات المائدة وآذانهم تسترق ما يدور بينك وبين ضيوفك أو جلسائك من الأحاديث السرية وغيرها ، ويتفاخرون بتناقلها والمبالغة فيها على ما تقتضيه عواطفهم نحو صاحب ذلك الحديث . فان كانوا يحبونه جعلوا سيئاته حسنات ـ وأفضل ما يحبّبهم فيه الكرم ـ والا فانهم يجعلون الحسنة

سيئة .. أما اجيلا وشنتيلا فلم يكونا من طبقات الخدم ، وانما كانا من الأسرى كما تقدم وقد اطلعا على ما بين الفونس وفلورندا من الحب المتبادل ، وعلما مما كانا يسمعانه من احاديث الخدم ان رودريك أيضا يحبها . فلما طلب اليهما اوباس ان يذهبا الى هذه المهمة أدركا السر ، وأقدما على العمل وهما شديدا الغيرة على مصلحة الفونس لأنهما يكرهان رودريك وأهل بلاطه . وكانا قد رأيا الفونس خارجا على رأس حملة من الفرسان بأمر من الملك ، فأدركا انه ذاهب الى مهمة

فلما رأى شانتيلا ما كان من اضطراب فلورندا وسؤالها عن الفونس وهو ليس معهم ، خشي ان يكون فى الجواب ما يزعجها والوقت لايساعد للتمهيد ، فاشتغل بالتجذيف مع اخيه لدفع القارب الى مجرى النهر ، وكان المصباح قد انطفأ من شدة الرياح. على انه لم يجد مندوحة عن الجواب على سؤالها فقال لها : « نظنه فى منزل الميتروبولبت لأنه هو الذى أمرنا أن نذهب بك الى هناك » ..

فسكن روعها ، ولكنها ظلت مضطربة الخاطر اذ لم تكن تتوقع ان يعهد الفونس الى أحد سواه بانقاذها مع ما يظهره لها من الاندفاع فى حبها ، فأحست بعتب يمازجه شك ، ولكنها صبرت ريثما تلتقى بحبيبها وتعاتبه .. والعتاب احتكاك بين القلوب يزيدها حرارة وتجاذبا ..

سار بهم القارب وهم يطلبون ضفة قريبة من بيت اوباس

لأنهم كانوا معه على ميعاد ليذهبوا اليه ومعهم فلورندا

فطال بهم المسير فى النهر لهياجه واضطرابه ومقاومة الرياح لهم فضلا عن شدة الظلام ، وكانت فلورندا كلما خافت من خطر استعانت بالله وأخرجت الأيقونة وقبّلتها فيرتاح خاطرها ويطمئن بالها — تلك من ثمار الايمان وليس افضل منه وسيلة لتعزية الانسان — ومضى هزيع من الليل قبل نزولهم الى البر، فلما نزلوا اليه تشاوروا فيما يجب أن يفعلوه ، فقال اجيلا وكان أسرع خاطرا وأكثر اقداما من أخيه : « أرى أن تمكثوا هنا وأذهب انا الى بيت الميتروبوليت ثم أعود بمن يحمل هذه الأحمال » فاستصوب الجميع رأيه فمضى حتى أشرف على المنزل ، فرأى حوله فرسانا من جند الملك ، فأجفل وتراجع وقد شغل باله سبب وجود ذلك الجند هناك . ثم ما لبث أن رأى بعضهم يخاطب أوباس فتربص فى أحد المنحنيات ليسمع ما يدور بينهما ، ففهم من خلال الحديث ان الملك بعث بهم للقبض عليه . فلم يخامره خوف على اوباس لفرط اعتقاده بقدرته.. والناس شديدو الاعتقاد فى قسسهم ومعلميهم وآبائهم . فكل تلميذ يعتقد ان أستاذه أمهر الأساتذة ، وان كاهنه أقدس الكهنة ، وان أباه أقدر الآباء حتى يكاد يكون قادرا على كل شيء ، ولو لم يكن فى هؤلاء من المواهب ما يدعو الى ذلك الاعتقاد . فكيف بأوباس وهو على ما وصفناه من الهيبة والجلال والتعقل . فلم يخامر ذهن اجيلا خوف عليه قط ، ولكنه أوجس خيفة على فلورندا لاعتقاده ان فرارها هو

سبب القبض عليه ، فلما توارى الركب عنه تحوّل نحو القصر على أمل أن يخاطب بعض الخدم ، فمشى وهو يسترق الخطى استراقا ويحسب الدخول سهلا بعـد ذهاب الحرس ، فاذا هو بكوكبة أخرى قد أحـدقوا بالقصر واستخدموا القوة لاخراج الذين فيه ، وبالغوا فى التخريب والتعذيب

فلما رأى اجيـلا ذلك أيقن بالخطر الذى أصبح معرضا له هناك وبما يهدد فلورندا من الأخطار الجسام اذا اطلع الملك على مقرها فهرول مسرعا ولم يعد له شاغل سوى فلورندا ، وخاصة حينما تصور منزلتها عند الفونس واوباس .. فاعتزم ان يبذل كل ما فى وسعه ووسع اخيه فى سبيل انقاذها وحمايتها الى آخر نسمة من الحياة ..

— ٥٩ —

الكتاب

وكانت فلورندا جالسـة على الأرض وفى حجرها صرة قد اتكأت عليها بكوعيها ، والتفت بطرفها التفافا شديدا لشدة البرد والريح . وكان التعب قد أخذ منها مأخذا عظيما لما مرّ بها تلك الليلة من الانفعالات النفسية ، وما قاسته من الأهوال وما خافته من الفضيحة ، كل ذلك غلب على قواها حتى مالت الى النعاس ، ولاسيما بعد ان ظنت انها قد نجت من حبائل ذلك الرجل الشرير ،

فأسندت رأسها على كفها وأغمضت جفنيها فنامت . ولما رأتها بربارة نائمة اجازت لنفسها الارتياح هنيهة . اما شانتيلا فانه ظل ساهرا قلقا وقد استبطأ اخاه وحسب لغيابه ألف حساب ، وربما لامه لابطائه ومغادرته اياهم عرضة للهواء والبرد ، وتوهم انه لو ذهب هو فى تلك المهمة لكان أقدر منه على اتمامها وتقدير ما قد ينجم عن البطء من الاضرار . على انه ما لبث أن رآه عائدا وحده فذعر لانفراده ، فاذا هو يقول : « هلم بنا سريعا حتى نخرج من هذه الضواحى الليلة لأنى اعتقد ان الملك سيبث علينا العيون والأرصاد ابتداء من صباح الغد »

فأفاقت فلورندا من نومها مذعورة ، وصاحت : « ويلاه .. والى أين نذهب ؟.. نجنى يا مخلصى .. أين الفونس ؟ »

فقال : « ليس فى المنزل احد ياسيدتى .. »

قالت : « ولا اوباس .. هل رأيت الفونس هناك ؟ »

فقال : « ان الفونس لم يكن هنـــاك يامولاتى .. »

فذعرت وقالت : « اين هو اذن ... يا الهى اين الفونس ؟ . وكيف عرفت انه ليس هناك .. ؟ »

قال : « لأنى رأيت اوباس وهو بين يدى الجند الملكى يسير الى قصر الملك ، ثم رأيت الجند قد دخلوا بيته وأخرجوا كل من كان فيه من الخدم ، ولم اسمع ذكرا لسيدى الفونس بينهم ، فلعله لايزال فى منزله ... »

فقطع شانتيلا كلام أخيه وقال : « ان سيدى الفونس لم

يرجع الى قصره قبل خروجنا منه »

قالت : « اين كان قبل خروجكم .. ؟ »

قال : « كان قد ذهب فى مهمـــة بأمر خاص من الملك » . فتذكرت للحال ما سمعته من رودريك فى تلك الليلة عن ابعاد الفونس ، وكانت تحسبه يقول ذلك على سبيل التهديد ، فأيقنت عند ذلك صـــدق قوله ، ولكنها لم تكن تدرى هل أبعده أو حبسه ، فأعادت السؤال قائلة : « هل انت واثق من ذهابه ؟ .. وهل تعلم الى أين ؟ »

قال : « انى واثق من خروجه من قصره ومن ورائه الحرس الملكى ، وأما الى أين ذهب فلا أعلم ، ولكن الغالب انه ســـار فى مهمة الى بعض البلاد ... »

فعاد اجيلا وقطع كلام أخيه قائلا : « أظنه أُرسل فى قيـــادة حملة الى بعض البلاد لاخماد ثورة أو مخابرة بعض الكونتية مما يحدث كثيرا فى هذه الأيام .. ولا بأس عليه باذن الله ، ومتى استقر بنا المقام وأمنّا العيون والأرصاد .. بحثنا عن مكانه ، وبذلنا كل ما يؤدى الى راحتك وراحته فاننا صنيعته وأرواحنا له .. والآن لابد لنا من مغادرة هذا المكان حالا .. والفرار من الظلم فضيلة .. ولنترك البحث فى مصيرنا الى وقت آخر ، دعونا نرجع الى القارب ونسير مع مجرى النهر حتى نخرج من حدود هذه المدينة ، واهلها وحراسها فى شغل عنا بالأمطار والزوابع ، فاذا صرنا فى مأمن بحثنا فيما نفعله » . قال ذلك وتقدم الى

فلورندا يريد مساعدتها في النهوض ، فنهضت واتجهت الى القارب وقد عادت اليها مخاوفها وتبعتها خالتها وهي تحمل صرة الثياب ، وبقي هناك صندوق تعاون الرجلان على حمله ، ونزلا الى القارب واخذا في التجديف. وكانت الزوابع قد خفت حدتها ، وساعدهم التيار حتى خرجوا من ضواحي المدينة .. وأصبحوا في مكان لايرون فيه احدا ، ولايسمعون صوتا غير نقيق الضفادع.. وكان قد مضى معظم الليل فآووا بالقارب الى منعطف وراء تل يداريهم من الرياح . وقال اجيلا عند ذلك لفلورندا : « نحن الآن في مأمن — ياسيدتي — فاذا شئت النوم الى الصباح فلا بأس عليك ، وكذلك الخالة . واما نحن فاننا نتناوب الحراسة ريثما يطلع النهار ونبحث عن الجهة التي نسير اليها »

نامت فلورندا بقية ذلك الليل نوما مضطربا ، وتراكمت عليها الهموم فتذكرت حبيبها ومصيره ، وكيف كان رودريك سببا في تشتيت شملهما . وتذكرت والدها ومقدار تعلقه بها منذ حداثتها ، وماذا عسى ان يكون من غضبه اذا بلغه خبرها ، وكم يكون فشله وخيبة أمله مع صبره على روديك واغضائه عن تعديه على الملك .. فحدثتها نفسها ان تشكو أمرها اليه وتستحثه على الانتقام لها . فلما استيقظت تناولت قطعة من نسيج كتبت عليها الكتاب الذي تقدم ذكره ، واستدعت اجيلا فوقف بين يديها فدفعت الكتاب اليه ، والدمع يترقرق في عينيها من شدة تأثرها وهي تكتب الكتاب ، وقالت : « لقد رأيت من مروءتك ومروءة

اخيك ما يوجب سروری وامتنانی كثيرا ، وقد وعدتنی بالبحث عن الفونس ، وأطلب اليك فوق ذلك أن توصل هذا الكتاب الى أبی ، فهل تعرف من هو .. ؟ »

قال : « نعم ياسيدتی ، انه الكونت يوليان صاحب سبتة »

قالت : « هو بعينه .. هل تسير اليه بهذا الكتاب ؟ »

فأشار بيديه ورأسه وعينيه انه يفعل ذلك من كل قلبه . ثم قال : « ولكننی أری يامولاتی ــ قبل كل شیء ــ ان نعمل علی تهيئة مكان أمين لك ، أعرف الطريق اليه اذا انا عدت بالجواب اليك .. »

فالتفتت فلورندا الی خالتها وقالت : « ما رأيك ياخالة ؟.. اين تكون اقامتنا اقرب الی الأمن والسلامة ؟ .. »

وكانت العجوز مطرقة فبالغت فی الاطراق ولم تجب . فأعادت السؤال عليها فرفعت رأسها وفی وجهها ملامح البشر ، وقالت : « اظننی عثرت علی طريقة لا ترون خيرا لنا منها فی هذه الأحوال .. »

قالت فلورندا : « وما هی ؟ .. »

قالت : « لايخفی عليكم ان فی هذه البلاد أديرة ينقطع فيها الرهبان عن العالم تعبدا لله تعالی ، وتكون هذه الأديرة غالبا فی البراری او فی الجبال ومنها ما لايدخله الناس الا نادرا ، فالرهبان منقطعون عن العالم بأسره .. فاذا أقمنا فی أحد هذه الأديرة كان فی ذلك ستر لحالنا ريثما يتيسر أمرنا ... »

- ٦٠ -

دير الجبل

فتقدم اجيلا وكأنه تذكر أمرا ذا بال ، وقال : « لقد أعاد كلام الخالة الى ذاكرتى أديرة للنساء العذارى .. ان الاقامة فيها اولى لمولاتى لأنها تكون بين عذارى مثلها »

فقطعت العجوز كلامه قائلة : « صدقت يا اجيلا ولم أكن اجهل وجود هذه الأديرة ولكننى لم أتم كلامى بعد .. ان أديرة العذارى مناسبة لى ولفلورندا .. ولكننا لا نستغنى عن احدكما معنا فأين يقيم واقامته معهن محظورة .. ؟ » قالت ذلك وصبرت لحظة وفى ملامح وجهها انها لم تنته بعد من الكلام ، ثم قالت : « فى اسبانيا من الأديرة ما يجتمع فيها الرهبان والراهبات معا فى دير واحد بدون اختلاط .. وذلك ان بعض الأرامل من النساء يرغبن بعد موت أزواجهن فى الانقطاع عن العالم والتعبد ، فيقمن فى أديرة خاصة بهن وقد يكون معهن بعض العذارى . ولكن بعضهن يبالغن فى التنسك والرغبة عن العالم ، فيقمن فى اديرة لايخرجن منها على الاطلاق . ومثل هذه الأديرة كثيرة فى هذه البلاد ولا اظنكم تجهلون وجودها . ولكنى اعرف ديرا بين هذه الجبال (جبال طليطلة) خصص جانب منه للرهبان والجانب الآخر للراهبات ، وكل طائفة منهما فى قسم من الدير لا علاقة

لها بالطائفة الأخرى ولا بسائر العالم الا نادرا . ولا يلتقى الراهبات والرهبان معا الا فى الكنيسة فى أوقات الصلاة . وقد علمت من قواعد هذه الرهبنة ان الراهبة لا يمكنها مخاطبة أحد من الناس حتى رئيس الدير أو وكيله الا بوجود راهبتين أخريين (١) وهذا التدقيق نافع فى منع المحظورات .. فأرى اذا استحسنت فلورندا أن نذهب الى ذلك الدير فنقيم أنا وهى فى قسم الراهبات ، وأنت وأخوك تقيمان فى قسم الرجال .. نقيم هناك ضيوفا لنرى ماذا يكون .. »

فالتفتت فلورندا وقد أشرق وجهها وقالت : « بورك فيك ياخالة ، لقد نطقت بالصواب .. هلم بنا الى ذلك الدير ... هل هو بعيد عنا .. ؟ »

قالت : « لا أظنه يبعد عنا الا مسيرة يوم وبعض يوم .. وطريقنا اليه غير مطروق فلا نخاف عينا ولا رقيبا »

قالت فلورندا : « هل تعرفين الطريق بنفسك ؟ »

قالت : « أظننى أعرفه وقد مررت بذلك الدير منذ بضعة أعوام .. سيروا بنا على بركة الله »

قالت فلورندا : « أرى يا خالة — قبل كل شىء — أن يذهب اجيلا بالكتاب الى أبى ، فاذا عاد منه بخبر جاءنا الى ذلك الدير »

قالت : « لك الأمر فافعلى ما تشائين »

فالتفتت فلورندا الى اجيلا وقالت : « سر فى حراسة المولى ،

---

(١) روحى — الجزء الثانى

ومتى رجعت تعال الى دير الجبـــل الذى سمعت خبره ، واذا استطعت معرفة خبر الأمير الفونس فانك أحصف من أن أوصيك بالذى ينبغى أن تفعله »

فانشرح صدر اجيلا لهذا الاطراء وانحنى بين يديها وودعهم وانطلق ، أما هم فخرجوا من القارب وحمل كل منهم ما يستطيع حمله وأوغلوا بين التلال والجبال ، ودليلهم العجوز وهى تسير أمامهم كأنها تلتمس منزلا تذهب اليه كل يوم

قضوا عدة ساعات لم يلتقوا فى أثنائها بعابر ولا جالس ، وأكثر التلال التى قطعوها جرداء الا ما كان على جوانب الأودية من شجر ملتف مهمل قلما امتدت اليه يد الانسان ، وكانت الأمطار قد أغرقتها فى الليل الماضى وتخللتها السيول .. فلما صحا الجو فى ذلك الصباح وأشرقت الشمس ساد الدفء .. على أن وعورة الطريق أتعبتهم وخصوصا فلورندا ، وهى لم تتعود هذه المشاق، ناهيك بما فى قلبها من لواعج الحب وما ينتابهـــا من الهواجس والأشواق ..

قضوا معظم النهار فى المسير وباتوا وشاتتيلا حارسهم وعونهم فى كل ما يحتاجون اليه من الطعام ونحوه ، ومشوا معظم اليوم التالى ولا حديث لهم الا تكرار ما فات ، حتى اذا مالت الشمس نحو الأصيل وصلوا الى سفح جبل أطلوا منه على بناء شـــامخ أشبه بالحصون منه بالأديرة .. فلما شاهدته العجوز صاحت :

« هذا هو .. قد وصلنا ولكن لا بد لنا من الصعود .. »

قالت فلورندا : « فلنصعد » ولملمت أثوابها مشمرة وهرولت اليه ، فعلت ذلك لشدة رغبتها فى الوصول والاستراحة وارسال شانتيلا لاستطلاع الأخبار من طليطلة عن مصير القونس وعن حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة ، وربما زادت مساحة العجوز وشانتيلا بين يديهما حتى وصلوا الى الدير، فاذا هو فى ساحة فى سفح ذلك الجبل ، وهو بناء قديم العهد غريب الشكل حوله سور من الحجارة الضخمة الكبيرة ، وربما زادت مساحة ذلك الدير على ثلاث قصبات أو أربع ، وشكله مربع طوله نحو خمسمائة قدم ، والسور عظيم الارتفاع ليس فيه من النوافذ سوى شقوق مستطيلة فى أعلاه ، وباب واحد فى أحد جوانبه ، والباب صغير جدا بالنسبة الى ضخامة ذلك السور يراه الناظر كالنقطة فى الصفحة . وفى أعلى السور فوق ذلك البـــاب برج حصين كأنه قلعة وهو مكان للمراقبة يقيم فيه حارس الباب (١)..

وقفت فلورندا وخالتها وشانتيلا وهم يلهثـــون من التعب ويعجبون من منظر ذلك الدير ، فلما استراحوا قال شانتيلا : « هل تأذن مولاتى بأن أقرع الباب وأستأذن فى الدخول ؟ »

قالت : « افعل .. »

فتقدم شانتيلا حتى وقف بالباب ، فاذا هو مصفح بالحديد تصفيحا متينا ، وقد استدل على سمك ذلك الحديد من ضخامة رؤوس المسامير التى كانت بارزة فوق سطح الباب ، ولايزيد ارتفاع

(١) دائرة المعارف البريطانية

الباب على قامة الانسان الا قليلا .. فتفرس فى جوانبه لعله يرى
حلقة يدق بها فلم يجد شيئا ، ثم وقع بصره على حبل مرسل من
ثقب فى أعلى الباب نحو الخارج ، فأمسكه وشده فسمع جرسا
يدق فى الداخل فعلم انه قد أصاب ، ثم انتظر بعد الدق هنيهة
فرأى رأسا أطل من نافذة صغيرة فى البرج المذكور ، وقد كساه
شعر ناصع البياض حتى لم يظهر من وجهه الا أنف بارز، وعينان
تتلألآن فى غورين فوقهما حاجبان بارزان .. وفوق الحاجبين جبين
أصبحت تجاعيده كالميازيب أو الأخاديد . أطل الشيخ برأسه
ولبث برهة لايتكلم ، فلم يصبر شاتتيلا على سكوته لعلمه بما
ألمّ بفلورندا من التعب فصاح فيه : « أما من مأوى عندكم
للغرباء ولو الى حين ؟ »

وما أتم شاتتيلا كلامه حتى تراجع الشيخ من النافذة واختفى
ولم يبد جوابا ، ولم تمض برهة حتى سمعوا قلقلة مفتاح وراء
الباب توسموا منها قرب الفرج .. وطال زمن القلقلة ثم سمعوا
صريرا فتدانوا الى الباب يتوقعون فتحه ، فاذا هو لايزال مغلقا
فلبثوا ينتظرون ، فعادت القلقلة ثم سمعوا الصرير ولم ينفتح
شىء فملوا الانتظار وخشوا أن يكون وراء ذلك ما يوجب
الخوف ولا سيما فلورندا ، فانها كانت واقفة وبصرها مثبّت
على ذلك الباب ..

وأما العجوز فقد كانت جالسة على حجر وقد ذبلت عيناها من
أثر التعب من مسير ذلك اليوم حتى كادت تنام ، واذا بصرير

عنيف استرعى انتباهها .. فنظرت فرأت الباب ينفتح بتثاقل كأن فاتحه يجر ثقلا كبيرا . فظلت فلورندا فى مكانها وتقدم شاتيلا نحو الباب ، فاستقبله ذلك الشيخ وعليه لباس الرهبان فى أبسط أحواله ، وهو رداء أشبه شىء بالعباءة يستر بدنه الى الركبة ، وساقاه عاريتان ، وقدماه حافيتان ، وقد أصبح اخمصاهما كالنعال لطول ما مرّ بهما من مصادمة الأحجار والاحتكاك بجذوع الأشجار . خرج الشيخ الراهب وبيده عكاز أعقف الطرف قبض على عقفته بأنامل كأنها عظام عارية ، وقد تصلّبت مفاصلها وتنأت من أعلى الكف ، حتى أصبح بسط تلك الكف مستحيلا .. وكأنها خلقت للقبض على ذلك العكاز ، وما زالت قابضة عليه حتى تصلّبت وهى متقبضة

وكانت تلك العباءة قصيرة الأكمام ، وقد ظهر كوع الراهب وقد خشن جلده حتى لتحسبه اذا نظرت اليه كأنه اخمص القدم ، وكأن الشيخ قضى عمره يدب على اخمصيه وكوعيه

— ٦١ —

فترة انتظار

أطل الشيخ عليهما وظل واقفا بالباب ، فأسرع الجميع اليه وأولهم شاتيلا فانه نزع قبعته عن رأسه وهمّ بيد ذلك الشيخ فقبّلها وفعلت ذلك فلورندا وخالتها

فقال الراهب الشيخ ، وفى نغمــات صوته خشونة البرية : « ما الذى جاء بكم الى هذا المكان ؟ »

فقال شـاتيلا : « جئنا نلتمس البركة من صاحب هذا الدير فهل هناك ما يمنع ؟.. »

قال : « كلا ، ولكن هــذا الدير قسمان : قسم للرهبان ؛ وقسم للراهبات ، فأيهما تريدون ؟ »

قال شاتيلا : « كما تشاءون ... »

قال : « وعلى كل حال فان ذلك يرجـع الى رأى الرئيس العام .. »

ثم اتجه الى الداخل وأشار اليهم أن يتبعوه .. فدخلوا فى أثره ، فاذا بالباب يؤدى الى دهليز قصـــير فيه بابان آخران مصفحان بالحديد مثله . وانتهيا من الدهليز الى فناء واسع سقفه القبة الزرقاء . ولم يطأوا الفناء حتى ســمعوا الأبواب تغلق ، ونظروا الى ما حولهم فرأوا جدران ذلك الدير هائلة الارتفاع ، وهم فى باحة مرصوفة بالحجارة الصلبة أو لعلها من صخر الجبل نفسه ، وأحست فلورندا كأنها فى سجن حصين

فمشى بهم الراهب بضع خطوات نحو اليسار.. فانتهى الى باب يلى الجدار الذى دخلوا منه ففتحه وأدخلهم فيه ، فاذا هى غرفة تؤدى الى عدة غرف .. فأشار الراهب الى الغرفة ، وقال : «هذه دار الضيافة فأقيموا فيها ريثما أقابل حضرة الرئيس وأخبره بأمركم ، وما يأمر به يكون» قال ذلك وتحوّل يريد الخروج ،

فسمعوا جرسا يدق ورأوا الراهب حين سمع دقات الجرس يلقى العكاز من يده ويرسم اشارة الصليب ، ويقف باحترام ، ففعل الجميع مثل ما فعل دون أن يدركوا السر فى ذلك

على أن الراهب ما لبث أن التفت اليهم وهو يقول : « لاسبيل لنا الى مخاطبة الرئيس الآن لأن الصلاة قد آن أوانها ، وقد نزل الجميع الى الكنيسة ، وأنا أيضا سأذهب .. وبعد الصلاة نرى ماذا يكون »

فلما سمعت فلورندا ذكر الصلاة انشرح صدرها وتذكرت ما كان من صلاتها الحارة منذ بضعة أيام ، وكيف أنقذها الله بها . فتقدمت الى الراهب وهى تخاطبه بلسانها العذب وصوتها الرخيم : « ألا يسوغ لنا حضور القداس واستماع الصلاة يا سيدى ؟..»

قال : « الصلاة لا تحجب عن مسيحى ، والكنيسة لا تغلق أبوابها فى وجه أحد .. »

فمشى الراهب أمامهم وهم يتبعونه فى وسط تلك الباحة ، حتى انتهوا فى صدرها الى باب كبير ، وقبل الوصول اليه اشتموا رائحة البخور ، فعلموا انه باب الكنيسة .. فدخلوا منه فى اثر الراهب فأطلوا على مذبح فى صدره ، وقد قسم صحن الكنيسة الى شطرين : شطر للراهبات ، وشطر للرهبان ، فهداهم الراهب الى مكان وقفوا فيه لاستماع القداس ، وكان أكثرهم تخشعا فلورندا . فكم قرعت صدرها ، وكم توسلت الى الله ، والى السيد المسيح أن ينجى خطيبها من المهالك ويعيده اليها سالما

فلما انقضت الصلاة تفرق الجمع.. فخرجت الراهبات من باب ، وخرج الرهبان من باب آخر .. وعاد الراهب العجوز بفلورندا وصاحبيها نحو دار الضيافة .. ولاحظ ، وهم خارجون ، ان فلورندا أخرجت من جيبها نقودا وضعتها أسفل الأيقونة التى كانت تصلى أمامها ، ورأى النقود صفراء لامعة ، فاستدل من ذلك على أن الضيوف من أهل الثراء ، وربما تبرعوا بمال كثير لصندوق الدير ، فرافقهم الى دار الضيافة ، وهرول راجعا وهو يتوكأ على عصاه حتى وصل الى الرئيس ، وقصّ عليه ماكان من مقدم هؤلاء الغرباء الى أن قال : « ويبدو من مظهرهم ولهجتهم انهم من أهل طليطلة ، ويؤيد ذلك ما رأيته من كرمهم ، فهل تأذن لهم بالمثول بين يديك ؟.. »

فقال الرئيس : « بل أرى أن أذهب أنا اليهم »

قال ذلك ونهض وعليه رداء بسيط أيضا ، ولكنه أرقى حالا من رداء الراهب البواب ، وهو عبارة عن عباءة أطول قليلا من تلك ، وقد تمنطق عليها بحبل واحتـــذى نعلا من خشب وعلى رأسه شبه قبعة سوداء .. وكان الرئيس كهلا بدينا ربع القامة ، حسن الطلعة ، صحيح الجسم ، نيّر البصيرة ، وكان كثير المطالعة والبحث ، فصيح اللسان . ذلك ما رفعه الى درجة الرئاسة وهو كهل ، وتحت سيطرته عشرات من الرهبان معظمهم شيوخ مثل راهبنا العجوز . والرقى فى رتب الكهنوت يغلب أن يكون عن أهلية ، اذ لا تأثير هناك لدالة القرابة أو نفوذ العصبية ، والكل

سواء فى الاغتراب والاعتزال لا يتفاضلون بميراث ولا بصنيعة ، ولكل منهم نصيبه من اجتهاده وسعيه وكفايته .. فاذا ارتقى راهب الى الرئاسة أو نحوها فى سن مبكرة ، كان ذلك دليلا على تفوقه على رفاقه فيما يؤهله الى تلك الرتبة . ويغلب فى هذه الأحوال أن يكون السابق محسودا أو مكروها . أما رئيس دير الجبل فقد كان على العكس من ذلك لما فطر عليه من اللطف والدعة وكرم الخلق، بدليل انه لما سئل عن مجىء أولئك الضيوف اليه فضّل أن يذهب هو اليهم بنفسه تلطفا منه وتواضعا

وكانت فلورندا حين عادت من الكنيسة جالسة على مقعد فى احدى غرف الضيافة ، وقد هاجت أشجانها وتنبه ذهنها للتفكير فى ألفونس ، فاستغرقت فى الهواجس ، والعجوز الى جانبها صامتة لا تتكلم وقد غلب عليها النعاس لفرط التعب . وشانتيلا واقف بجوار الباب ينتظر عودة الراهب ، وكانت الشمس قد أشرفت على المغيب .. ولمغيب الشمس فى الجبال هيبة ورهبة ، ولا سيما حيث يقل الناس ..

— ٦٢ —

حديث مع الرئيس

لم تمض برهة حتى أقبل الرئيس وبيده رق كان يطالع فيه حين حدثه الراهب . فلما رآه شانتيلا تأدب فى وقفته ، وقد

توسّم فيه رجلا يعرفه أو انه يشبه رجلا يعرفه.. على انه لم يكن يستطيع التفكير طويلا فى تلك الفرصة الضيقة . فلما دنا الرئيس من دار الضيافة أشار شانتيلا الى فلورندا أنه قد أتى ، وتقدم هو حتى جثا بين يديه وتناول أنامله فقبّلها ، والرئيس يظهر عدم ارتياحه الى ذلك المجد الباطل . ولما دنا من الباب خرجت فلورندا لاستقباله وجثت وقبّلت يده وكذلك فعلت خالتها . وكان الرئيس عندما استقبل الفتاة لم يمعن نظره فيها على جارى العادة فيمن يتأدب من الرهبـان .. على انها حين جلست بين يديه تذكر أنه رآها قبل الآن فقال لها : « لعل هذه السيدة والدتك ؟ »

قالت : « كلا يامولاى ، بل هى خـالتى .. » قالت ذلك واستعاذت بالله من تلك الأسئلة ، وخشيت أن يسألها عن اسمها ونسبها ، ولا مندوحة لها عن الجواب الصريح لأنها تكره الكذب كرها شديدا . وودت لو يوجه الرئيس أسئلته الى شانتيلا لأنه أقدر منها على التخلص من الصدق الصريح . على أنها تذكرت ما للناس من الثقة فى جماعة الكهنة ، فهم يعلنون لهم أسرارهم بالاعتراف ويقصون عليهم كل ما اقترفوه ولو كان عظيما ، فهان عليها الأمر وعزمت على أن تجعل حديثها مع الرئيس من باب الاعتراف اذا رأت ما يدعو الى ذلك ..

مرت كل هذه الخواطر فى ذهنها فى لحظة ، فلما سألها الرئيس السؤال الثانى كانت قد تهيأت للجواب فقال لها : « ومن أين أنتم قادمون ؟.. »

فالتفتت فلورندا اليه وقالت : « اذا أذن لى حضرة السيد ، تجاسرت بعبارة أرجو أن لا تثقل عليه .. »

قال : « كلا ، قولى .. »

قالت : « اذا لم يكن لسيادتكم بد من الاستفهام عن كل ما يتعلق بنا ، فانى أرجو أن تجعل ذلك على سبيل الاعتراف ، لأن فى قصتنا سرا لا يمكن التصريح به لأحد الا عن هـذا السبيل .. »

فحنى الرئيس رأسـه مطيعـا وقال : « لايهمنى البحث عن أحوالكم الا لأننى أرجو أن أتمكن من خدمتكم فى شىء ، فأنتم مخيرون فى الكلام أو السكوت ، وعلى كل حال فانكم ضيوف مكرمون .. »

فقالت فلورندا وقد أعجبت بلطف الرئيس : « نشكرك ، ولا نقبل مع ذلك الا اطلاعك على سرنا لما توسمناه فيك من اللطف . ومكاشفة أمثالك بالأسرار فرج ورحمة .. فهل نغلق الباب ؟ »

وكان شانتيلا قد سمع شيئا من كلام فلورندا فابتعد عن الباب فخف الرئيس بنفسه الى الباب كأنه يهم باغلاقه ، ولكنه أشار الى العجوز ولسان حاله يقول : « وهل تبقى هذه المرأة لسماع الاعتراف ؟ » ..

فأدركت فلورندا قصده فقالت : « ان هذه الخالة مستودع أسرارى فلا بأس من بقائها .. »

فأغلق الرئيس الباب فأظلم المكان فعاد ففتحه وصفق ، فجاء

راهب وبيده مصباح مضىء بالزيت ، فوضعه على مسرجة فى الحائط وانصرف . فأغلق الرئيس الباب وجلس وأصاخ بسمعه لما تريد فلورندا أن تقصه عليه ، ولم تكد تبدأ بالحديث حتى اهتم بالوقوف على بقية الحديث وان لم تكن قد صرحت له بكل شىء ، وانما قالت له : « نحن من طليطلة وقد خرجنا للتخلص من أناس أرادوا اغتيالنا فلم نجد وسيلة للنجاة غير الفرار » ..

فقال الرئيس : « ولماذا لم تلجأوا الى جلالة الملك فانه المكلف بنصرة المظلومين ؟ »

فلم تدر فلورندا بماذا تجيب ، وأدرك الرئيس ارتباكا فتوسم شيئا أحب أن يقف على حقيقته ، فقال : « يظهر أن الملك أيضا من جملة من تخافون ؟.. »

فتصدت العجوز للجواب وقالت : « نعم ، ولماذا الكتمان .. بل كان خوفنا من الملك نفسه » ..

فبغتت فلورندا لهذا التصريح ، ولكنها اطمأنت لاعتمادها على سر الاعتراف وهو مقدس لا يباح به . ولحظ الرئيس بغتتها ، فقال لها : « ومن هو الرجل الذى جاء معكما ؟ .. »

قالت فلورندا : « هو من أتباع بعض أهلنا .. »

فابتسم الرئيس وقال : « أليس هو من أتباع الأمير ألفونس ؟.. »

فلما سمعت فلورندا ذكر ألفونس تصاعد الدم الى وجهها حتى كادت تختنق ، وتلعثم لسانها والتفتت الى خالتها كأنها تتوقع

مخرجا من عندها ، فاذا بالعجوز تقول : « بلى يا مولاى انه من خدم الأمير الفونس بن غيطشة ملك الأسبان السابق .. وهل تعرفه ؟ » ..

فتحول الرئيس من الابتســام الى الانقباض ، ولم يستطع التوقف عن الجواب فقال : « نعم أعرف غيطشة وأعرف أولاده وكل أهله .. ومَنْ مِن كهنة اسبانيا لايعرف أخاه الميتروبوليت أوباس.. ومن لم يستفد منعظاته أو قدوته أوحكمته أو درايته ، ذلك الرجل الذى لا أظن الزمان يجود بمثله ولكن ... »

فلما سمعت فلورندا اطراءه أوباس اطمأن بالها الى أن الرجل ميّال الى حزب الملك السابق فلا خوف منه على سرها ، ولكنها لاحظت منه أنه يحاذر أن يكاشفها بما فى ضميره للسبب الذى تخافه هى فى مكاشفته ، لولا الاعتراف ، فعزمت على استطلاع حقيقة رأى الرجل وهى فى مأمن على ما تقوله فىظل سر الاعتراف فقالت : « ألا تدرى أين هو أوباس الآن ؟ .. » ..

قال : « كلا ، وأين هو ؟.. »

قالت : « انه فى ظلمات السجن منذ يومين »

قال : « ومن ساقه الى السجن ؟.. »

قالت : « ساقه الملك رودريك ، بعث الى بيته بكوكبة من الفرسان فأخرجوه من فراشه .. »

فوقف الرئيس مذعورا وظهرت على وجهه امارات الغضب وقال : « ساقوه الى السجن .. أمثل أوباس يسجن..؟ قبّح الله

الجهل .. كيف تجرأوا على مس يده لغير التقبيل ، وكيف خاطبوه بغير الاحترام والتبجيل ؟ . »

فتحققت فلورندا عند ذلك أن الرئيس من مؤيدى أوباس وأهله ، فتاقت نفسها الى الاستنجاد به أو مشورته فى أمر الفونس ، ولكنها استحيت فأطرقت ، فراحت خالتها تواصل الحديث نيابة عنها قائلة : « والفونس .. هل .. تعرفه ؟.. »

قال : « كيف لا وقد عرفته منذ طفولته ، وكثيرا ما كنا نلتقى فى طليطلة أيام المواسم والأعياد على عهد المرحوم أبيه »

فوقفت العجوز ونظرت الى الرئيس نظر المتفرس وقالت : « أما وقد برح الخفاء فأخبرك أن الفتاة التى تراها بين يديك هى خطيبة ألفونس ، وأراد ملك طليطلة أن يحرمه منها بالقوة فأرسله فى مهمة الى أقصى بلاد الاسبان . فلما رأت عزمه وفهمت مراده خرجت من قصره فرارا ، ثم علمنا ان رودريك ألقى القبض على أوباس لأنه ساعد على انقاذها من بين مخالبه . هذه واقعة الحال كما هى .. »

— ٦٣ —

مهمة جديدة

فتفرّس الرئيس فى فلورندا وقال : « أليست هذه بنت يوليان حاكم سبتة خطيبة الفونس ؟.. انى أول الشاهدين على خطبتها

وقد كان أهلها تتحدثون بخطبتها الى ألفونس ، وهما طفلان ، ثم خطبها ، وأوباس هو الذى سعى الى ذلك العقد ، فكيف يتجرأ رودريك على حلّه ..؟ »

فلما سمعت العجوز كلامه تذكرت أنها كانت تراه يتردد على قصر طليطلة على عهد غيطشة بلباس غير هــذا اللباس فقالت : « ألست الأب سرجيوس ؟.. »

قال : « أنا سرجيوس وكنت كاهنا أتردد على طليطلة بالنيابة عن هذا الدير، فلما رأيت الدسائس تتعاظم ضد المرحوم غيطشة ، ولم أجد ســبيلا الى نصرته أقمت فى هــذا الدير حتى توليت رئاسته . ولو أطاعنى أوباس لأقمنا هنا معا فى أمن وسلام .. »

ثم التفت الرئيس الى فلورندا وقال لها : « كونى مطمئنة يا ابنتى ان سرك محفوظ فى بئر عميقة ، واعلمى انى نصيرك ونصير أوباس فى كل شىء .. سامحه الله ، كم قلت له دع طليطلة وتعال الى هذا الدير نعبد الله فيه ونبتعد عن دسائس العالم وشرور أهل المطامع ، وعندنا من المؤونة والأموال ما يكفينا طول العمر ، فأبى الا البقاء هناك . وأظنه بقى لرعاية أبناء أخيه ولا سيما ألفونس ، ثم أطرق وهز رأسه وقال : « أفأوباس فى السجن الآن ؟.. »

قالت فلورندا : « علمنا أنهم ساقوه الى السجن ولا ندرى أسجنوه أم قتلوه ؟ وكان فى عزمنا بعد نزولنا فى هذا الدير أن نبعث هذا الشاب الى طليطلة كى يحاول أن يعرف الحقيقة ثم يعود الينا بالأنباء الصحيحة .. »

فقطع الرئيس كلامها قائلا : « لا .. لا يصلح هــذا لذلك لأنهم يعــرفونه ويعرفون انه من أتبــاع الأمير الفونس أو الميتروبوليت أوباس ، وربما قبضوا عليه وسجنوه أو قتلوه . دعوا ذلك التّى فقد أصبح البحث فى هذا الأمر من واجباتى .. كونوا فى راحة حتى تأتيكم الأخبار صاغرة » قال ذلك ونهض وهو يقول : « وقد آن لكم أن تستريحوا من عنــاء السفر ، واعلموا أن الدير ومن فيه تحت اشارتكم ، لأننا جميعا صنيعة الملك غيطشة ، ونحن وقف على خدمة ابنه وكل من يلوذ به ، فهل تقيمون فى شطر الدير الخاص بالراهبات ويبقى خادمكم شاتتيلا فى هذا القسم ، أم تفضلون البقاء معا فى هذه الدار ، ولا يدخل اليها أحد سواكم .. ؟ »

فنهضت فلورندا ، وقد أحست بحمل ثقيــل يزاح عنها .. وشكرت الله لأنه استجاب لصلواتها ، وعلقت آمالها بقرب الفرج فأثنت على الرئيس سرجيوس وقبّلت يده واستشارت خالتها فى الاقامة فقالت : « أرى البقاء هنا بعيــدين عن الناس وشاتتيلا معنا حتى نرى ماذا يكون »

فقال الرئيس : « ذلك لكم ..» ثم خرج وكان الليل قد أسدل نقابه ، وأوقد الرهبان نيرانا فى بعض جوانب تلك الباحة للدفء والانارة . وكان شاتتيلا قد اختلط بالرهبان وهم يسألونه عن أحواله ولا يسمعون منه جوابا مفيدا . فلما خرج الرئيس من دار الضيافة سكنت الغوغاء وتشاغل الرهبان باعداد الطعــام ،

وبعث الرئيس الى قيّم الدير وأمره بأن يعد للضيوف مايحتاجون اليه من الطعام وسائر لوازم الراحة

صعد الرئيس الى غرفته وهو يشعر بالضيق مما سمع عن أوباس لأنه كان يحترمه ويحبه ويغار عليه ، شأن كل من يعرف أوباس لما فيه من تعقل ورزانة واباء .. فأخذ يفكر فى سبيل الى انقاذه . ثم تذكر انه ليس على يقين من حقيقة حاله ، فعوّل على أن يتولى البحث عن ذلك بنفسه . وكان سرجيوس بعيدا عن هذه الأحداث لأنه لم يذهب منذ زمن الى طليطلة ، ولا فى عيد الميلاد لحضور القداس الأعظم وتهنئة الملك لشواغل خاصة اقتضت تخلفه ، ولعله لم يكن يتخلف لو لم يكن هو ميالا الى الابتعاد عن الملك وحاشيته لما فى نفسه من النقمة لغيطشة ، فقد كان حاضرا فى المجمع الذى دبر استبدال رودريك به ، ولم يكن هذا الاستبدال من رأيه ، ولكنهم غلبوه على أمره بالأكثرية ، ثم أصبح يخشى التظاهر بما يعتقده لئلا يناله غضب الملك ، ولم يكن يحتمل مشاهدة مايغاير اعتقاده ، فجعل سفره الى طليطلة نادرا.. فلما أقبل عيد الميلاد الأخير تعلل بما يمنعه عن الذهاب فلم ير شيئا مما حدث لأوباس ، ولو كان هناك لشهد محاكمته وسمع حجته.. وان كان حضوره لا ينفع أوباس شيئا لأنه لا يستطيع التغلب على حزب الملك وهم الأغلبية

فخطر لسرجيوس أن يذهب الى طليطلة بنفسه فيعتذر للملك عن تخلفه فى العيد ، ولكنه خشى أن يتهمه أو يشك فى سبب

مجيئه ، وأول من يثير شكوكه هو الأب مرتين ، لأنه لا يغفل عن مثل ذلك . فرأى تأجيل الزيارة الى يوم رأس السـنة فيذهب لتهنئة الملك بالعيدين ، ولا يكون ثمة ما يدعو الملك الى الشك فى سبب مجيئه .. ولكنه لم يكن ليصبر عن استطلاع حال أوباس طول هذه المدة ، فعول على ارسال راهب يستطلع ذلك من حاشية الملك من غير أن يشاهد أوباس أو يسمع كلامه .. قضى سرجيوس معظم الليل يضطرب فى مثل هذه الهواجس

— ٦٤ —

غرفة الرئيس

فلما أصبح بعث الى فلورندا ، وكانت قد باتت تلك الليلة فى راحة على أثر ما قاسته من تعب فى البـدن واضطراب فى العواطف ، وبخاصة بعد ما آنست من الرئيس سرجيوس ما آنسته من مشـاركة لشعورها وعزم على مسـاعدتها .. وأفاقت فى الصـباح على صوت الناقوس ، فنهضت وأخذت تهتم بالذهاب الى الكنيسة.. وبينما هى فى ذلك سمعت وقع أقدام بجانب غرفتها تخالف ما تعلمه من وقع خطوات شانتيلا . ثم سمعت قرعا على الباب ، فنهضت خالتها وفتحته ، فرأت راهبا لم تعرفه فسألته عن غرضه فقال : « ان حضرة الرئيس يدعوكما اليه .. »

فمضتا والراهب يسير أمامهما وفلورندا تقول فى نفسها : « لم

تنقض أيام شقائى بعد .. يبدو أن الرئيس قد غيَّر عزمه على مساعدنى » ..

وتقدمهما الراهب فى تلك الباحة حتى دار من وراء الكنيسة الى درجات سلم صعدوا عليها الى حجرة طرق الراهب بابها ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول ، ثم عاد ودعا فلورندا وخالتها فدخلتا ، فاذا هما فى غرفة بسيطة الأثاث حسنة الترتيب .. على جدرانها أنواع من صور القديسين مختلفة الأشكال والأحجام ، وفيها صور كبيرة الحجم من صنع مصورى رومية تمثل أهم حوادث الانجيل ، مثل ولادة المسيح فى بيت لحم ، وعماده فى النهر ، وصلبه وصعوده الى السماء . فلما أجالت فلورندا بصرها فى الغرفة انشرح صدرها لتلك المناظر ، وتأثرت لها تأثرا عظيما لما فطرت عليه من التقوى ، وقد زادتها المصائب تمسكا بحبل الدين فتخشعت عند دخولها تلك الغرفة مثل تخشعها عند دخول الكنيسة ، فخف الرئيس لاستقبالها ودعاها للجلوس ، فلم تنس قبل الجلوس أن تقبّل أيقونة للمسيح المصلوب كانت قريبة منها ، ثم جلست فابتدرها الرئيس قائلا : « لم يبق بيننا حجاب وقد اطلّع كل منا على أسرار الآخر فلنبسط الكلام صريحا . وعدتك يا فلورندا أن أستطلع حال أوباس ، وكنت على عزم أن أتولى ذلك بنفسى ، ثم خطر لى أن ذهابى الى طليطلة اليوم بعد أن تخلّفت عن حفلة العيد يدعو الى الشك ، وربما أدى الى عرقلة مساعينا ، فرأيت أن أؤجل ذهابى الى رأس السنة وهو

قريب ، فما قولك ؟.. »

فخفق قلب فلورندا ، وعدَّت ذلك التأجيل فاتحة للعراقيل ، وبدا أثر ذلك فى وجهها .. ولم يخفَ اضطرابها على الرئيس ، فاستأنف الكلام قائلا : « ولكننى سأرسل أحد الرهبان اليوم ليتفقد الحالة من حاشية رودريك ، فاذا اطلعنا عليها ساعدنا ذلك على تدبير الوسائل قبل ذهابى الى طليطلة .. »

فاطمأن بال فلورندا واكتفت بانتداب الراهب وأرادت أن تبين له ما تود الاطلاع عليه من أمر ألفونس فضلا عن أوباس ، ثم هى تريد أن تعرف رأى رودريك فى فرارها ، وهل يتفانى فى البحث عنها ، ولكن الحياء منعها من الكلام فى هذا الشأن صراحة فقالت : « اذا كان الراهب الذى ستنتدبه ذكيا وجاءنا بالخبر اليقين كان ذلك خيرا من ذهاب حضرتك قبل الاطلاع على شىء »

فقال الرئيس : « فلنبحث فيما يطلب الاطلاع عليه .. »

فقالت العجوز : « لا أخفى عن مولاى ـ الرئيس المحترم ـ ان أهم النقط التى يتطلب البحث عنها انما هى أوباس وحاله ، ثم يهمنا الاطلاع على رأى رودريك فى فرارنا لأننا هربنا من قصره رغم أنفه .. ثم نحب الاطلاع على المكان الذى بعث اليه الأمير الفونس »

قال : « فهمت المطلوب وسأوصى الرسول به ونظنه يعود الينا بالخبر اليقين .. »

فنهضت فلورندا وقبَّلت يد الرئيس وكذلك فعلت العجوز ،

واستأذنتا فى الذهاب ، رغبة فى تفرغ سرجيوس لقضـاء تلك المهمة .. فأذن لهما فانصرفتا ..

أما هو فانه صفق فجاءه الراهب الذى يتولى خدمته فأمره ان يستدعى راهبا سماه ، فجاءه ذلك الراهب ، وكان له به ثقة كبرى . وكثيرا ما كان يكاشفه برأيه فى رودريك ، فأوصاه بما يطلب الاطلاع عليه ، واستحثه على ان يسرع فى العودة

— ٦٥ —

حقيقة الحال

سافر الراهب على دابة من دواب الدير وعليها الخرج ، كأنه منصرف الى المدينة على نية شراء ما يحتاج اليه أهل الدير من الأدوات والأمتعة . وكانت عادة ذلك الدير أن يرسل رسولا لمثل هذا الشأن مرتين أو ثلاث مرات كل سنة ، والغالب ان يكون ذلك فى الصيف لأنهم يفضلون عدم الخروج فى الشتاء كما يفعل سائر أهل الجبال ... على ان ذلك لم يكن ليمنع سفرهم الى المدن فى هذا الفصل فى بعض الأحايين

قضى رسول الدير فى مهمته خمسة أيام عاد بعدها ، وكانت فلورندا قد ملت الانتظار وحسبت تلك الأيام أجيالا . وكانت فى أثناء الانتظار تصعد مع خالتها وشانتيلا الى سـطح الدير تشرف منه على الأودية والتلال لعلها تجد الرسـول عائدا .

واتفق ان كان الجو صحوا صافيا كل تلك المدة ، فكانوا اذا جلسوا على السطح أطلوا على جبال أكثرها عار من النبات الأخضر وبعض رءوسها وكهوفها مكسوة بالثلج ، وكانوا يشاهدون الضباب فى كل صباح يغشى الأودية ، يحسبه الناظر بحرا تتلاطم أمواجه ويحسب ما يبرز فى وسطه من قمم الجبال جزرا يفصل الماء بينها . فاذا ارتفعت درجة حرارة الجو قبل الظهر عاد الضباب بخارا وعادت تلك الجزر جبالا . فكانت فلورندا تعلل نفسها فى اثناء انتشار الضباب ان يكون الرسول على مقربة والضباب يحجبه عن بصرها

وكانت تستأنس بذلك الشيخ الهرم بواب الدير لأن غرفته أو برجه يؤدى الى السطح ، فيخرج فى بعض الأحيان فيجالسها ويقص عليها ما مرّ به من الغرائب فى اثناء عمره الطويل ، وهى ترتاح الى سماع حديثه لأنه على شيخوخته لم يكن يكثر من الكلام الذى لا يلذ للسامعين ولو كانوا شبابا

ففى أصيل اليوم الخامس رأت وهى على السطح راكبا أطل من بين أكمتين ، وحدقت فى القادم فاذا هو الراهب ، فخفق قلبها ونادت خالتها قائلة : « هاهو قد أتى.. فلنمض الى الرئيس لنسمع حديثه » ..

قالت : « هلم بنا اليه » وتحولتا نحو غرفة الرئيس ، وكان جالسا ببابها يطالع فى درج باللغة اللاتينية . فلما رأى فلورندا والعجوز قادمتين نهض لهما ورحب بهما ، فقرأ على محيا فلورندا

امارات الدهشة والقلق فأدرك انها تكتم شيئا فقال لها : « خيرا يا بنية .. ما الذى حدث ؟ »

قالت : « أرى رسولك قد قدم فاستدعه لنسمع حديثه .. »

قال : « وهل أتى ..؟ انى أشـد قلقا منك فى انتظاره ولا أقلب هذه الكتب الا تعللا وتشاغلا » ونهض لساعته وأوصى خادمه بأن يسرع فى استقدام الرسول . فهرول الرجل وعاد بعد قليل والرسول فى اثره وهو لايزال بملابس السفر .. فلما وصل سلم وبارك وجلس ، فقال له الرئيس : « قص علينا ما رأيتـه على عجل ، وابدأ بأوباس .. »

قال الراهب : « أما حضرة الميتروبوليت فانه مسجون فى حجرة على حدة .. »

قال : « وما سبب سجنه ؟ »

قال الراهب : « اتهموه بالتآمر على خلع الملك وحاكموه فى مجمع الأساقفة »

فقطع الرئيس كلامه قائلا : « وكيف ذلك ولم نسمع باجتماع ذلك المجمع ؟ .. »

قال : « فعلوا ذلك فى عجلة ، فألف الملك مجمعا من الأساقفة الذين كانوا فى طليطلة يوم العيد .. »

قال الرئيس : « وماذا كانت نتيجة المحاكمة ؟ .. »

قال : « لا أدرى ، ولكننى سمعت ان المتروبوليت ابدى من البسالة والحمية فى أثناء المحاكمة ما أفحم به خصومه .. »

وكانت فلورندا ترهف السمع لقول الراهب ، وتود ان تصل الى خبر الفونس

فقال الرئيس : « وهل تظن ان تلك التهمة صحيحة ؟ »

قال الرسول : « هل اقول كل ما سمعته .. ؟ »

فقال الرئيس : « نعم قل .. »

قال الرسول : « بلغنى من أهل القصر الملكى ان لمحاكمة الميتروبوليت اوباس سببا سريا ، لم يطلع عليه الا قليلون .. »

فقال الرئيس : « وما ذلك .. ؟ »

فقال الرسول : « بلغنى ان الأمير الفونس كان خاطبا فتاة من أهل القصرالملكى، وان رودريك زاحمه عليها وأرادها لنفسه فوبخه اوباس على ذلك ، فغضب عليه وأراد الانتقام منه .. »

فقال الرئيس : « وماذا تم بألفونس وخطيبته ؟ »

قال : « اما الفونس فقد أرسله الملك فى مهمة حربية الى بلد بعيد ليخلو له الجو بعده ، فكان ذلك سببا لتدخل اوباس . أما الخطيبة فقـد بلغنى انها فرت من طليطلة والنـاس يستغربون فرارها من القصر الذى كانت فيه والحراس من حوله .. وأما الملك فقد اشتد غضبه على تلك الفتاة وعول على الانتقام منها حين يظفر بها »

فقالت العجوز : « وكيف يظفر بها ، وأين هى .. ؟ »

ولا نظن ان الراهب لم يلحظ من قرائن الأحـوال ان تلك الفتاة هى الخطيبة التى فرت ، ولكنه تجاهل الأمر مجاراة لمـا

آراده الرئيس فقال : « أكد لى بعض العارفين ان الملك سد عليها الطرق وأقام الأرصاد وبث العيون فى كل أنحاء المملكة ، ولا يكاد يمر يوم من غير أن يحملوا الى قصره فتاة أو فتيات ممن يعثرون عليهن فى اثناء التفتيش ، فاذا وقع بصره عليهن اطلق سراحهن لأنهن غير تلك الفتاة » ..

فلما سمعت فلورندا ذلك اضطرب قلبها لأول وهلة ، ثم شكرت الله لدخولها هذا الدير فى كنف ذلك الرئيس المحب ، وعولت على البقاء هناك حتى يعود اجيلا من عند والدها . ولكنها أحبت السؤال عن مقر الفونس فأومأت الى خالتها ان تسأل عنه فقالت : « وهل عرفت المكان الذى ذهب اليه الأمير الفونس ؟ .. »

قال : « لم أستطع الوقوف عليه صريحا ، ولكننى سمعت ان الملك انفذه مع فرقة من الجند الى استجة . ولم أتحقق تماما لأنى لم أدقق فى البحث عنه .. »

فأومأ الرئيس الى فلورندا ان تكتفى بما تقدم ريثما يتاح له الذهاب الى طليطلة والبحث عن كل ذلك . فسكتت ثم وقف الرئيس وصلى صلاة وجيزة ، فلما فرغ انصرفت فلورندا وهى غارقة فى لجج التأمل لما سمعته عن اوباس وسجنه وعن اندفاع رودريك فى البحث عنها ، فلم تر لها مندوحة عن البقاء مستترة فى ذلك الدير لترى ما يأتى به القدر ، على انها عللت نفسها بالاطلاع على تفاصيل أخرى بعد رجوع الرئيس من طليطلة ..

ولكن الطبيعة أبت الا معاكستها فتغير الطقس وتوالت الأمطار وتكاثرت الثلوج حتى سدت طرق الجبال وانقطعت السابلة فمنعت الرئيس من السفر أياما عديدة ، وهو على مثل الجمر ، فكيف بفلورندا والجمر يتقد فى قلبها وفى رأسها .. وخصوصا بعد أن مضى شهر وبعض الشهر ولم يرجع اجيلا من مهمته الى والدها فزاد اضطرابها وتضاعف قلقها ، وانقبضت نفسها حتى تصورت ان الدنيا قد سدت فى وجهها ... فقد فقدت خطيبها وابتعدت عن والدها ، وسجن نصيرها وأصبحت طريدة شريدة ثم سيقت الى ذلك الدير ، فأقامت فيه قيام المجرمين فى السجون . وما كادت تفرح بعطف ذلك الرئيس حتى حالت الطبيعة دون خروجه ، واقامت بينه وبين طليطلة سدودا من الثلج . ولكنها كانت اذا تراكمت عليها الهموم وغشت بصيرتها السويداء لجأت الى الصلاة ، فاذا صلت انفرجت كربتها وعادت اليها آمالها . فاذا فرغت من الصلاة وكان الطقس صحوا ، صعدت الى السطح مع خالتها تتطلع الى الطرق البعيدة لعلها ترى شبحا قادما تتوسم فى مقدمه فرجا . ولكنها لم تكن ترى سوى جبال من الثلج تنتهى لدى باب الدير ، ولولا انشغال الرهبان بجرفه فى كل صباح لغاب كله فيه

وكان الرئيس يتردد اليها فيطمئنها ويعدها خيرا ويريها ابواب الفرج ، ومرجع كلامه الى ثقته الكبرى بتعقل اوباس وحسن درايته وعظم سطوته على العقول والقلوب . ولم تكن هى اقل

منه اعجابا به لأنها شبت وهى لا تسمع حديثا عن اوباس الا مشفوعا بعبارات الاطراء والتبجيل حتى خيل لها انه قادر على كل شيء .. ولم تصدّق ان أحدا يستطيع أن يصيبه بأذى أو أن يتغلب على رأيه . وكان سرجيوس يفكر فى طريقة لاخراج اوباس من السجن ، فاذا خرج جاء به الى الدير ليقيم بسلام وسكينة . ولكنه لم يهتد الى سبيل امين بعد ان بلغه من تشديد الملك فى الاحتفاظ به والسهر على حراسته

- ٦٦ -

الثلوج والرسول

وأفاقت فلورندا فى صباح يوم من أواخر فبراير على هبوب العواصف وهطول المطر وأكثره من الثلج أو البرد .. واشتدت الأنواء والرعود والبروق نحو ساعتين .. ثم انقطع المطر ، وسكنت الرياح بغتة ـ وذلك ما يحدث فى هذا الشهر فى البلاد المعتدلة ، فان الجو يتقلّب فى اليوم الواحد من أيامه تقلبات شتى بين صحو ومطر ونوء وصفاء ـ فلما توقفت الأمطار وأطلت فلورندا من باب الغرفة ، فاذا بفناء الدير قد غمرته الثلوج حتى باب غرفتها ، ومع ذلك فالشمس قد أشرقت على ذلك الثلج ، فتكسرت أشعتها عليه وانحل النور فى بعض الأخاديد ، فبدا الطيف الشمسى بألوان قوس قزح . فوقفت فلورندا وهى تتأمل

ذلك المنظر الجميل ، ثم ما لبثت ان رأت الرهبان يتقاطرون من كل جانب وفى أيديهم المجارف والمعاول ، واخذوا فى جرف الثلج وحمله الى الخارج ، فأعجب فلورندا ذلك المنظر واحست بانبساط نفس لم تشعر بمثله منذ أشهر — والانسان اذا امطرت السماء ثم صحت وصفا جوها يشعر بانبساط وخاصة اذا سبق المطر ضباب متكاثف أو غيوم متلبدة . ولكن البرد يشتد فى ساعة الصفاء عما كان عليه فى ساعة الكدر — ولذلك فان فلورندا لم تطل الوقوف لدى ذلك الباب ، فدخلت والتفت بقبائها المبطن بالفرو وأحكمت الالتفاف به وعادت واذا بالراهب الشيخ ، حارس الباب ، مقبل وقد استبدل العكاز بجرفة يجرف بها الثلج بنشاط الشباب ، وكان الى ذلك لايزال عارى الساقين والزندين ، واكتفى من وسائل الدفء بلف كوفية من الصوف حول صدغيه وأذنيه

فلما رأته فلورندا على تلك الحال ، اعجبت بتأثير العادة على الانسان ، ولبثت واقفة تنظر الى شيخنا الراهب وغيره من الرهبان وهم يشتغلون وشانتيلا يشتغل معهم . فلم تمض برهة حتى نظفت الباحة ، وكان بعضهم يجرف الثلج عن السطح أيضا . فلما فرغ الرهبان من العمل خرجت فلورندا وبربارة ، وقد أعجبها صفاء الجو واشراق الشمس ، وصعدتا الى السطح واطلتا على الجبال على سبيل الفرجة . ولم تقفا على السطح برهة حتى أثر الزمهرير فى فلورندا ولم يغن القباء ولا الكساء شيئا .. ثم تغير وجه السماء بغتة وتكاثفت الغيوم وأوشكت السماء ان تمطر ،

فهمت فلورندا بالرجوع فرأت الشيخ الراهب لدى باب حجرته على السطح وهو يشير اليها أن تأتى اليه ، فتحولت وتبعتها خالتها حتى أقبلتا على الغرفة ، فاذا هناك نار موقدة فى اناء يشبه الموقد، فلما دخلت أحست بالدفء وشعرت بلذة غريبة .. فقال لها الراهب : « اجلسى يا بنية الى جانب المدفأة فان البرد شديد جدا اليوم » فجلست وخالتها الى جانبها ، وكان جلوسهما الى جانب النافذة ، وجلس الراهب أمام النار وأخذ يقص على ضيفتيه احاديث شبابه وكهولته على سبيل التسلية ، والخالة العجوز تشاركه فى تحقيق بعض النقط وان كانت هى أصغر منه سنا

وكانت فلورندا فى اثناء ذلك تنظر من تلك النافذة الى ضواحى الدير ولا يقع بصرها على غير الثلوج الا قليلا ، والراهب والخالة مشغولان فى الاحاديث ، وهما يحسبان ان فلورندا مصغية لما يقولان ، ثم وجهت الخالة الكلام الى فلورندا وتوقعت الجواب ، فرأت فلورندا فى شغل عنها لأنها تتفرس فى شىء وراء النافذة وقد ظهر الاهتمام على وجهها . فالتفتت الخالة فاذا هناك دابة تمشى صاعدة نحو الدير وعليها راكب ، فأمعنت النظر فيه كأنها تعرفه ، فسمعت فلورندا تقول : « اجيلا ، اجيلا .. » فلما سمع الراهب قولها نظر الى القادم ، ولم يكن يعرفه فقال : « ومن هذا يابنية ؟ »

قالت : « هو رسول ارسلناه فى مهمة وقد عاد الينا ، فهل تسرع فى فتح الباب له حتى لا يضر به البرد ؟ »

فقال : « سمعا وطاعة » وتناول عكازه ونزل ، وظلت فلورندا وخالتها مطلتين من النافذة لتتحققا من الأمر ، فاذا هو اجيلا بعينه على جواد .. ولما دنا من الدير وقف الجواد واجيلا ينظر الى الدير ويضحك ضحكا شديدا . فلما رأته فلورندا يضحك استبشرت وانبسطت نفسها ، ثم نادته قائلة : « اجيلا ... » فلم تسمع جوابا وكأنها لا تخاطب احدا ، فظنت ان هبوب الريح قد اضاع صوتها قبل وصوله اليه ، ثم رأت الراهب الشيخ قد خرج من الدير حتى اذا أقبل عليه شهر عكازه واخذ يضربه ضربا عنيفا واجيلا لا يتحرك ، والراهب يزداد عنفا فى الضرب ويصيح ويستغيث بالرهبان الآخرين ، فخرج اثنان منهم وفى يد كل منهما عصا غليظة ، فأمسك احدهما بزمام الفرس وعمل الآخر على ضرب الراكب حيثما اتفق وهو ساكت ، فاستغربت فلورندا ذلك وتولتها الدهشة لما رأته من خشونة ذلك الضرب لغير سبب يدعو اليه ، فجعلت تصيح بالرهبان تستمهلهم وتستفهم عن سبب تعديهم وهم لايبالون بكلامها ، فغضبت وتحولت من تلك الغرفة تريد غرفة الرئيس لتشكو اليه قسوة رهبانه ، وسارت الخالة فى اثرها حتى اذا نزلتا الى باحة الدير قالت فلورندا لخالتها : « اذهبى أنت الى الرئيس وأنا أخرج لمخاطبة أولئك الرهبان ..» ثم نادت شانتيلا فلم تسمع جوابا ، فأسرعت الى باب الدير حتى خرجت منه ، فرأت شانتيلا مع الرهبان يضرب أخاه أيضا ، وقد أنزلوه عن الفرس وأمسك أحدهم برجليه ، والآخر بيديه ،

وأخـذ الاثنان الآخران يضربان على القدمين والكتفين ضربا موجعا ، فازدادت دهشة واستغرابا وصاحت : « شانتيلا .. ما هذا العمل ؟ » وهو لايرد عليها ولا يبالى بقولها . وبعد هنيهة رأتهم قد هموا بأجيلا فحملوه وأسرعوا به الى الدير . فوقفت فلورندا على حافة الطريق فاذا هو بين أيديهم لايبـدى حراكا فظنته قد مات من شدة الضرب فكادت تبكى لغيظها وأسفها ، ولكن الاستغراب ظل غالبا عليها ، فلما دخلوا به سارت هى فى اثرهم فصعدوا الى غرفة حارس الباب ، فتعقبتهم وهى لا تجسر على الكلام لئلا يصيبها حظ من ذلك الضرب ، ولكنها كانت تتلفت يمينا وشمالا لعلهـا تجد الرئيس قادما لتستنجد به أو تستفهم منه ، فاذا به قد أقبل مسرعا على السطح من جهة اخرى والعجوز فى اثره وهى تشير الى فلورندا ان تطمئن

فأسرعت فلورندا الى الرئيس وسألته عن سبب ذلك فقال : « لا تجزعى فانهم انما يفعلون ذلك لحفظ حياته »

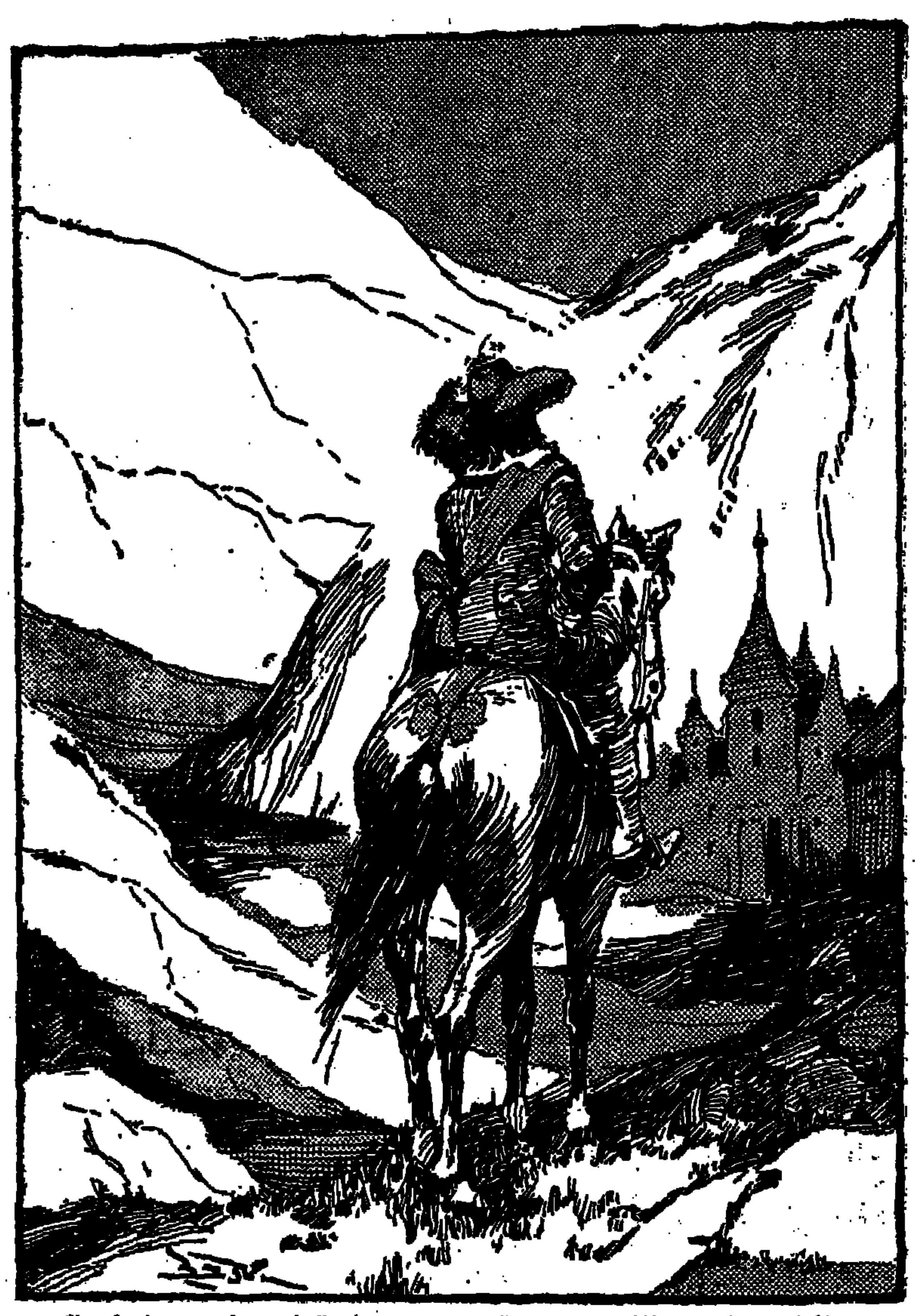
قالت : « وكيف يحفظون حياته وقد أماتوه من الضرب ؟ »

فضحك الرئيس وقال : « يظهر انك لم تسمعى (بالدنق) »

قالت : « وما الدنق ، يامولاى ؟ »

قال : « هو الموت من البرد الشديد .. فالظاهر ان رسولك هذا أوشك ان يدنق من البرد ، فعمدوا الى ضربه ليتحرك دمه وتعود اليه الحرارة فلا يموت ... »

قالت : «لم يكن يشكو بردا مطلقا بل رأيته يضحك سرورا»



« والتفتت الخالة فاذا هناك دابة تمشي صاعدة نحو الدير وعليها راكب ، فأمعنت النظر فيه كأنها تعرفه . فسمعت فلورندا تقول : أجيلا .. أجيلا »

فضحك الرئيس حتى قهقه وقال : « والضحك فى البرد من علامات الدنق » قال ذلك ودخل الحجرة وهو يقول : « اسقوه قليلا من الخمر وأدنوه من النار » ...

فأسرع الراهب حارس البـاب الى ابريق فى أحـد أركان الحجرة ، صب منه فى كأس ودنا من الرجل ، وتقدمت فلورندا نحوه أيضا وتفرست فى وجهه فرأته قد فتح عينيه ، ولكنه لايزال منحل القوى ، فتحققت مما قاله الرئيس وشكرت الله على اسعافه بالوسائل الفعالة ..

— ٦٧ —

الخبر اليقين

قضوا سـاعة فى علاج اجيلا بالدفء وشرب المنبهات حتى ضحا وعاد الى رشده ، فاستأذنت فلورندا فى نقله معها الى دار الضيافة فأذن لها .. فنزلت به ومعهما شانتيلا والخالة . فلمـا استقروا فى الغرفة سألته عن سبب غيابه ، فأخبرها انه قاسى فى اثناء عودته عذابا أليما من مقاومة الطبيعة وعيون رودريك .. حتى اضطر أن ينام فى النهار ويسافر فى الليل خوفا من ان يقع كتاب يوليان فى أيديهم ، وهذا هو السبب فى وصوله على هذه الحالة من البرد الشديد حتى كاد يموت

ثم سألته عن والدها فأخذ يقص عليها ما كان من وصوله اليه ،

وما اصابه من الغيظ واليأس حينما قرأ كتابها ، الى ان قال :
« وقد صمم على الانتقام من رودريك انتقاما لم يسبق له مثيل فى تاريخ الأسبان »

فأبرقت أسرة فلورندا اعتزازا بوالدها ، وأحست ببرء قلبها بعد ان تصورت انها مهملة لا يسأل عنها احد ، لكنها احبت الاطلاع على طريقة ذلك الانتقام ، فقالت : « وكيف ذلك ؟ »

قال : « لقد عول على اخراج هذه المملكة من يد رودريك ..»

قالت : « ياحبذا السبيل الى ذلك ، ولكن ... »

قال : « وهل تحسبين سيدى الكونت يوليان يقدم على هذا الأمر الا وهو واثق من نفسه ؟ » . ثم اخبرها عن اتفاقه مع جند العرب على المسير معهم الى اسبانيا ليكون عونا لهم على فتحها كلها ..

فلما سمعت فلورندا قوله اكبرته ، وظنت اجيلا يقول ذلك ليطمئنها فقالت : « وهل تقول الصدق ؟ »

فمد يده الى جيبه وأخرج أنبوبا مختوما سلمه اليها ، ففضته فرأت فيه لفافة من القباطى (نسيج مصرى قديم) ففتحتها فاذا هى كتاب من والدها اليهـا ، رأت فيه خط يده فخفق قلبهـا وتذكرت حنانه فدمعت عيناها ، ولم تستطع قراءة ذلك الكتاب الا بعد ان سكن جأشها ومسحت دموعها ، ثم تناولت الكتاب وقرأته فاذا فيه :

« من الكونت يوليان الى ابنته الحبيبة فلورندا

« قرأت كتابك أيتها العزيزة فانهمرت الدموع من عينى ، لما هاجه فى نفسى من المصائب الكامنة ، وقد ساءنى ما اقترفه ذلك الوحش الكاسر من الاساءة الى الدين والى الفضيلة والى يوليان . أما الأولان فالله كفيل بالقصاص عنهما . واما ما اراده من مس عرضى فأنا أتولى الانتقام له بنفسى . وابشرى .. اننى سأنقض عليه وعلى بلاده بجند من العرب ، لاشك ان الله ناصرهم على ذلك الخائن لما نعلمه من غضب الاسبان والقوط عليه . وان العمل الذى أشرت اليه فى كتابك يكفى وحده لغضب السموات والأرض على ذلك الدخيل فى القوطية . ولا اطيل الشرح لأن ناقل هذا الكتاب سيوضح ما يشكل عليك ، وانما كتبت هذه الأسطر تثبيتا لأقواله ولكى أبشرك بالفرج القريب . وسوف ترين رودريك الخائن قتيلا أو أسيرا مكبلا.. فامكثى حيث تأمنين حتى آتى اليك واذا احتجت أن تتصلى بى ، فأنا مع كبير جند العرب حيثما يكون .. والسلام » (كتب فى سبتة)

فلما فرغت من قراءة الرسالة ، نهضت تريد الرئيس .. وكان قد ذهب الى غرفته ، فسارت وحدها وهى لا تفقه شيئا مما يمر بها لفرط تأثرها من ذلك الخبر الفجائى ، وقلبها يرقص طربا لما حواه ذلك الكتاب من بشائر الانتقام ... والانتقام من اقوى ملذات الانسان ..

فلما أقبلت على الرئيس أنكر ما يبدو على محياها من آثار

البغتـــة مع شيء من الخفة فوقف لها فدخلت فحيته ، وقالت : « جئتك بأمر ذى بال وفيه القضاء المبرم على رودريك »

فانذهل لتلك المباغتة وقال : « وما ذلك ؟ »

قالت : « ان الشاب الذى وصل فى هذا الصباح وكاد يموت من البرد انما هو رسول كنت قد بعثت به الى والدى فى سبتة ، وبعثت معه كتابا مختصرا شكوت فيه ما أصابنى من رودريك ، فعاد الرسول اليوم بهذا الكتاب » ومدت يدها وقدمت الكتاب الى الرئيس ..

فتناوله سرجيوس وقرأه وهو لا يصدق انه فى يقظة ، وأعاد قراءته ثانية وثالثة وفلورندا صامتة تتوق لمعرفة ما يبدو منه . فلما انتهى من تلاوته رفع بصره اليها وقال : « ان والدك سيعمل عملا يغير به وجه هذه الجزيرة ، سيعمل عملا يقضى به على هذه الدولة . وسيعلم رودريك عاقبة ما كان من خرقه حرمة الدين .. نعوذ بالله من غضب الله » وصمت برهة ثم قال : « وهل نقل الرسول اليك شيئا من التفاصيل ؟ »

قالت : « اخبرنى بعض الشيء ولم أستطع صـــبرا على نقل هذا الخبر اليك ، فاذا أذنت بعثنا الى اجيـــلا ليقص علينا ما شاهده بعينيه ... »

قال : « أحب سماع ذلك » ثم صـــفق فجاء خادمه فقال : « الىّ بالرجل الذى جاءنا فى هذا الصباح وهو فى دارالضيافة »

فمضى الرجل وعاد بأجيلا .. فانحنى اجيـــلا أمام الرئيس

وقبّل يده ، ثم جلس متأدبا فجعل الرئيس يسأله عما شاهده بعينيه .. فقصّ عليه ماشاهده من شجاعة العرب واتحادكلمتهم ، وصبرهم فى الحرب ، ومواظبتهم على الصلاة ، وطاعتهم لرؤسائهم ، الى ان قال : « وزد على ذلك ان مولاى الكونت يوليان عون لهم فى ارشادهم الى المسالك ، فضلا عما سيلقونه من مساعدة اليهود المتسترين فى اثواب النصرانية ، وهؤلاء لا يدخرون وسعا فى نصرة أى داخل كان لأنهم يكرهون هذا الملك ويكرهون حكومته ، لما يقاسونه فيها من الاحتقار والذل..» (١)

فلما سمع الرئيس ذلك هز رأسه ، وقال فى نفسه : « قد انقضت دولة هذا الباغى وربما انقضت بانقضائها دولة القوط كلها » . ثم التفت الى فلورندا وقال : « اذن لو ذهبت الآن الى اوباس اخبرته بهذا الخبر الجديد وأطلعته على هذا الكتاب ولا اظن أهل البلاط قد علموا به بعد . ثم نحتال فى اخراجه من ذلك السجن ونأتى به الى هذا الدير يقيم فيه معنا ، وطالما كان أبوك مع العرب فنحن فى مأمن منهم اذا هم غلبوا . واذا غُلبوا فلا يكون علينا بأس من رودريك لأننا لم نتعرض لحربه .. »

فتضاعف سرور فلورندا لما سمعت عزم الرئيس على استقدام اوباس اليه .. وبعد بضعة أيام ذابت الثلوج وانكشفت الطرق فركب سرجيوس بغلته ومشى خادمه فى ركابه الى طليطلة

---

(١) دوزى ــ الجزء الاول

- ٦٨ -

القائد كوميس

أما رودريك فقد جاءه كتـاب صاحب بوتيكة ينبئه بنزول العرب بلاده ، فأطلع الأب مرتين عليه قبل عرضـه على رجال دولته ، فأوهمه الأب المذكور أن العرب انما يريدون الغـزو لا الفتح فاذا أصابوا غنيمة عادوا علىأعقابهم.. وانهم لايجسرون على مناوأة ملك القوط ، وفى الحقيقة ان العرب كثيرا ما كانوا يسطون على ما يلى مملكتهم من الثغور فيغزون البلاد ويعودون بما يقع فى أيديهم من ماشية أو نحوها . فارتاح رودريك لذلك الرأى لقربه من المعقول ولم يطلع رجال حكومته على الكتاب . ثم جاء طليطلة بعض الذين شاهدوا العرب بخيلهم وابلهم ، وقد ملكوا الجبل (جبل طارق) ومعهم يوليان صاحب سبتة يدلهم على عورات البلاد ويسهل عليهم الفتح ، وأخبروا قائد الجند العام بذلك ..

وكان قائد جند رودريك رجلا باسلا دموى المزاج حاده ، اسمه الكونت كوميس ، له وجاهة وسطوة عند رودريك . وكان قد لحظ فيه ميلا الى فلورندا ، فنصحه أن يتركها .. فلم يكترث بقوله فتركه وشأنه وفى نفسه شيء عليه ، فلما سمع بفرار الفتاة ومحاكمة أوباس نصح له سرا أن يعدل عن محاكمة هذا الرجل

لئلا يفضحه . وكان من جملة نصائحه له أن لا يصغى الى مرتين وغيره من جماعة الأكليروس . فلما جاءه الخبر بنزول العرب اسبانيا ومعهم يوليان ، اعتز بفوزه فيما أشار به على رودريك من أمر فلورندا فزاده ذلك جرأة عليه واستخفافا به ، واستغرب كتمانه نزول العرب عنه . وكان يستبعد أن لا يكون على علم بنزولهم . فذهب اليه ذات صباح وهو فى مجلس حضره كبار الموظفين وكلهم كونتات . وكان أصحاب مناصب الدولة الكبرى عند القوط لا يزيدون على عشرة منهم : (١) ناظر الأرضين الملكية واسمه كونت الوطن (٢) رئيس الاصطبلات ويسمى كونت الاصطبل (٣) كاتب سر المملكة واسمه كونت السجلات (٤) رئيس القضاة وهو كونت النعم (٥) قائد الجند (٦) صاحب الخزنة (٧) قيّم القصر الملكى (١) . ومن أصحاب رتبة الكونتية عندهم أيضا رئيس السقاة ونحوه ممن يخدمون الملك

كان مجلس الملك حافلا بهؤلاء والأب مرتين بجانبه ، فدخل الكونت كوميس وسلّم كالعادة ، وامارات الغضب بادية على وجهه ، وبعد أن استقر به المجلس سأل الملك اذا كان قد بلغه شىء من أخبار بوتيكة

فقال الملك : « لا أدرى .. هل سمعت شيئا مهما ..؟ »

فقال بصوت خشن : « سألت حضرة الملك هل جاءه خبر مهم من تلك المقاطعة ؟ »

---

(١) رومى — الجزء الثانى

فغضب رودريك لهذه المراجعة بما فيها من الجسارة والقحة فقال : « ما معنى هذه المراجعة .. بعد ما سمعته من جوابى ؟ » واعتدل وتصدر وجعل يداعب شعر رأسه المرسل على كتفيه وقد بدا الغضب فى عينيه ، وأصبح سائر الكونتية ينظرون بعضهم الى بعض والى كوميس ورودريك ، ويتساءلون عن سبب هـذه الجسارة ..

أما كوميس فلما رأى الحضور ينتظرون ما يقوله ، وقد شخصت أبصارهم نحوه بعد ما أبداه رودريك من الجفاء ، عظم الأمر عليه .. وقواد الجند من أعظم الناس انفة وشدة ، اذا حمى غضبهم لايبالون بالتيجان ولا بالصوالجة ولا يعبأون الا بشدة بطشهم ، وخصوصا فى ذلك العصر والكلمة النافذة لصاحب الجند القوى . وكان كوميس فوق كل ذلك قد استصغر شأن الملك مما علمه من تهوره فى مسألة فلورندا وأوباس . فلما سمع كلامه بتلك اللهجة الشديدة قال : « أظن حضرة الملك لا يجهل معنى سؤالى ولو تجاهله . معنى سؤالى أيها الملك أنه حدث فى المملكة ما يدعو الى اطلاعنا عليه وقد كتمته . وهو من الأهمية بحيث يجعل المملكة فى خطر »

فضج الحضور ومالوا الى الاطلاع على جلية الخبر ، فلم يكن من الأب مرتين الا انه وقف بهيئته المعهودة ، وتولى الجواب عن الملك ووجه خطابه الى كوميس قائلا ، وهو يتكلف التأنى ويظهر الاستخفاف : « أظنك تعنى ما جاء من أمر أولئك العرب الذين

نزلوا سواحل بوتيكة ، فهؤلاء انما نزلوا للغزو والنهب ولا يلبثون أن يرجعوا الى بلادهم ، ولو كان هذا الخبر مهما لعرضه جلالته على مجلس الأساقفة أولا .. »

وكان كوميس يحتقر الأب مرتين ولا يعبأ بأقواله ، فوجّه جوابه الى الملك قائلا : « اما الاستخفاف بأولئك العرب فمن الخطأ الفادح ، وخصوصا اذا عرف جلالته انهم قادمون ورائدهم الكونت يوليان صاحب سبتة (قال ذلك بنغمة خاصة) . وأما اطلاع المجمع المقدس علىأمثال هذه الأخبار قبلنا ، فللملك الرأى فيه . ولكننى أظن ان قائد الجند أولى بالاطلاع على ذلك من سواه ، وعليه هو حماية المملكة . وأما السادة الأساقفة فما عليهم الا الصوم والصلاة » . وكان يتكلم والتهكم ظاهر فىكل عبارة ، ولم يشأ أحد من الحضور التدخل فى هذا الحديث لدقته ، وفيهم من أدرك اشارة كومبس الى يوليان صاحب سبتة وما وراء ذلك التعريض والتلميح ، ولكنهم ظلوا صامتين ..

أما الملك فاشتد غضبه وأحس بما رماه به كوميس من السهام الحادة ، وأدرك خطورة مركزه ، كما أدرك انه فى حاجة الى قائد الجند أكثر من حاجته الى سائر رجال الدولة ، ولكن عظم عليه الاغضاء بعد مبادأته بالجفاء ، فقال له : « لم يكن من حقك باحضرة الكونت أن تخاطبنى بمثل هذا الكلام ، بل كان الأجدر بك أن تتفاهم معى بأسلوب آخر »

فقال القائد : « ان الملك لم يترك لنا سبيلا للتفاهم معه ، وقد

جعل هذا القس لسان حاله والمتكلم عنه ، والكل يعلمون ان هذا وأمثاله لايصلحون لغير العبادة ، وقد جعلهم الملك شركاءه فى مهام المملكة . ولو أخلصوا له النصيحة لما بلغت بنا الحال الى هذا الحد .. »

ولا يخفى ان مثل هذا التصريح فى ذلك العصر ، وبخاصة فى طليطلة ، كان يعد ضربا من الكفر لما علمناه من سطوة الاكليروس هناك ، ولولا تغلب الحدة على ذلك القائد ما صرح بما صرح به .. ففتح بهذه الجسارة بابا يؤاخذه منه رودريك ويتغلب عليه بحجته .. فحوّل وجهة الكلام الى الدفاع عن الأساقفة ، وقد أراد بذلك أن يخفى خطأه ، فقال : « ألم تكتف بالجسارة على مقام الملك حتى تجاسرت على مقام الأساقفة ؟ .. ان ذلك خارج عن حدود منصبك »

وكان الأب مرتين يرتعد من شدة الغضب ، فلما رأى الملك لايزال على ثباته ، تدخل وخاطب كوميس قائلا . « ولا أظنك تجهل يا حضرة الكونت أن كلمة من جلالة الملك أو من أحد الأساقفة تكفى لتجريدك من هذا المنصب »

ولم يكن كوميس يتوقع هذا الاستخفاف من الملك نفسه ، فكيف به من ذلك القس ، فوقف ويده على قبضة سيفه وقال : « لقد خسرتم بهذا الكلام سيف كوميس وأنتم فى أشد الحاجة اليه » وخرج وقد أخذ منه الغضب مأخذا عظيما

أما رودريك فقد كان يجادل هذا القائد مدافعة ، ولم يكن

يريد أن يغضبه فى هذا المقام ، ولذلك فان عبارة مرتين ساءت الملك أكثر مما أساءت الى كوميس . ولم يجسر أحد من الحضور على التوسط فى الأمر لئلا يشتد الخصام وقد وقع ماكانوا يخشونه ثم وقف الملك فعلموا انه يريد فض الجلسة فخرجوا الا مرتين . فلما انفردا التفت الملك اليه ، وقال « أهكذا أغضبت قائدنا وصاحب جندنا ونحن فى أشد الحاجة اليه ؟.. »

قال : « أتلومنى أيها الملك لأننى نهرته بعد أن أهانك وأهان السادة الأساقفة جميعا ؟ ان الصبر على ذلك ذل لا يطاق »

فقال الملك : « أنت تعلم أن كوميس أعظم قوادنا ولم نكن فى وقت من الأوقات أشد حاجة اليه مما نحن الآن ، والعدو ببابنا وولاتنا يدلئونه على نواحى الضعف عندنا ، سامحك الله على هذا الخطأ .. ألا يكفى ارتكابنا الخطأ الأول باخفاء تلك الأخبار عنه وعن سائر رجال الدولة حتى نرتكب خطأ آخر شرا منه ؟ »

فاستاء الأب مرتين من هذا التعريض وقال : « كأنك تقول انى أنا سبب ذلك الخطأ ، فاذا كنت قد أشرت عليك بمشورة فاسدة ، فقد كان الأجدر بك أن لا تقبلها » . قال ذلك ومشى فى وسط القاعة ويده اليسرى وراء ظهره ، والأخرى يمسح بها ما تناثر من اللعاب على شفتيه ولحيته

فشق ذلك على الملك وعدها اهانة أخرى وقال : « أتكون مخطئا وتضيع منا أحسن قوادنا ثم تنقم علينا وتستخف بأقوالنا ويكون الذنب مع ذلك ذنبنا ؟ »

فأجابه مرتين وهو يهز رأسه ويمشى دون أن يلتفت اليـه : « صدقت أيها الملك ، ان الذنب ذنبى ، والخطأ كله خطئى ، وكل هذه الشرور من نتائج أعمالى لأنى لو لم أسىء الى بنت صاحب سبتة ما حاول والدها أن يكون عونا للعرب على فتح بلادى» . ثم وقف بغتة وحوّل وجهه اليه ، وقد اشتد غيظه وارتعدت أطرافه وزاد لسانه تلعثما وتمتمة وقال : « أتخطىء يارودريك ثم تلصق الخطأ بشيبتى ، ثم اذا أهين الأساقفة كان الدفاع عنهم لايعنيك وهم الذين ولوك هذا المنصب ونصروك وعضدوك . ألم يكونوا هم الذين دافعوا عنك بالأمس وسـط المجمع واتهموا رجلا بريئا بتهمة لا أساس لها ؟ .. ثم تقول انى كنت سببا فى خسارة ذلك القائد ، وأنت انما خسرته بسوء تدبيرك وانهماكك فيما لا ينفعك . وبسوء تدبيرك أيضا خسرت الأب مرتين الذى لم يكن ينبغى أن تنسى تعبه فى مصلحتك ودفاعه عنك » . قال ذلك والتف بردائه وخرج من القصر

فلما خرج مرتين ظل رودريك وحده وقد خلا بنفسه وتصور عظم الخطر المحدق به ، فجلس على كرسيه وألقى رأسه على كفيه وراجع ما مرّ به من الأحداث فى الأشـهر الأخيرة ، وتذكر فلورندا ووالدها ، فتحقق لديه أن يوليان انما انحاز الى العرب غضبا لها ، فاشتد حنقه وتراكمت عليه الهواجس وعظم عليـه الأمر ، ولا سيما بعد أن فقد قائده وأساء الى قسه فتشاءم من هذين الحادثين ..

- ٦٩ -

سرجيوس وأوباس

واتفق وصول الرئيس سرجيوس ثانى يوم الخصام ، فنزل فى الكنيسة الكبرى على جارى عادة الأساقفة ورؤساء الأديرة اذا جاءوا طليطلة . فلقى هناك الأب مرتين وعهده به فى قصر الملك . فسلما وتخاطبا مليا فى شئون مختلفة ، والرئيس يستطلع ما فى نفس مرتين .. وكان الأب مرتين على كبر سنه حاد المزاج سريع التأثر متسرعا فيما يخطر له كما تبين لك من وصف أخلاقه ، فلم يخفِ عن سرجيوس شيئا مما وقع بالأمس له وللكونت كوميس. وحملته حدة مزاجه وتسرعه على الايقاع برودريك والتنديد بفساد رأيه كأنه من ألد أعدائه ، وهو انقلاب غريب لا يحدث الا عند أصحاب المزاج العصبى أو الدموى الحاد

أما سرجيوس فقد جاء طليطلة وهو لايتوقع سبيلا الى مقابلة اوباس أو انقاذه ، فلما لقى مرتين هان عليه ذلك ، فذكر أوباس بين يديه وزعم انه سمع بسجنه . فلما سمع مرتين اسم اوباس تذكر ما كان من اعتدائهم عليه وانه سجن ظلما أو على الأقل أسيء اليه بتهمة لم تثبت عليه .. ونظرا لغضبه على رودريك رأى فى انتصاره لأوباس ما يشفى بعض غليله انتقاما من ذلك الملك ، فقال لسرجيوس : « ان أخانا اوباس سجن لتهمة اتهمه

بها رودريك ، وقد حوكم فلم تثبت عليه التهمة فأجلت المحاكمة وسجن الى أجل غير مسمى ريثما تعاد محاكمته ، ولكن يظهر أن الملك لن يطلب العود اليها »

فقال سرجيوس : « وهل تظن انه يظفر بالبراءة اذا استأنفوا محاكمته ؟ »

فقال مرتين : « لاريب عندى فى ذلك »

قال : « ولماذا لم يطلب الاستئناف ؟ »

فابتسم مرتين وهز رأسه وهو يقول : « وكيف يطلب ذلك وهو محجور عليه فى غرفة لايرى فيها أحدا ، لأن رودريك منع الناس من الدخول اليه »

فقال سرجيوس : « وهل من سبيل الى رؤيته بغير اذن الملك؟ »

فقال مرتين وهو يبتسم : « ان ذلك هين عليّ . فهل ترى ان تحرض اخانا المذكور على طلب الرجوع الى المحاكمة ؟ » لم يقل ذلك رغبة فى نصرة اوباس ولكنه توهم ان رودريك يضطر لاسترضائه كجارى عادته كلما اغضبه . ولذلك فانه لما خرج من حضرته بالأمس كان يتوقع ان لا تغيب الشمس قبل ان يبعث اليه ليسترضيه ، فلما اصبح الصباح ولم يأته من قبله احد اشتد حنقه ، فلما خاطبه سرجيوس بشأن اوباس اراد ان يستنهضه لاستئناف المحاكمة ، لاعتقاده ان رودريك يخاف ذلك الطلب ولا سيما بعد ما ظهر من غضب يوليان وكوميس ، وعندئذ لايرى له مندوحة عن استرضاء مرتين لتدارك الأمر.. وليس فى

ذلك من مصلحة لأوباس لأنهم لو رضوا باعادة المحاكمة لاقتضى ان يجمعوا الأساقفة من أقطار المملكة كلها ، ولا يتأتى اجتماعهم الا بعد أسابيع ..

أما سرجيوس فاستبشر بما سمعه وقال : « اذا ادخلتنى اليه نبهت ذهنه الى ذلك »

فنهض مرتين للحال وأتى بدواة وقلم وكتب رقعة إلى الضابط الموكل بحراسة اوباس أن يأذن للرئيس سرجيوس بمقابلته . فأخذ سرجيوس الرقعة وهو لا يصدق انه فاز بها وسار مسرعا الى أوباس ..

أما اوباس فكان لايزال فى سجنه وقد قطعوا كل علاقة بينه وبين سائر العالم ، وقد تلقى ذلك بصدر رحب ، فهو يغالب المصائب بالصبر ، ولم يكن يشعر بوحشة الانفراد لما فى ذهنه من المسائل التى لايستطاع التأمل فيها الا بالاعتزال عن الناس . ولم يكن يعد نفسه مسجونا لاعتقاده ببراءة ساحته ، ولكنه كان يأسف لضعف الطبيعة البشرية ، لأنها علة متاعب بنى الانسان وبخاصة اذا كانت فى الرؤساء وأولى الأمر لأن غلطة أحدهم تجر الويل الى المئات والألوف من الأبرياء . وكان اذا فكر فيما سجن من أجله أشفق على رودريك وأمثاله ، لما هم فيه من الغرور وما يرتكبونه من الجرائم والمعاصى التماسا للذة وقتية أو سعيا فى وهم زائل . فكانت هذه التأملات وأمثالها من غرائب ما يجرى فى الطبيعة تستغرق منه الساعات والأيام ، وهو سابح فى عالم

الفلسفة ، يحسب نفسه فى نعيم وسائر الناس فى شقاء لولا ماكان يعترض تأملاته من أمر فلورندا والفونس . على انه وكل أمرهما الى الله اذ لا حيلة له فى مساعدتهما أو فى معرفة السبيل اليهما

فلما كان اليوم الذى جاءه فيه سرجيوس ، دخل عليه حارسه وقال له : « ان رئيس دير الجبل يريد مقابلتك » . فلما سمع اسم ذلك الرجل عرفه وخفق قلبه خفقان المفاجأة لطول عهده بالاعتزال ، وأذن له وهو يستغرب مجيئه وحصوله على الاذن فى الدخول عليه ..

وكان سرجيوس يتوقع ان يرى تغييرا فى ملامح اوباس بعد ما سمعه من طول حبسه . فلما دخل عليه رآه مقبلا لاستقباله بثوبه الكهنوتى ، لأنه لم يبدله منذ أقام هناك الا قلنسوته فلم يكن يلبسها .. فمشى الى سرجيوس وشعره مرسل على ظهره وكتفيه ، وقد زادته اقامته فى تلك الخلوة هيبة وجلالا

فلما تلاقت الأبصار أسرع سرجيوس وأكب على يد اوباس كأنه يريد تقبيلها فمنعه من ذلك ، وعانقه وضمه اليه ثم تصافحا وسرجيوس لايستطيع امساك دموعه ، واوباس ينظر اليه ويده على كتفيه لطول قامته بالنسبة اليه . ثم دعاه للجلوس ، فجلسا على مقعد متحاذيين وسرجيوس يتأهب للكلام فسبقه اوباس قائلا : « اهلا بصديقى واخى سرجيوس من أين أتيت الآن ، ولماذا ؟ » ..

قال : « أتيت من دير الجبل ولا غرض لى الا رؤية

الميتروبوليت اوباس فأحمد الله على سلامته . ولا بأس عليه مما قاساه من البلاء فان الله يجرب عباده الصالحين »

فقال اوباس : « انت من أهل العلم والحكمة وتحسب حبسى فى هذه الغرفة بلاء ، أليس الناس جميعا محبوسين على هـذه الأرض ، وآجالهم قصيرة وقواهم محدودة وأعمالهم لا ترضى ضمائرهم ، وهل من فرج الا فى العالم الباقى لمن أحسن عملا وكان من الصالحين . وأما أهل الظلم منهم فانهم يشقون فى الدنيا والآخرة .. فلا حاجة للاشفاق على سجين برىء نقى السريرة ، فان سجنه وان طال قصير ، ولكن ابك أناسا منحهم الله السلطة على اخوانهم من بنى الانسان ليحكموا بينهم بالعدل ويكونوا عونا لهم على دنياهم ، فظلموهم وأساءوا اليهم وأهرقوا دماء الألوف منهم فى سبيل لقمة يأكلونها أو جيفة ينغمسون فيها ، ولكنهم انما يظلمون أنفسهم ولا يعلمون » . قال ذلك بصـوت هادىء لايتخلله اضطراب ولا حدة ولا شىء من عواقب الانفعال النفسى ..

فلا تسل عن اعجاب سرجيوس بما سمعه من الحكمة والموعظة ، على انه أراد أن يؤدى المهمة التى جاء من أجلها فقال : « لقد صدق مولاى . ولكن الله كثيرا مايعاقب الظالمين ويثيب المحسنين وهم فى هذه الدنيا عبرة لسواهم . وقد أتيتك الآن بأخبـار جديدة لاريب انك مشتاق للاطلاع عليها . ألا تريد الاطلاع على ماكان من أمر فلورندا بعد فرارها من بين يدى رودريك ؟.. »

فلما سمع اسمها تحركت فيه عاطفة الحنان وبدأ الاهتمام فى وجهه ونسى ما كان من فلسفته واستخفافه بحوادث الطبيعة . والانسان مهما يكن من تعقله وزهده لا يلبث اذا تحركت فيه عاطفة الحب ان يهتم بالحياة وأهلها . ولولا الحب لانحلت عرى المجتمع البشرى كما ينحل نظام الكون وتتبعثر الاجرام السماوية اذا فقدت الجاذبيـة العامة . واوباس أحب فلورندا من أجل الفونس وزاد حبه لها وعطفه عليها بعد ما اصابها من الضنك وكان انقاذها على يده . والمرء يزداد تعلقا بالصغير كلما زاد ضعفه . فلما سمع اوباس اسم فلورندا هبت عواطفه من رقادها وان لم يبد ذلك على محياه الا قليلا وقال : « وهل تعلم شيئا عنها ؟ وأين هى الآن ؟ .. »

قال سرجيوس : « هى فى دير الجبل .. »

فقال اوباس : « وكيف وصلت الى هناك ؟ »

فقص عليه ما علمه من خبرها منذ خروجها من قصر رودريك فى طليطلة حتى جاءت الى الدير ، الى أن قال : « وهى مقيمة عندنا فى أمان وسكينة . ولكنها فى قلق شـديد عليك وعلى الفونس لأنها لا تعرف مقره . وهى ــ لو عرفته ــ لا تستطيع الذهاب اليه لما أقامه رودريك من العيون والأرصاد فى سبيلها »

فاطمـأن بال اوباس على فلورندا ، ولكن سـاءه تضييق رودريك عليها فقال : « ألا يزال هذا الرجل يتعقب هذه الفتاة ويضيق عليها ؟ »

فابتسم سرجيوس ، وقال : « ولكنه لا يلبث ان يقع هو فى الضيق ويفرج عن الناس ولاسيما حضرة الميتروبوليت » . ورأى اوباس فى عينى سرجيوس ما يدل على أمور مهمة يريد التصريح بها فأبدى الاهتمام وقال : « وكيف ذلك ؟ »

— ٧٠ —

المروءة ومعرفة الواجب

فمـد سرجيوس يده الى جيبه وأخرج كتاب يوليان وهو لايزال فى انبوبته وقال : « ولما خرجت فلورندا من طليطلة كما قدمت لسيادتكم كتبت الى أبيها كتابا تشكو فيه ما حل بها من الشقاء فى قصر رودريك وما أراده منها . وبعثت بالكتاب مع اجيلا فجاءها جواب حاسم لما نحن فيه ، وهذا هو » . ودفع الأنبوبة اليه . فتناولها اوباس وسحب منها الكتاب ملفوفا ، وفضه وقرأه وأعاد قراءته ، وسرجيوس ينظر الى ما يبدو من آثار ذلك على وجهه فلم ير تغييرا يذكر ، فلم يستغرب ذلك لأنه علامة من علامات رباطة الجأش وسعة الصدر . ولكنه توقع أن يسمع ما يدله على ذلك الأثر فاذا هو يقول : « هل زادكم اجيلا ايضاحا ؟ »

قال سرجيوس : « نعم .. انه رأى جند العرب ينزلون على شواطىء اسبانيا ويوليان معهم يدلهم على عورات البلاد »

قال اوباس : « وهل علم رودريك بذلك ؟ » ..

قال سرجيوس : « نعم .. جاءته الأخبار منذ أيام ، فلم يعبأ بها ولا اطلع أهل مجلسه عليهـا .. فآل ذلك الى زيادة الخرق اتساعا ، وبات رودريك فى أشد الضيق وأصبح خروج المثلث من يده أمرا محتوما »

فقال اوباس : « وما سبب هذا الانقلاب ؟ »

قال : « لأن الكونت كوميس قائد الجند العام علم بنزول العرب الى شواطىء اسبانيا من أناس أتوا الى طليطلة من هناك ، وثبت لديه ان رودريك أخفى ذلك الخبر عنه ، فعاتبه فى مجلس حضره كبار الموظفين فآلت المعاتبة الى المنافرة ، فخرج كوميس من الجلسة غاضبا من رودريك ومن قسّه مرتين . وبعد انفضاض المجلس عاتب رودريك القس مرتين فتخاصما .. وخرج مرتين وأقام فى الكنيسة الكبرى ، وهناك لقيته وفهمت منه انه ناقم على رودريك ، وساعدنى ــ من أجل ذلك ــ فى الوصول اليك برقعة كتبها الى الحـارس . ويرى الأب مرتين انك لو طلبت استئناف النظر فى قضيتك فلا ريب فى خروجك بريئا . وعلى كل حال فان الله قد رد كيد الظالمين فى نحورهم . وهذا رودريك الذى كان بالأمس يستبد فى رجل مثل اوباس أصبح وقد هجره قائد جنده وأخص أخصائه ، وبات سخرية بين الناس . ألا ترى ان ذلك من تدبير العزيز الحكيم ؟ »

وكان سرجيوس يتكلم ويتفرس فى وجه اوباس ليتبين ما يبدو

عليه ، واوباس مطرق يمشــط لحيتــه بأنامله وهو مستغرق فى الأفكار ، وقد قطب حاجبيه وبان الاهتمام فى عينيه . فلما فرغ سرجيوس من الكلام رفع اوباس بصره اليه وهو لايزال مستغرقا فى الأفكار وجعل يحدق ببصره فى وجه سرجيوس كأنه يستطلع ما فى نفسه ، فلم يستطع سرجيوس احتمال أشعة تينك العينين أو الصبر على التحديق فيهما وكأنهما منفذ للسيال الكهربائى المتولد فى الدماغ من اعمال الفكر .. فكلما زاد الدماغ عملا زاد ذلك السيال قوة .. وظل كلاهما صامتا بضع دقائق ، ثم تكلم اوباس قائلا : « أتستحسن الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة ؟ »

قال : « وهل تتوقع فرصة أثمن منها .. انه فى أشد الضيق ، أعداؤه يهددونه واصدقاؤه يتوعدونه .. »

فنهض اوباس وجعــل يخطر فى أرض الغرفة ذهابا وايابا ، وأنامله فى لحيته يمشطها وشعر رأسه يجلل كتفيه ، وقد زاده ذلك السكوت وقارا وهيبة وسرجيوس ينظر اليه ولا يتكلم . ثم وقف اوباس بغتة أمام سرجيوس ، فنهض هذا وأصغى لما سيقوله اوباس فاذا هو يقول : « أمن المروءة يا سرجيوس ان نغتنم ضعف عدونا ونحمل عليه وهو فى أشد الضنك ؟ وهل من الحكمة والتعقل أن نساعد الغريب على القريب ؟.. ان رودريك مهما قيل فيه فهو منا ونحن منه . نشرب من ماء واحد ، ونقرأ فى كتاب واحد ونتكلم لسانا واحدا ، ونصلى صلاة واحدة ، ونتناول القربان المقدس من كأس واحدة ونجتمع فى كنيسة واحدة ،

فكيف نغتنم ساعة ضعفه ونعين عليه اناسا لا نحن منهم ولا هم منا ، ولا دينهم من ديننا ولا وطنهم وطننا ؟.. وزد على ذلك ان الانتقام من رودريك فى هذه الفرصة يجر البلاء على كل بلاد الأسبان ، اذ نخرجها من حضن دولة ربتها وعاشرتها الى دولة جديدة لا نعرف شيئا عنها . ولا ندرى ما يصير اليه أمر هذه البلاد اذا فتحها أولئك العرب ، ألم يسفك أجدادنا دماءهم فى فتح هذه الجزيرة واستغلالها فكيف نسلم بذهابها هدرا . أما ما فى أنفسنا من انكار حق رودريك فى الملك فانما هو من قبيل ما يحدث من التنازع بين الأخ وأخيه أو الأب وابنه ، فلا يجوز أن يستعين أحدنا على الآخر بأمة غريبة جنسا ومذهبا ووطنا ... وأما ما ارتكبه رودريك من الشطط فى الاساءة الىّ ، فيكفيه من ضميره ما يعذبه والله يتولى أمره ، فنحن يا سرجيوس فى موقف يقتضى ان تنبذ فيه الضغائن ونتحد على العدو المهاجم رغبة فى سلامة المملكة . ويجب ان نغضى عما أساء به أحدنا الى الآخر . وها أنا أبدأ بنفسى فأذهب الى رودريك وأستحثه على الاتحاد فى سبيل الوطن » .. قال ذلك ومشى الى رفّ كانت قلنسوته عليه فوضعها على رأسه ، وهمّ بالخروج وقد ظهر التأثر فى وجهه ونسى انه فى سجن ولا سبيل الى خروجه الا باذن الملك

وكان سرجيوس فى أثناء ذلك الخطاب يتصاغر فى عينى نفسه ، فما أتى اوباس على آخر أقواله حتى اعتقد سرجيوس انه من أحقر الناس وان اوباس من طينة أسمى من طينة البشر ، فأكب

عليه وضمه الى صدره وقبّل لحيتـه وعارضيـه ، وقال له :
« بورك فيك من بشر . وما أنت بشر انما أنت ملك كريم ، لقد حقّرتنى فى عينىّ وجعلتنى مرذولا عند نفسى.. فأنا تابع لك فيما تصنعه عامل بما تأمر به »

وكان اوباس فى أثناء ذلك يلبس قلنسـوته ويصلح شعره تحتها ثم مشى نحو الباب ، وما أن أدركه حتى انتبه الى انه لا يستطيع الخروج بغير اذن الملك فتراجع وقد خجل لذهاب ذلك من ذهنه ، وتناول لوحا من ألواح الكتابة (مكسوا بالشمع) فكتب عليه ما يأتى :

« من اوباس الميتروبوليت الى رودريك ملك طليطلة

« أكتب اليك من سجنى لا لرحمة أرجوها ولا لنكبة أخافها ولكننى علمت بعصيبة تهدد المملكة ، فأردت أن أكون شريكا فى دفعها وأن أضع رأسى بين رؤوس جندها ، ولى كلام أحب أن ألقيه على مسـامعك ، فمر حارس سجنى أن يحملنى اليك ، والسلام .. »

وخرج فدفع الكتاب الى الحـارس وأمره أن يوصـله الى الملك ، وعاد الى مجلسه ، فحمل الضابط الكتاب وسار

وكان رودريك قد أصبح فى حيرة من أمره بعد أن هجره قائد جنده ، فلا هو يستطيع ان يتنازل لاسترضائه ولا ذاك يعود اليه من تلقاء نفسه .. ولو كان الأب مرتين عنده لاستعان به فى فضّ هذا الخلاف ، فقضى معظم اليوم فى غرفته واذا بخادمه الخاص

يحمل اليه كتاب اوباس ، فتلاه وهو لا يصدق انه يقرأه فأعاد قراءته غير مرة . ولما فرغ من ذلك أمر أن يكتب باستقدام اوباس وخرج لانتظاره فى قاعة المجلس

وبعد هنيهة دخل اوباس بقدم ثابتة وجأش رابط ، فلبث رودريك صامتا ساكنا ليرى ما يبدو منه . فبدأ اوباس بالكلام قائلا : « لا تخف أيها الملك ، انى لم آتك لعتاب أو توبيخ ، انما جئت لأمر يتعلق بمصلحة المملكة .. جئت على اثر مابلغنى من نزول العرب فى شواطئها وعزمهم على فتحها ، وان قائد جندك أغضب نفسه وأغضبك واغتنم ساعة حاجتك اليه وهجرك ... وهو ضعف شبيه بضعف يوليان صاحب سبتة ، فانهما غضبا من أحد رجال القوط ، فعمدا الى الانتقام من المملكة كلها ومن نفسيهما لأنهما من أفرادها ... على ان خطأهما لايبرىء الملك من الخطأ الذى اقترفه مما لا نخوض فيه الآن » . قال ذلك بسكينة ورزانة ، والجد باد فى وجهه ، فاستغرب رودريك ما سمعه وارتاب فى اخلاصه لأنه لايستطيع أن يتصور مثل هذه الخصال لبعدها عن خصاله هو ، كما يستبعد الشهم الوفى وجود اناس يكافئون على الحسنة بالأذى ، فأراد أن يتبين حقيقة ما يريد اوباس فقال : « وما الذى تراه ؟ »

قال : « لقد أحسنت فى اقتصارك على الموضوع الذى نحن فيه ، فالذى أراه أن نبعث الى الكونت كوميس والى الأب مرتين فاذا حضرا أوبخهما وأحرضهما على الرجوع اليك والعمل

معك على انقاذ هذه المملكة من غارة المهاجمين »

فأمر رودريك أحــد الحرس أن يذهب فى استقدامهما حالا فسار الرجل وأشار رودريك الى اوباس بالجلوس وهو لايصّدق انه يقول ما يقوله عن اخلاص وحمية .. وظل صامتا يخشى ان تبدر منه بادرة يلام عليها لأن اوباس بهره بمروءته وجسارته ..

وأما اوباس فجلس ولم يعبأ بمن فى حضرته ، وبعد قليل عاد الرسول وأنبأ الملك بقرب مجيئهما . ثم أقبل كوميس فحيا باحترام وجلس باشارة الملك ، وقد استغرب وجود اوباس هناك . ثم جاء مرتين فبدا عليه الانفعال حين وقع بصره على اوباس . أما اوباس فالتفت الى رودريك واستأذنه فى الكلام فأذن له ، فوجه كلامه الى كوميس قائلا : « قــد بلغنى ياحضرة الكونت انك خرجت بالأمس من مجلس الملك غاضبا ، فكيف حالك الآن ؟ »

فقال : « لم أغضب من جلالة الملك الا غيرة على المملكة . ولكننى لم أبلغ منزلى وأخل بنفسى حتى رأيتنى قد تعجلت فى الأمر لأننا فى حالة تدعو الى الاتحاد لدفع الأعداء .. »

ولم يتم كلامه حتى ابتدره اوباس قائلا : « يالك من شهم صادق ، ذلك رجائى فيك لعلمى بحدة مزاجك ، وحاد المزاج سريع الرجوع الى الصواب » ثم التفت الى مرتين وكان جالسا مطرقا ، وقال : « ولا أظن الأب مرتين الا فاعلا مثل ذلك أيضا..» فظل مرتين مطرقا ولم يجب ، فالتفت اوباس الى رودريك وقال : « لاريب عندى فى رغبة قداسة الأب فى الوفاق والوئام ونبذ

البغضاء عملا بوصية السيد المسيح ، ولذلك فاننا لا نطيل الكلام فى هذا الشأن بل نبادر الى العمل .. فيأمر جلالة الملك بعقد المجلس من كبار رجال الدولة للنظر فى الوسائل اللازمة .. »

فرفع مرتين رأسه عند ذلك ووجه خطابه الى الملك قائلا : « كيف تبرمون مثل هذا الأمر قبل عرضه على مجمع الأساقفة ، وجلالة الملك يعلم ان قوانين المملكة تقضى بذلك (١) »

— ٧١ —

الاقرار على الحرب

ولم تكن تلك القوانين تخفى على اوباس ، ولكنه أراد السرعة لأن جمع الأساقفة يستغرق بضعة أسابيع .. على انه خاف ان انكر جمعهم أن يفسد مرتين ما أصلحه ، فعذر الرجل على تعنته ، فقال : « لم أطلب ابرام شيء دون رأى المجمع ولكننى أردت اجتماع مجلس الملك للبحث فيما يعرضونه على المجمع » وقد فاته ان مرتين انما أراد عرض ذلك على المجمع ليشكو اليه خروج اوباس من السجن ، لأنه اغتاظ من جلوسه فى حضرة الملك وزاد غيظه ان رآه جالسا مجلس المشير أو الخطيب

فاستحسن رودريك عقد مجلسه فبعث اليهم ، وهم الكونتات الذين تقدم ذكرهم ، فحضروا .. وقبل عقد الجلسة طلب الكونت

(١) رومى — الجزء الاول

كوميس ان تتبع فى عقدها نصوص القوانين الرسمية .. وهى تقضى باخراج مرتين منها لأنه ليس من رجال الدولة ، فخرج وهو يكاد يتميز غيظا

فلما التأمت الجلسة ، وقف اوباس ورفع يده وبارك وصلى صلاة حارة شفعها بالتوسل الى الله تعالى ان يجمع قلوب القوط ليتحدوا على حماية بلادهم ، ثم خاطب الحضور قائلا : « أنتم تعلمون الاساءة التى لحقت بى من جلالة الملك ومن مجلس الأساقفة حتى سجنونى سجن المجرمين شهرين كاملين ، لم أر فيهما غير حراس .. حكموا علىّ بذلك لغير ذنب اقترفته أو على الأقل انى أعتقد ببراءة ساحتى من كل ذنب ، ومع ذلك فحين علمت بما يهدد المملكة من الأخطار استأذنت فى مقابلة الملك ، وعرضت نفسى للعمل فى جملة العاملين على انقاذها . فبالأحرى يجب أن تكون رغبتكم فى ذلك صادقة قوية ، ولاسيما وأنتم رجال الدولة ومدبرو شئونها .. اننى لا أنبهكم الى أمر تعلمونه ، ولكننى أبث لكم عواطفى فى هذا الشأن ، وأنا أصغر العاملين فى هذا السبيل »

فقال الكونت كوميس : « ان شهامة اوباس ومروءته وتعقله أشهر من أن تذكر ، ولكننا لم نكن نحسب فى البشر مثل هذه العواطف . فكيف نرى ما سبقنا به هو ولا تتفانى نحن فى خدمة الملك . ولكننى لا أرى تأجيل العمل حتى يجتمع الأساقفة لئلا يضيع الوقت بلا طائل »

فقال اوباس : « ولكن لابد من استشارتهم فى مثل هـذا الأمر ، وهم ــ كما لا يخفى ــ أصحاب الفضل الأكبر فى تنظيم هذه الحكومة ووضع قوانينها وأحكامها وتدبير شئونها » (١)

فقال رودريك : « لايمكننا اتخاذ قرار نهـائى فى التجنيـد والحرب الا بعد مشورتهم »

فقال كوميس : « لابأس من استشـارتهم ، ولكن الوقت قصير والفرصة ثمينة »

فخشى اوباس ان يحتدّ كوميس فيذهب سعيه هدرا ، وتذكر ان مرتين خرج من الجلسة حاقدا ، وخشى ــ اذا لم يسترضوه ــ ان ينقلب عليهم ويحرض الأساقفة على الملك ، فتنقسم المملكة على نفسها فتكون المصيبة الثانية شرا من الأولى ، فعمد الى تلافى ذلك فقال لكوميس : « أراك ضيقت الفرصة ودققت فى الطلب فالأساقفة ــ كما قلت ــ لابأس من استشارتهم ، بل أرى احترامهم واجبا لأنهم هم واضعو أساس هذه النظم ، فضلا عما قد يترتب على نصائحهم من الفوائد . وزد على ذلك ان الاتحاد يقضى علينا باستشارتهم لأن غضبهم يفضى الى الشقاق لا محالة . ولا يخفى عليك أيضا ما يترتب على ذلك من عدم تحقيق الهدف الذى تسل سيفك وتشحذ قريحتك فى سبيله . فرجائى لك ان تتلافى هذا الخطر ، ولا شك عندى انك ستتلافاه ، فألتمس ان تبدأ بذلك من هنا (وأشار الى باب القاعة حيث خرج مرتين)

(١) كيزو

لأن حضرة الأب اذا رضى هان الأمر » . ثم وجه كلامه الى رودريك قائلا : « هل يأذن مولاى باستقدام الأب مرتين ليحضر هذه الجلسة ونجعل له حظا من هذا البحث ؟ »

وكان كلام اوباس نافذا بلا مراجعة لأنه بهرهم بما أوتى من الحمية والمروءة ، فضلا عما فطر عليه من قوة العارضة . فأمر رودريك للحال باستقدام مرتين ، وكان منفردا فى احدى غرف القصر . فلما دخل ، وقف اوباس وبش له ، وقال : « ليس فينا ياحضرة الأب من يجهل حق سيادة الأساقفة فى شئون مملكة القوط ، ولكن ولدنا الكونتكوميس رجلحرب يحب المبادرة ، وغيرته على حماية هذه الدولة حملته على التسرع.. وهو مصيب بالنظر الى قوانين الحرب ، ولكننى أصوب رأى حضرة الأب بالنظر الى وجوب استشارة الأساقفة . على انى أخشى أن يتسبب ذلك فى التأخير ، فتفوت الفرصة ويذهب سعينا هباء . ولا أظن ان السادة الأساقفة اذا اجتمعوا واستشيروا يشيرون بغير المبادرة الى الحرب ، بل أحسبهم يلوموننا على تأخير التجنيد الى اجتماعهم . فالذى أراه ــ والأمر لجلالة الملك ــ أن نبدأ بالتأهب للحرب ومخابرة الأطراف فى حشد القوات والأموال ، ونبعث الى الأساقفة فنجمعهم ونتلو عليهم قرار هذا المجلس ، أو نبعث اليهم بخلاصة أعمالنا وهم فى أبرشياتهم ، لأننا أحوج ما نكون اليهم الآن وهم هناك ، واذا أذن لى الملك قلت كلمة فى هذا الشأن والرأى راجع اليه على كل حال ، وذلك انى أرى

أن ينتدب قداسة الأب مرتين لينوب عن جلالته فى تبليغ الأساقفة قرار هذه الجلسة ، واذا رأيتم انى أليق لهذه الخدمة قدمت نفسى لها ، أو كما تشاؤون »

فلما فرغ اوباس من الكلام ، لم ير مرتين سبيلا للرد عليه لعلمه ان أمر المجلس نافذ لا محالة ، وقد أعجبه رأى اوباس بانتدابه للاتصال بالأساقفة ليتمكن من بث ما فى نفسه اليهم ، لكنه أساء الظن فى ذلك الانتداب ، وظن ان اوباس يريد ابعاده عن مجلس الملك أو أن يفر هو من سجنه لغرض له ، وكلا الأمرين لم يرضه . فلم ير خيرا من الرضوخ لقرار المجلس ، فعمد الى المغالطة فقال ، وهو يحاول كظم غيظه من تغلب اوباس على رأيه : « لا أظن حضرة الملك يسىء الظن بقصدى اذا التمست جمع الأساقفة ، فانه طلب قانونى .. وأما الحرب فانها كما قال أخى الميتروبوليت تدعو الى العجلة ، وللملك ان يبلغ الأساقفة بالطريقة التى يختارها . وأما أنا فانى أعد تلك المهمة شرفا لى ، ولكنها تبعث على التطويل لما يقتضيه ذلك من الانتقال من أبرشية الى أخرى وكذلك انتداب حضرة الميتروبوليت ، فالأنسب أن ينتدب جلالة الملك من يشاء من حاشيته ويرسلهم جميعا دفعة واحدة فيصل الخبر الى السادة الأساقفة فى وقت واحد » ..

ولم يجهل اوباس ما ينطوى تحت تلك الملاينة من الكظم والحقد ، ولكنه تجاهل ذلك رغبة فى النتيجة ، واغضى عن كل سيئة فى سبيل الوصول اليها ، فأبدى استحسانه لموافقة مرتين ،

والتفت الى رودريك وهو يبتسم وقال : « لقد تم الاتفاق بعون الله .. فما على جلالة الملك الا أن يتعاون مع مجلسه فى التأهب للحرب ونحن فى كل حالة خدم المملكة المطيعون »

فلم يسع الملك بعد ما شاهده من مساعى اوباس فى نصرته الا ان يحترمه ويتصاغر فى عينى نفسه فقال له : « بورك فيك يا اوباس » . فقطع اوباس كلامه خوفا من اثارة حسد مرتين . وحجته فى قطعه انه لايريد أن يسمع المديح يكال له ، ثم وقف وطلب الى الملك أن يأذن له فى الانصراف الى سجنه ، فقال رودريك : « امكث معنا يا اوباس فانك نعم المشير ، ودع السجون لأهلها »

فقال اوباس : « أشكرك على ذلك ، ولكننى أستأذن فى الانصراف من هذه الجلسة على أن أعود بعد قليل »

فأذن له فخرج اوباس وقد حمد الله على نجاح مسعاه فلقيه سرجيوس فقص عليه ما كان ، فازداد اعجابا بتلك الصفات النبيلة ، وتداولا فى شئون كثيرة وعاد سرجيوس بعد بضعة أيام الى الدير ..

وكانت فلورندا تنتظر رجوعه بفارغ الصبر فلما عاد وقص عليها ما فعله اوباس الى آخر الحديث ، أحست بانقباض فى نفسها لاعتبارها ذلك مخالفا لما كانت تتوقعه من سقوط هذه الدولة على يد والدها ، وما تخافه على نفسها وعليه اذا لم يفز العرب فى هذه الحرب . فوقعت فى حيرة ولكنها لم تستطع تخطئة اوباس لأن

نواميس الشرف والمروءة تؤيده وتنصره ، ولولا ضعف المرأة وإيثارها الانتقام لما تخيرت فلورندا غير ما أراده اوباس ، ولكنها لم تكن ترى سبيلا الى السعادة الا بقتل رودريك ولاسيما بعد أن جاهر والدها بعدائه ، فانتصار رودريك يعود بالويل والثبور عليهما . وسألت الرئيس عن الفونس فأخبرها انه فى استجة مع فرقة من الجند ينتظر أوامر رودريك . فتاقت نفسها للذهاب اليه لعلمها انه لو كان عالما بمقامها لسعى اليها أو بعث فى استقدامها ، ولكنها خافت العيون والأرصاد واستشارت الرئيس فى ذلك مرة فقال لها : « امكثى عندنا ريثما نرى ماذا يكون من أمر هذه الحرب .. »

- ٧٢ -

السفر

قضت فلورندا فى ذلك الدير بقية فصل الشتاء وكل فصل الربيع وهى تتنسم الأخبار بواسطة اجيلا وشانتيلا والرئيس ، فلم تسمع الا بانتصارات العرب ووالدها معهم ، وقد دخلوا اسبانيا وأوغلوا فى مقاطعة بوتيكة . وكان رودريك قد أعد جنده وتأهّب للخروج معهم ، فسمعت انه برح طليطلة بنفسه ومعه العدة والرجال ، واضطربت اسبانيا كلها وفيها الخائف والشامت والآسف والناقم لاختلاف الأحزاب وتضارب الأغراض كما علمت

أما أهل دير الجبل فقد كانوا يسمعون الأخبـار وهم يرون الخطر بعيدا عنهم لبعدهم عن ساحة القتال . وفلورندا قد تراكمت عليها الهواجس والمخاوف على أبيها وخطيبها ، وهى لا تدرى هل تسير الى أحدهما ، أو كليهما ، أو تبقى فى الدير ؟ وكانت ترجح بقاءها هناك راجية أن يبعث والدها فيستقدمها كما قال . فلما أقبل الصيف أصبح دير الجبل عليل النسيم ، عذب الماء ، نشيط الهواء وقد اكتست أوديته حلة خضراء

ففى يوم من أيام يوليو أفاقت فلورندا باكرا وهمت بالخروج من الدير للتجول فى بساتينه على جارى العادة ، وقبل أن تخرج جاءها اجيلا يدعوها الى الرئيس ، وقد مضت مدة لم يدعهـا اليه ، فاختلج قلبها وأسرعت حتى أقبلت على غرفته فرأت عنده كهلا لا تدل سحنته على انه من القوط أو من الرومان ، ورأت عليه ملابس تذكرت انها كانت ترى مثلها وهى عند والدها فى سبتة ، ولما دنت من الرجل رأت آثار السفر على وجهه بما غطى لحيته وشاربه من الغبار حتى حاجبيه وأهدابه فان الغبار غلب على لونها جميعـا . فتوسمت فلورندا من ذلك القـادم خبرا جديدا ، فدخلت وحيَّت فرحَّب بها الرئيس ، وقال : « هـذا رسول من أبيك .. »

فلما سمعت ذلك خفق قلبها وتوردت وجنتاها بغتة والتفتت الى الرجل وقالت : « ما وراءك ؟.. »

قال : « انى من أصدقاء أبيك ومحبيِّه والمطلعين على أسراره

وقد علمت بكتابك اليه وما ترتب على ذلك كله من الانقلاب الذى سيعود على رأس .. ألا تعرفينني يا فلورندا ؟ »

فلما سمعت فلورندا صوته وتأملت ملامحه تذكرت انها شاهدته غير مرة فى صباها وانه كان كثـير التردد على بيت والدها فى سبتة .. فاستبطأها الرجل وقال : « ألا تعرفين سليمان التاجر ؟»

فانتبهت للحال وقالت : « أنت سليمان ؟.. نعم أعرفك جيدا وكنت تتردد وتحمل الينا الهدايا والأحمال وتبتاع لنـا الآنية والثياب .. هل أنت آت من عند والدى ؟ وأين هو الآن ؟ »

قال : « هو مع جند العرب على مقربة من وادى ليته »

قال ذلك واستأذنها بعينيه هل يقول كل شىء فى حضرة الرئيس فأجابته بالاشارة أن يفعل ، فقال : « وقد أوغلوا فى بوتيكة ولم يلقوا معارضـة الا قليـلا وقد عدهم أهل البـلاد رحمة ، ولا يلبثون أن يتملكوا البلاد كلها »

فبغت الرئيس وقال : « وماذا جرى لجند الأسبان ؟.. »

قال : « لم يلتق العـرب برودريك بعد ، ولكننا سـمعنا بخروجه من طليطلة بجند كثير ، وسيعود خاسرا فأبشرا »

فظهرت البغتة على وجه الرئيس وقال : « هل تعتقد ذلك ، وكيف تكون حالنا اذا صح قولك ؟ »

قال : « تكون على أى حال أحسن مما أنتم فيه الآن ، لأن العـرب اذا فتحوا بلدا قلما يتعرضـون لأهلها فى شىء غير ما يفرضونه عليهم من الجزية أو الخراج . وأما الرهبان وجماعة

الاكليروس فانهم معفون من كل ضريبة ، يقيمون فى ديارهم سالمين آمنين .. ذلك ما شاهدناه بأعيننا فى البلاد التى فتحوها فى مصر والشام ..

فأطرق الرئيس وسكت ، فقالت فلورندا : « وما الذى جئت من أجله الآن ؟ »

قال : « كلفنى مولاى الكونت والدك أن آتى كى أزورك ، واذا أردت الذهاب اليه سرت فى خدمتك »

فانبسطت نفس فلورندا لذلك وقالت : « ألا تخاف علينا بأسا فى أثناء الطريق ؟ »

قال : « لا بأس علينا من أهل اسبانيا ونحن منهم .. ولا من الملك وهو فى شغل من نفسه وجنده »

فالتفتت فلورندا الى الرئيس كأنها تستطلع رأيه فقال : « اذا لم يكن بدٌ من ذهابك فهذه فرصة لاتضيّعيها ، ونحن ندعو لك بالوصول الى والدك سالمة »

فعادت فلورندا الى خالتها واستشارتها فأشارت عليها بالذهاب ، وتأهبوا فى الغد وسافروا ودليلهم سليمان ومعه اجيلا وشانتيلا ، وأما فلورندا فطلبت الى سليمان أن يجعل طريقهم باستجة

فساروا أياما لا يمنع مسيرهم نوء ولا مطر والأرض كلها مكسوة بالأشجار والأعشاب والطقس جميل ، حتى أطلوا على استجة فخفق قلب فلورندا عند مشاهدة تلك المدينة ، وكانوا قد أشرفوا عليها من مرتفع ، فرأت كنيستها فتبركت بها عن بعد

وجعلت تناجي نفسها عن مقر ألفونس فلم تجد بدا من سؤال سليمان ، فقالت له : « اذا أنفذ رودريك جندا الى مدينة مثل استجة فأين يقيم ؟.. »

فقال لها : « أظنك تبحثين عن مقام الأمير ألفونس ؟ »

فبغتت فلورندا وقالت : « نعم .. وكيف عرفت ذلك ؟ »

قال : « عرفته منذ بضعة أشهر اذ جئت الى هـذه المدينـة وبلغني قدوم الأمير وجنده ، وكانوا يقيمون فى هذه القلعة قرب الجسر . هل أبحث عنه هناك ؟ »

فاستأنست به فلورندا وقالت : « افعل يرحمك الله .. وأتنا بالخبر .. »

فتركهم وتحـول بأسرع من لمح البصر ، وترجلت فلورندا وخالتها ولبثوا جميعا ينتظرون الخبر وفلورندا تهنىء نفسها بلقاء ألفونس ، وكلما تصورت أنها لقيته يختلج فؤادها ، وهى لاتزال تذكره كما شاهدته المرة الأخيرة فى حديقـة القصر فى طليطلة وعليه ملابس الشتاء والفرو والمنطقة ، وقد خرج من الحديقة مسرعا مبغوتا عند سماعه الصفير .. تلك آخر صورة ارتسمت له فى ذهنها . ولم يطل زمن اضطرابها وهواجسها لأن سليمان عاد سريعا فلما رأته مقبلا شخصت اليه ببصرها ، وقد منعها الحياء من مبادرته بالسؤال قبل وصوله ، فلما وصل ابتـدرها قائلا :

« لم أجد أحدا فى القلعة »

قالت : « أتظنهم لم ينزلوا فيها ؟ »

قال : « لا ريب عندى انهم كانوا فيها ، وقد سألت أحـد حراس القلعة فأخبرنى ان رودريك بعث الى مولاى الأميرألفونس أن يوافيه الى وادى ليتة بمن معه من الجند لملاقاة العرب »

فبغتت فلورندا وأطرقت ، وهى تتجلد وتمسك عواطفها أمام ذلك الرجل ، ولكنها أصبحت قلقة البال على ألفونس لأنه ذهب الى ساحة الحرب وهو فى جانب وأبوها فى الجانب الآخر ، فاذا فاز الواحد غلب الآخر ، وكلاهما عزيزان . وربما لم يفت سليمان ما مر بخاطرها من هذا القبيل فقال لها : « أظننا نلاقى الأمير ألفونس فى الطريق اذا أسرعنا والا فاننا نلاقيه فى وادى ليتة ، فاذا وصلنا الى هناك بحثت عنه وأتيتك بما تريدينه »

فاطمأنت فلورندا بذلك الوعد ، وأشارت الى الركب بالمسير فركبوا وساروا حتى تواروا عن استجة وقطعوا نهرها ، وما زالوا سائرين جنوبا وهم يمرون بالكروم والبساتين ، وكلما اقتربوا من وادى ليتة قل الناس العاملون فى الحقول ..

وأقبلوا فى صباح اليوم التالى على طريق رأوا فيها جماعة من أهل القرى يهرعون كأنهم يفرون من عدو يتعقبهم فقالت فلورندا فى نفسها : « يظهر أننا على مقربة من معسكر العرب أو أن العرب قادمون ؟ .. ثم التفتت الى سليمان فاذا هو ينظر الى الأفق ويتفرس كأنه يرى شيئا غريبا ، فنظرت فرأت غبارا يتصاعد فرجح لديها قدوم العرب فخفق قلبها وقالت لسليمان : « يظهر ان العرب قريبون منا . أليس أبى معهم ؟ »

فقال : « لاأظنأن القادمينعرب لأنهم سائرونمن الشمال الى الجنوب .. » ثم التفت الى أحد المارة من الفلاحين وسأله عن سبب فرارهم فقال الرجل : « ألا ترى جند الملك قادمين ، انهم لم يتركوا أذى الا ألحقوه بالفقراء أمثالنا ، ولا يتركون ثمرا الا قطعوه ولا زرعا الا داسوه ، ولو اكتفوا بذلك لهان علينا الأمر ولكنهم يلحقون الأذى بالناس .. » قال ذلك وسار مسرعا فى طريقه لئلا يكون مخاطبه من حزب الملك فيقبض عليه

وكانت فلورندا تسمع كلام الرجل وتأسف على تلك الحال ، وأرادت أن تعلم اذا كان الملك نفسه مع ذلك الجند فقالت لسليمان : « وهل تظن أن رودريك مع هذا الجند ؟.. »

قال : « أظنه معهم .. »

فلما سمعت ذلك تصورت قرب الخطر منها ، وسليمان يستشف عواطفها وملامحها ، فلما رأى اضطرابها قال لها : « لا تخافى يا مولاتى فانك فى أمان ، تعالى نختبىء فى مكان ريثما يمر هذا الجند » ..

قال ذلك ومشى فتبعه الجميع حتى دنوا من مكان خرب مهجور فوق تل بعيد عن الطريق ، فدخلوه فقالت فلورندا : « أرى أن أتنكر بثوب رجل » فأعطوها ثوبا من أثوابهم وأعطوا مثله للخالة العجوز حتى لايشك من يراهم عن بعد أنهم رجال ، ثم اختبأوا فى ذلك المكان وفلورندا شديدة الميل الى مشاهدة تلك الحملة ، فاهتدت الى شق نظرت منه الى جهة الغبار ، فاذا هى

بالبنود قد ظهرت ، والفرسان بينها عليهم الملابس الملونة والدروع . ورأت فى وسط الحملة بنودا كثيرة قد تجمعت ، تحملها فرسان بملابس مرصعة ، وفى وسطهم موكب يتلألأ كالشمس فعلمت أنه موكب رودريك . فأصابها الاضطراب ، ولم يقترب الموكب من مكانها حتى اصطكت ركبتاها وارتعدت فرائصها فرسمت اشارة الصليب ، فتشجعت وثبتت قدميها ، ثم شغلها ما سمعته من قرع الطبول وخفق البنود وصهيل الخيل وقرقعة العجلات ، وعليها المئونة والذخيرة وضوضاء الناس وهم يمرون بين يديها . ثم أقبل الموكب ورودريك فيه على سرير بين دابتين بما يشبه الهودج وفوق رأسه مظلة من الديباج المزركش مرصعة بالدرّ والجوهر (١) فى مقدمتها صليب مغروس فى أحد أعمدتها ، ورودريك جالس وعلى رأسه التاج يتلألأ بالحجارة الكريمة ، وقد ارتدى وشاحا مزركشا وردى اللون .. وتصدّر تصدّر الملوك على عروشهم ويده فى لحيته وهو يجيل نظره ذات اليمين وذات الشمال ، ينظر الى جنوده وكثرة ما معه من العدة والرجال . وقد جلس معه فى ذلك السرير الأب مرتين وهو يخاطبه ويشير بيده ورودريك ينظر الى الأعلام المحيطة بموكبه ودلائل الاعجاب بادية على وجهه

فلا تسل عن حال فلورندا لما وقع نظرها على وجه رودريك ، وكان سلمان واقفا بجانبها فلما مرّ الموكب التفت فرأى لونها

(١) نفح الطيب ــ الجزء الاول

قد أصبح مثل لون التراب ، فأراد أن يشغلها عن الخوف فقال :
« ما ظنك فى عدد هذا الجند يامولاتى ؟ »
قالت : « لا أدرى ولكننى أراه كثيرا .. هل تظن ان جند العرب أكثر منه ؟ »
قال : « ان العـرب لا يزيد عددهم على خمس هؤلاء . وناهيك بما سينضم الى جند رودريك من الرجال قبل أن يلتقى بالعرب ، ولاسيما جند مولاى الأمير ألفونس فانه سينضم اليه..»
فقالت : « اذن فالعرب فى خطر وضعف ؟.. »
قال : « لو كانوا ضعفاء ما استطاعوا دخول هذه البلاد ، فان القوة ليست فى الكثرة وانما هى فى الشـجاعة .. ان العـرب يامولاتى لا يزيد عددهم فى هذه الجزيرة على ١٢ ألفا ومع ذلك فلم يقف فى سبيلهم أحد »
فقطعت كلامه قائلة : « ولكنهم لم يلاقوا مثل هذا الجند بعد »
فقال سليمان : « هذا صحيح ولكننى رأيت من شـجاعتهم واتحادهم وصبرهم ما لا أخشى معه عليهم شيئا ، ومع ذلك فان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء » . وفى أثناء هـذا الحديث مرّت بقية الحملة فمكثوا هناك الى آخر ذلك اليوم .. وخرج سليمان وحده للبحث عن المكان الذى نزل فيه العرب ثم عاد فأخبر فلورندا بأن العرب قد نزلوا فى وادى لبته قرب مدينـة شريش فقالت له : « وهل عرفت مكان معسكر الفونس ؟ »
قال : « هو على مقربة من ذلك المكان »

فقالت : « وما العمل الآن ؟.. »

قال : « اذا شئت الذهاب توا الى مولاى الكونت والدك أوصلتك اليه حالا »

فأصبحت فلورندا فى حيرة .. كيف تسير الى معسكر العرب قبل أن ترى الفونس وتدبِّر طريقة للاجتماع به أو رؤيته..فلبثت صامتة ، فأدرك سليمان سبب صمتها فقال لها : « يظهر انك تريدين البحث عن الأمير ألفونس قبل كل شىء ؟ »

قالت : « نعم .. »

فقال : « أعرف كرما من كروم شريش لعائلة من أهل هـذه البلاد ، وفى الكرم بناء مرتفع يطل على سـهول شريش كلها ، فتقيمين هنـاك مع خالتك والخادمين ، وأمضى أنا للبحث عن ألفونس وآتيك بالخبر اليقين أو أستشير والدك .. »

— ٧٣ —

كتاب أوباس

فاستصوبت فلورندا رأيه وشكرته وساروا حتى أطلوا على مدينة شريش وحولها الكروم ، وفى جملتها كرم صاحبنا الشيخ والد بطرس وهو الذى عناه سليمان ، فصعدوا اليه واخترقوه يلتمسون العريش فلم يجدوا فى الكرم أحـدا . وكان سليمان لا يمر من هناك الا ويرى أولاد الشيخ وأحفاده وأحفاد أولاده

يسرحون فى الكرم اما للعمل أو للعب . فقال سليمان فى نفسه : « ان لهذا سببا ذا بال» ومشوا حتى وصلوا الىالعريش فى أحد أطراف الكرم ، وقبل الوصول اليه سمعوا صوتا يناديهم تعودوا سماع مثله من نواطير الكروم ، فتقدم سليمان ولم يبال حتى دخلوا العريش فرأى هناك الشيخ وكل ذريته معا ، والقلق باد على وجوههم أجمعين . فلما رأوه مقبلا ذعروا ونهض له بطرس فقال : « ماذا تريد ؟ » ولم يتم سؤاله حتى عرفه فقال : «سليمان مرحبا بسليمان التاجر .. » فلما سمع الشيخ اسم الرجل وقف له ورحّب به ، وكان لذكر اسمه تأثير فى سائر أفراد تلك العائلة لأنهم كانوا يسمعون به وبعضهم كان يراه عند قدومه الى شريش لابتياع الخمر فى الموسم . وذهب عنهم بعض الاضطراب لدى رؤيته .. وأهل القرى مهما بلغ من ذكائهم واقتدارهم فانهم يعتقدون بفضل أهل المدنعليهم.. فلما رأى سليمان انهم احتفوا به هذا الاحتفاء بالغ فى ملاطفتهم ، وتقدم الى الشيخ فسلّم عليه وسأله عن سبب انزوائهم فى ذلك العريش فى أثناء النهار والكرم لايستغنى عمن يتعهده .. فقال الشيخ : « يظهر انك لم تعلم بما طرأ علينا .. »

قال : « أظنك تعنى قدوم العرب ؟ »

قال : « نعم ، ولاندرى ما يؤول اليه حالنا بعد هذه الحرب ، ورأينا بالأمس جند الملك قد عسكر مقابل جند العرب ، ولاتلبث الحرب أن تنشب ، وعندنا أطفال لا نستطيع الفرار بهم ، وان

استطعنا فما نحن بقادرين على ترك مغارسنا » . قال ذلك وصوته يكاد يختنق حنانا على أهله وولده

فابتسم سليمان وقال : « لا بأس عليكم يا عماه ، انى أكفل لكم كل ما يحميكم ويحمى أولادكم من كل شر .. ومعى أناس من أهلى سأعهد بهم اليكم كى يقيموا عندكم الليلة ، فهل من مكان لهم ؟ »

قال : « على الرحب والسعة » وأشار بيده الى جهة مستودع الخمر فى قمة الجبل وقال : « هناك .. » وهرول مسرعا ومعه بعض أولاده ، حتى أقبلوا على فلورندا ورفاقها فتناولوا أزمّة الخيل وقادوها الى ذلك المستودع ، وكان بعضهم قد سبق اليه فكنسه وغسله ونظفه ، فصعدت فلورندا على سلم المستودع وهى لا تزال بملابس الرجال ، وصعدت خالتها وخادماها ثم سليمان ، وظل أولاد الشيخ أسفل المكان ينتظرون أمرا لخدمته فنزل سليمان فدفع اليهم قطعا من الذهب وطلب اليهم أن يأتوهم بالطعام ، وأظهر السخاء فازداد أولئك الغلمان رغبة فى خدمته

أما فلورندا فلما صعدت الى ذلك المستودع أطلت من بعض نوافذه ، فرأت تحت ذلك الكرم والى شرقيه سهلا واسعا على مدى البصر يخترقه نهر على ضفتيه الأشجار والأعشاب ، وفى أحد طرفى السهل الى يمينها خيام على نمط لم تتعود مثله ، وفى وسطها خيمة كبيرة حمراء اللون أمامها علم كبير . وأمام الخيام الأخرى أعلام أصغر منه ، ورأت وراء تلك المضارب خيام

منفصلة عنها وفيها الدواب وبينها الجمال وهي لم ترها منذ زمان طويل . فعلمت انها ترى معسكر العرب فتنسمت ريح والدها من هناك ، وكان سلمان قد فرغ من صرف أولاد الشيخ وصعد فلما رأته قالت : « أليس هذا معسكر العرب ؟ »

قال : « بلى يامولاتي .. والخيمة التي ترينها في وسط المعسكر هي خيمة الأمير طارق بن زياد . ومولاى الكونت يوليان والدك يقيم فيها معه »

قالت : « وما تلك المضارب البعيدة ؟ »

قال : « هي أخبية النساء ومراتع الماشية .. لأن العرب اذا ساروا الى الحرب أخذوا معهم نساءهم وأولادهم وماشيتهم ويجعلونهم وراءهم ، فاذا ضعفوا في الحرب وحدثتهم أنفسهم بالرجوع أوالفرار لقيهم أهلهم فيعودون وقد تشددوا وتحمسوا»

فحولت نظرها الى السهل من جهة اليسار ، فرأت هناك خياما أخرى عرفت أنها مضارب الاسبان وفيها خيمة رودريك وخيمة ألفونس . أما فسطاط رودريك فعرفته من كبره ومما فوقه من الأعلام والبنود وما أمامه من الخدم والأعوان ، وان كانوا لايظهرون — الا قليلا — لبعد المسافة . وأما خيمة ألفونس فلم تستطع معرفتها لتشابه خيام القواد وهم كثيرون ، فأشارت الى خيمة رودريك وقالت : « أليست هذه هي خيمة الملك ؟ »

قال : « بلى وأظنك تريدين معرفة خيمة الأمير ألفونس ، انه لا سبيل الى معرفتها الا بالبحث .. وقد عقدت النية على أن

أبحث عن ذلك بنفسى لما لوالدك من الفضل علىّ »

فشكرت له فضله ثم قالت : « ومتى تذهب للبحث ؟ »

قال : « فى هذه الساعة بعد أن أهيىء لك ما تحتاجين اليه من الطعام ، ولا بأس عليك هنا ومعك خالتك والشابان وهما نشيطان » ..

قالت : « ومتى تعود الينا ؟ »

قال : « أما الرجوع فلا يمكن تحـديده وسأبذل الجهـد فى الاسراع » وبعد أن دبر كل شيء ودعهم ونزل وقد دنت الشمس من المغيب ..

وكان سليمان كثير الاختلاط بالاسبان ، يجيد لغتهم فضلا عن لغة القوط ، فاذا كلّم أحدا باحدى اللغتين ظنوه من أهلها . هذا الى انه كان يعرف العربية والبربرية . ونظن انالقارىء أدرك مما تقدم انه هو الرجل الذى جاء الى الجمعية اليهودية فى استجة منذ بضعة أشهر وألفونس فيها وأنبأهم بما عزم عليه يوليان

فلما فارق فلورندا عاد الى الطريق التى جاء منها ونزل الى معسكر الاسبان من الخلف ، لئلا يشك أحد فى قدومه من بعض القرى أو المدن ، وما زال يتجسس وهو لايتوقع أن يرى الفونس هناك فطال تجسسه ولم يعثر عليه ، فسأل بعض العارفين فدلوه عليه فاذا هو فىالطرف وراء معسكر رودريك.. فجعلهمّه البحث عن يعقوب وعنده كل الأسرار .. وكانت الشمس قد غابت قبل وصوله الى المعسكر ، فزعم انه مار من هناك عرضا والجند فى

شغل عنه بالتأهب للحرب . ولما دنا من خيمة الفونس وجد ببابها بعض الحراس، ولم ير يعقوب بينهم فمر من وراء الخيمة ، وتظاهر انه شرق بريقه ، وتنحنح نحنحة خاصة مالبث أن سمع جوابا عليها من الداخل.. فعلم ان يعقوب هناك وانه فطن له ، فظل ماشيا فى طريقه . ولم يمش قليلا حتى سمع نحنحة دلته على مكان يعقوب ، والتقيا فسلما بعبارات خاصة ، يتعارفون بها ، ثم قال سليمان :

« أراكم لا تزالون هنا ، ألم تنجح فى اقناعه ؟ »

قال يعقوب : « كدت أنجح لولا أوباس وكتابه »

فقال سليمان : « وأى أوباس تعنى ؟ »

قال يعقوب : « الميتربوليت أوباس عم ألفونس »

قال سليمان : « ألم يكن ألفونس هو رجاؤنا فى النجاة من هذه الدولة ؟ »

قال يعقوب : « بلى .. هو بعينه وقد أطلعتكم على ما دبرناه منذ بضعة أشهر ورأيتم ألفونس نفسه فى تلك الجلسة يوم أريناه الدنانير فى ذلك التابوت »

فقال سليمان : « وقد رأيت من ألفونس اتحادا معنا على هذا الأمر . فما الذى حدث بعد ذلك ؟ »

فقال يعقوب : « خرجنا من تلك الجلسة وكله اقتناع بنجاح مشروعنا ، وقد أفهمته أن العرب اذا أخذوا البلاد أبقوا له كل أمواله وأعادوا الحكم اليه . وأن فى فوزهم على رودريك سعادته، وأما اذا فاز رودريك فالعاقبة تكون على رأسه ورأس عمه وسائر

أهله .. وأخبرته بأن سقوط رودريك يتوقف على أمر واحد لا يقدر عليه أحد سواه ، وذلك بأن ينضم هو ومن معه الى جانب العرب يوم المعركة الاولى .. فاقتنع وتعاهدنا على ذلك .. »

فقال سليمان : « ثم ماذا ؟ .. »

فمد يعقوب يده الى جيبه وأخرج لوحا مشمعا ، من ألواح الكتابة عندهم فى ذلك العصر ، ودفعه الى سليمان ، وقال : « وفيما نحن مطمئون بذلك جاءه هذا الكتاب من عمه أوباس »

فتناول سليمان اللوح ونظر اليه فلم يستطع قراءته لشدة الظلام فابتدره يعقوب قائلا : « لا تتعب نفسك فى قراءته فانى قد حفظته حرفا حرفا لكثرة ما قرأته وأعدت قراءته من شدة غيظى من أوباس مع فرط اعجابى به ، وها أنا أتلو عليك نص الكتاب كما هو فاصغ التى » ثم قال :

« من الميتروبوليت أوباس الى الابن المحبوب ولدنا ألفونس

« أما بعد فقد بلغنى ما ارتكبه ولدنا الكونت يوليان من الخطأ فى حملته على رودريك بجند العرب ، ولا أظنه فعل ذلك الا انتقاما لابنته وكأنى بك لما بلغك الخبر سررت به لأنه يشفى ما فى نفسك . فأخشى أن يسوقك الغضب البشرى الى ما ساق اليه ولدنا المذكور فتوافقه على ما يضيّع هذه المملكة ويبيد هذه الدولة ، فتهدمون فى يوم واحد ما بناه أجدادكم فى أجيال وتدور الدوائر علينا وعليكم جميعا . فاذا كان قد خطر ببالك شىء من ذلك فانزعه عنك فانه من حبائل الشيطان ، واتحد مع ملك القوط

للدفاع عن مملكة القوط . وأما ما بيننا وبين رودريك من التباغض فاننا نتنازع عليه بعد الفراغ من محاربة الغرباء ، فرجائى أن تصغى الى نصحى ولا تقبل قول سواى ، والسلام .. »

فلما سمع سليمان نص الكتاب قال : « والله انه قول رجل عاقل . ولكنه اذا عمل به فالضربة تعود علينا نحن اليهود ولاسيما اذا فاز رودريك وسأل بعض الأسرى وعلم بجمعياتنا ودسائسنا ومساعينا ضده — والذى أراه من قلة جند العرب مع بسالتهم وصبرهم — ان الفونس اذا لم ينضم اليهم فالكفة راجحة فى جانب رودريك .. والعياذ بالله .. »

فقال يعقوب : « ذلك هو اعتقادى ولكننى قد استنفدت الحيل فى سبيل اقناعه وأنت تعلم يا سليمان كم بذلت من الوقت والسعى من أيام غيطشة لانقاذ شعب الله من هذا الجور ، فتركت منصبى وتنازلت عن أموالى وتظاهرت بالنصرانية وجعلت نفسى خادما أهيىء الطعام وأخدم على المائدة .. صبرت على ذلك أعواما حتى اذا بدا لى ان الفرج قد أقبل، أتانا أوباس باعتراضاته بعد أن كان أكبر نصير لنا ، بل هو المحرك الأعظم لمشروعنا .. »

فقال سليمان : « أما أوباس فانه يحمد على هذا العمل بالنظر الى العدل والحق ، فهو لايريد أن تخرج هذه المملكة من يد بنى وطنه ودينه ولغته ولا يريد أن يسلمها الى أناس غرباء عنه دينا ووطنا ولغة .. أما نحن فيهمنا اخراجها من هؤلاء القوط على الاجمال لأن المسلمين خير لنا منهم ، لما شاهدته من معاملتهم

لليهود والنصارى فى الشام ومصر ، فانهم يطلقون لهم الحرية فيقوم كل منهم بطقوس ديانته كما يشاء على أن يدفع مالا قليلا يسمونه الجزية ، وزد على ذلك اننا أقرب نسبا للعرب لأننا واياهم من جدّ واحد هو ابراهيم كما تعلم.. فهم يرفقون بنا بنوع خاص، فيجدر بنا ، والحالة هذه ، أن نكون عونا لهم فى استيلائهم على هذه البلاد .. نفعل ذلك سعيا لمصلحتنا . ولا يهمنا كلام أوباس ولا غيره .. »

فقال يعقوب : « هذا هو الأمر الذى نتمناه ولا سبيل اليه الا بانحياز ألفونس الى العرب لأن ذلك يقلل من جنـد رودريك ويضعف من عزيمته ، ولا يخفى عليك أن معظم رجال هـذه الحملة يحاربون مع رودريك رياء وهم لا يحبونه . فاذا رأوا ابن ملكهم ينحاز الى العدو هموا بأن يتبعوه أو أن يتقاعدوا عن الدفاع على الأقل » . قال ذلك ويده فى لحيته يلاعب طرفيهـا بأنامله وشعرها لايزال ملبدا بالأوساخ . وسكت هنيهة وسليمان ساكت ، ثم قال يعقوب : « فالخلاصة اننا ان لم نستطع اغراء الفونس على الخروج الى معسكر العرب ذهبت مساعينا وأرواحنا وأموالنا أدراج الرياح ، والسلام »

فقال سليمان : « هذا هو الصواب .. ولو كان يتحقق هذا الأمل بالمال لهان علينا أمره ، ولكن الرشوة لا دخل لها فى هذا المشروع ، اذ لا نستطيع أن نرشو ألفونس ولا أوباس .. واذا رشونا أحدا من رجاله فانه لن يستطيع التغلب على رأيه ، وأنت

أقرب الناس اليه ولم تستطع شيئا مع كثرة دهائك ومكرك »
قال ذلك وابتسم

فأجابه يعقوب : « دعنا من المجون فاننا فى معرض جد وخطر، والوقت قد سبقنا »

قال سليمان : « ومتى ينوى رودريك القتال ؟ »

قال : « سمعت انه ينوى مهاجمة العرب غدا »

فبغت سليمان وقال : « غدا .. لقــد سبقنا الوقت وفاتتنا الفرصة . ألا تستطيع تأجيل الهجوم يوما أو يومين ؟ »

فقال يعقوب : « لا أظننى أســتطيع ذلك . وما الفائدة من التأجيل ؟ »

قال سليمان : « سأسعى فى طريق أظننى أبلغ منه المراد »

فقال يعقوب : « وما هو ؟ »

قال سليمان : « لا أقول لك الا بعــد قليل ، فاسعفنى أنت بتأخير المعركة يوما أو يومين »

فقال : « لا أظن اننى أستطيع ذلك ياسليمان لأن رودريك يرى أن يسرع فى الهجوم على العرب قبل أن تأتيهم نجدة فيقوى ساعدهم .. أشار عليه بذلك أوباس »

فقطع سليمان كلامه قائلا : « سبحان الله .. ما اوباس هذا ؟ كيف انقلب هذا الرجل من الشىء الى ضده ؟.. »

فقال يعقوب : « اذا كانت عندك حيلة فهاتهــا قبل فوات الوقت » ..

قال : « انى ذاهب الساعة وسأعود اليه غدا صباحا بالأمر الذى دبرته ، فاذا وفقت الى سبيل لتأخير المعركة فافعل .. أستودعك الله .. » قال ذلك وهمّ بالرجوع من حيث أتى ويعقوب واقف ينظر اليه حتى توارى عنه ، فتحول الى خيمة ألفونس وقد مضى هزيع من الليل

– ٧٤ –

الحيلة

أما سليمان فانه سافر توا الى معسكر العرب والليل حالك حتى وصل الى خيمة يوليان ، فلم يعترضه أحد لأنه كان يعرف كلمة السر عندهم ، وكان يوليان قد أوى الى خيمته للنوم ، وقلمّا كان يستطيعه لما تراكم فى مخيلته من المشاغل القديمة والحديثة، فلما وصل سليمان كان يوليان جالسا فى الفراش ، وقد زاده الأرق انقباضا ، ولو رآه سليمان على نور المصباح لرأى السويداء مرسومة فى وجهه بخطوط واضحة وبخاصة بعد أن رأى جنود رودريك بالأمس ، فقد هاله ما رآه من كثرتها واستعدادها ، وجند العرب لايزيد على خمسها فخشى أن يغلبهم القوط وتعود العاقبة عليه وعلى ابنته وسائر أهله .. وكلما تصور ذلك اقشعر بدنه ..

وبينما هو فى ذلك اذ قيل له : « سليمان بالباب » فأذن له

بالدخول ، فلما دخل حياه فابتدره يوليان بالسؤال : « أين فلوروندا ؟ » ..

قال : « هى بخير وستأتى فى صباح الغد أو بعد الفراغ من المعركة » وأخبره بالمكان الذى تقيم فيه وطمأنه ..

فقال يوليان : « وما الذى حملك على المجىء الآن ؟ »

قال سليمان : « حملنى عليه أمر ذو بال لا أظنه قد غاب عن بصيرة مولاى »

فقال يوليان : « ما فى بصيرتى شىء الآن غير جنود رودريك ، فانى استكثرتها وخشيت على جند العرب منهـا . واذا غلب العرب عادوا ولا يهمهم شىء ، وتقع المصيبـة على رءوسنـا ورءوس أهلنا وكل من قال بقولنا »

قال : « ذلك ما جئتك من أجله . ولكن اعلم يامولاى ان الأمر على خطورته يتوقف حله على أمر هين .. » وقص عليه حال الفونس وما دار بينه وبين يعقوب بشـأنه الى أن قال : « وقد جئت الآن ألتمس منك كتابا الى الفونس تدعوه فيه الى التسليم وتضمن له أمواله وضـياعه وضيـاع اهله اجمعين ، وتحرضه فيه على اغاظة رودريك مما لا يخفى عليك ، واعطنى الكتاب فابعثه اليه بطريقة اختارها »

فأطرق يوليان هنيهة ثم قال : « عد الىّ فى الصباح فأعطيك ذلك الكتاب »

قال : « سمعـا وطـاعة » وخرج يلتمس مستودع الخمر ،

وكانت فلورندا فى انتظاره على مثــل الجمر تتقاذفها الهواجس وتترامى بها الأوهام لم تغمض عينــاها الا قليلا . وكيف تنام وحبيبها قريب منها ، وهى لا تستطيع الوصول اليه ؟

وأمرّ ما لاقيتُ من ألم الجَوى   قُرب الحبيب وما اليه وصُول

مضى معظم الليل وهى فى هذه الهواجس ، وكلما هب النسيم وسمعت حفيف أوراق الأشجار توهمت سليمان قادما ، وكان شوقها يوحى اليها بأنه سيأتى والفونس معه . وبينما هى فى ذلك ، اذ سمعت وقع خطوات وخشخشة الأعشــاب اليابســة بقرب المستودع فأصاخت بسمعها ، وقد أسرعت دقات قلبهــا واشتدت حتى كادت تسمعها بأذنها .. فاذا بالخطوات تقترب ، ثم سمعت همسا فوقفت ودنت من النافذة وأطلت فرأت سليمان يخاطب اجيلا ، ثم صعد سليمان على السلم ففتحت له فلورندا واستقبلته وهى تقول : « ما وراءك يا سليمان ؟ .. »

قال : « ما ورائى الا الخير » وكانت نغمة صوته تدل على شىء فى نفسه فاضطربت فلورندا وابتدرته قائلة : « يظهر انك تضمر شيئا .. قل لى ما الخبر ؟ .. » فاستيقظت خالتها على هذا الصوت ، فجلست وهى تمسح عينيها بأطراف أناملها ، وقالت : « ما الخبر ياسليمان .. هل رأيت الأمير الفونس ؟ »

قال : « كلا يامولاتى »

فلما سمعت فلورندا ذلك انشغل خاطرها وقالت : « وأين هو اذن ؟ » ..

قال : « هو فى هذا المعسكر »
قالت : « وكيف عدت من هناك ولم تره ؟ قل .. افصح .. »
قال : « لأن رؤيتي اياه لا تفيدنى ولا تفيدك شيئا »
قالت : « وكيف ذلك ؟ »
قال : « لأنه فى حال لا تساعده على سماع كلام أحد غير عمه اوباس وهو يأمره أن يتفانى فى سبيل رودريك »

فلما سمعت ذلك تصاعد الدم الى وجهها واقشعر بدنها ، وصمتت برهة ثم قالت ، وهى تبتسم استخفافا بما قاله سليمان ووثوقا بانصياع الفونس لقولها دون سائر العالمين : « اظنه يسمع قولى .. ولكن ما الذى يهمنا من هذا السماع الآن ، وما علاقة ذلك بتوقفك عن مقابلته ؟ » ..

قال : « ان لذلك علاقة كبرى بحياتك وحياتى وحياة مولاى الكونت يوليان ، وحياة كل قوطى ينتمى الى غيطشة ، وكل من لايرضى ان يعيش ذليلا بين يدى رودريك »

فقالت : « وما معنى ذلك ؟ »

فوضّح لها الحقائق باختصار، الى ان قال : « اعلمى يامولاتى ان بقاءك وبقاء والدك وبقاء الأمير الفونس نفسه يتوقف على انتصار العرب وخذلان رودريك ، وذلك معلق بارادة الفونس فاذا غادر معسكر رودريك ، وانضم الى العرب هو ومن معه انخذل رودريك لا محالة ، وخلصت البلاد من شره . ولكن يظهر انه مطيع لعمه .. وهذا يطلب اليه ان يناضل مع رودريك ، فاذا

اطاعه كانت العاقبة وبالا علينا جميعا ، والعياذ بالله »

فأعظمت فلورندا أمر الفونس ، ولكنها ظلت ترجو أن ينصاع لقولها ، فعزمت على ان تكتب اليه كتابا شديد اللهجة تستجمع فيه كل عبارات التحريض والتوبيخ والاستعطاف فقالت لسليمان : « سأكتب اليه كتابا فهل تحمله اليه ؟ »

قال : « نعم يامولاتى انى رهين هذه الخدمة »

قالت : « اذا اصبحت فتعال ، فأدفع اليك الكتاب فتحمله اليه ، وأرجو ان يكون نافذا بعون الله »

فاستبشر سليمان بذلك ومضى ، وكان الفجر قد دنا فتوسد حصيرا فى عريش صاحب الكرم التماسا للراحة ، فغمضت عيناه ولم يستيقظ الا على أصوات الطبول والأبواق ، فنهض وقد أجفل وأطل على المعسكرين ، فرأى معسكر القوط يموج بالرجال وقد أخذوا يصطفون للقتال وأمامهم الرايات والأعلام ، وفى وسطهم موكب الملك رودريك بمظلته وسريره وفرسانه واعوانه . والتفت سليمان الى معسكر العرب فاذا هم فى حركة كأنهم يهمون بالدفاع ، فأسقط فى يده وتشاءم من ذلك اليوم وقال فى نفسه : « فاتت الفرصة » وقد زاد من تشاؤمه ما شاهده من الفرق العظيم بين عدد جند القوط وجند العرب ، ومقدار ما عند القوط من العدة والخيل والمئونة ، فوثب من مكانه وثوب النمر وأسرع منحدرا نحو معسكر العرب ليأخذ كتاب يوليان الى الفونس فوصل الى المعسكر وهو يلهث من التعب ، فرأى

المسلمين وأكثرهم من البربر وقد اصطفوا للحرب وعلى رءوسهم العمائم البيضاء تقيهم حر الشمس ، وتتلقى عن رءوسهم مواضى السيوف وحداد السهام كأنها درع للرأس ، وفيهم حملة الرماح وحملة الحراب ونقلة القسى العربية . وأما الفرسان فقد كانت عليهم دروع من الزرد وعلى رءوسهم الخوذات لايظهر من وجوههم غير الحدق وفى مقدمتهم فرسان يحملون الرايات وعليها الآيات . ولم يصل الى الخيام حتى سمع أصوات التكبير والتهليل وما فيهم الا من قرأ الفاتحة ، والتفت سليمان فى وجوه الناس فلم ير بينهم من يبالى بما سيلاقى فى تلك المعركة من خير أو شر.. وانصرف سليمان بذلك المنظر مدة عن يوليان ، ثم تذكر ماجاء به فانخرط فى صفوف الجند وهو يتطلع ويتشوق فلم يجد يوليان . فسأل عنه بعض الوقوف ، فقالوا له : « انه ركب فى اثر طارق يستحثان الجند على الثبات » ولم يكد يتدبر ما سمعه حتى رأى فرسانا قادمين من بعض اطراف المعسكر يتقدمهم فارس عليه درع سليمانية ، وعلى رأسه عمامة كبيرة وليس على وجهه درع فظهرت سماته وبانت ملامحه

فنظر اليه فاذا هو طارق بن زياد قائد ذلك الجند ، وكان سليمان قد رآه غير مرة وعرف هيبته ، ولكنه لم يره من قبل مثل ما رآه فى تلك الساعة فخيل له وهو ينظر اليه انه جبل على فرس وقد أزاح عمامته الى ما وراء جبينه فبان من تحتها جبين عريض تحته حاجبان غليظان تحتهما عينان قد احمر بياضهما من الجهد

وله شفتان غليظتان ، وشعر لحيته شديد السواد الا شعرات قليلة بيضاء .. وكان العرق يتصبب من جبينه الى لحيته وهو لايبالى بمسحه ولا يتلفت الى شىء أو يتفرس فى رجل ، ولكنه كان ينظر الى الجند اجمالا كأنهم رجل واحد . وقد أمسك عنان جواده بيساره واستلّ حسامه بيمينه وقد حسر عنها كمه فبان زنده اسمر شديد السمرة ، ولم يكن جواده أقل حماسة منه بل كان يستوقفه طارق فلا يقف الا وهو يتحفز للجرى وقد بلّل العرق صدره ورأسه وتصبب عن خديه حتى اختلط بزبد شـدقيه . وكان لونه كلون الليل الحالك

فتهيب سليمان من منظر ذلك البربرى الهائل ورأى بجانب طارق فارسا يختلف عنه لونا وسحنة ويشبهه حماسـة واقداما وبسـالة ، ولكنه أصغر منه سنا وأكبر نفسا . فتنحى سليمان جانبا ريثما يمر طارق ورفاقه لعله يرى يوليان بينهم فيخلو اليه ويطلب منه الكتاب ، فاذا بطارق قد وقف وتحول بوجهه نحو الصفوف الواقفة بين يديه ورفع يمنـاه والسيف مسـلول فى قبضته . فأدرك الناس انه يهم بالكلام فأصغوا فاذا هو يقول ، بعد حمد الله والثناء عليه ، وحث المسلمين على الجهاد وترغيبهم فيه : « أيها الناس أين المفر ؟ البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر

« واعلموا انكم فى هذه الجزيرة اضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . وقد اسـتقبلكم عدوكم بجيشه وأسـلحته ، وأقواته



« ولم يكد سليمان يتدبر ما سمعه حتى رأى فرسانا قادمين من المعسكر يتقدمهم فارس عليـه درع سليمانية ، وعلى رأسه عمامة كبيرة .. »

موفورة وأنتم لا وزر لكم الا سـيوفكم ولا اقوات لكم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم . وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من امركم بمناجزة هـذا الطاغية ، فقـد ألقت به اليكم مدينته الحصينة ، وان انتهاز الفرصـة فيه لممكن ان سمحتم لأنفسكم بالموت ..

« وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولأحملنكم على خطة أرخص متاع فيهـا النفوس . أبدأ بنفسى . واعلموا انكم ان صبرتم على الأشق قليلا استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا .. فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفى من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان ، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هـذه الجزيرة اصهارا وأختانا ، ثقة منه بارتياحكم للطعان واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسـان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته واظهار دينه بهذه الجزيرة . وليكون مغنمها خالصا لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم. والله تعالى ولى انجادكم على مايكون لكم ذكرا فى الدارين

« واعلموا انى اول مجيب الى ما دعوتكم اليه ، وانى عند

ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله ان شاء الله تعالى . فاحملوا معى فان هلكت بعده فقد كفيتكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم اليه . وان هلكت قبل وصولى اليه فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه واكتفوا الهم من فتح هذه الجزيرة بقتله فانهم بعده يخذلون » (١) وما فرغ طارق حتى تعالت اصوات الناس بالتهليل وقد تشددت عزائمهم وشعر سليمان عند سماعه ذلك الكلام بما فيه من بواعث الحماس ، ولكنه قلق لضياع الوقت ، وأوغل فى الناس يسأل عن يوليان ، فرآه فى جملة الركب مع طارق فأسرع اليه . فرآه يوليان فاستدناه منه فجاءه ، فقال يوليان : « استبطأناك فبعثنا الكتاب مع رسول آخر »

فانشرح صدر سليمان لعدم ضياع الفرصة وقفل راجعا الى الكرم ليأخذ كتاب فلورندا ، وكان يعتمد عليه فى تغيير تفكير الفونس لما سيحويه من عبارات مثيرة للعواطف . فوصل الى المستودع فرأى فلورندا واقفة على السلم والكتاب فى يدها فتناوله ولم يفه بكلمة ، محافظة على الوقت ، وهرول لايلوى على شىء وهو فى قيافة وهيأة لايشك الذى يراه انه من رجال رودريك ، وكانت الشمس قد تكبدت السماء وأطلت على معسكر القوط فانعكست أشعتها عن ملابسهم وبنودهم وخوذهم ولاسيما عن موكب رودريك . فجعل سليمان طريقه من وراء

(١) نفح الطيب ـ الجزء الاول

الجند والناس فى شغل لما هم فيه من التأهب ، فرأى جند القوط قد ترتب على هيئة كراديس مثل نظام جند الروم . وكان العرب الى ذلك العهد لايزالون ينظمون جيوشهم صفوفا متراصة (١) وكان جند رودريك مؤلفا من ميمنة وميسرة ، يقود كلا منهما قائد كبير أحدهما الفونس قائد الميسرة وأما القلب فكان قائده رودريك نفسه ومعه الكونت كوميس ، وقد جلس رودريك على سريره وفوق رأسه رواق من ديباج يظلله ، وهو فى غابة من البنود والأعلام وبين يديه المقاتلون بالسلاح وفيهم الفرسان بالثياب المزركشة . وأما ثياب رودريك فقد كانت مرصعة بالدر والياقوت والزبرجد ، حتى خفه فانه كان من الذهب المرصع(٢)

فأعجب سليمان بالفرق بين بساطة العرب وبذخ هؤلاء القوط، وأين جلوس رودريك على ذلك السرير من ركوب طارق على ذلك الجواد . على انه رأى فى موكب رودريك رجلا طويلا واقفا علي دكة مرتفعة عليه ملابس الكهنوت وقد رفع يديه نحو السماء وفى احداهما صليب مرصع ، ورفع صوته فى الصلاة ليتضرع الى الله لينصر جند القوط . فعرفه سليمان من طول قامته وقوة عارضته انه اوباس . فوقف بالرغم عنه، فرآه لما فرغ من الصلاة والتضرع قد أخذ فى حث الناس على الصبر والاتحاد وذكرهم بمجد آبائهم وشدة بطشهم ، وكيف فتحوا هذه البلاد بدمائهم ..

ولم يقدر سليمان على الصبر هناك فسار مسرعا حتى وصل

(١) تاريخ التمدن الاسلامى (٢) ـ نفح الطيب ـ الجزء الاول

الى مسيرة الجند.. وكانت عيناه مضطربتين تبحثان عن يعقوب ليدفع الكتاب اليه ، فلم يجده فى مصاف الجند ، فتحول للتفتيش عنه فى الخيمة . فلما وصل الى الخيمة رأى ببابها رجلا فى مثل زى الجند ، لكنه لم يكد يتفرس فيه حتى عرف انه من رجال يوليان . فعلم انه هو الذى نقل رسالة يوليان الى الفونس ، فلما وصل اليه قال له ، بحيث لا يسمعه أحد سواه : « هل أتيت برسالة يوليان ؟ .. » قال : « نعم ، والفونس فى هذه الخيمة يتلوها وعنده خادمه »

— ٧٥ —

مغالبة العواطف

وكان الفونس منذ أتاه كتاب اوباس ، وهو يغالب عواطفه ويقدر عواقب تلك الحرب ، فلا يرى فى ذلك الثبات خيرا ، ناهيك بما فيه من الخطر على فلورندا وأبيها.. وكان كلما تصور فلورندا مصابة بسوء اقشعر بدنه . وكان منذ قرأ كتابها الى والدها فى تلك الغرفة المظلمة وهو يبحث عنها فلم يقف على خبرها ، ولم يكن يستطيع الاستمرار فى البحث خوفا من رودريك ، ثم سمع بقدوم العرب وايغالهم فى بوتيكة ويوليان رائدهم ، وكان فى عزمه ان ينضم اليهم اذا لم يكن انتقاما من رودريك فاكراما لفلورندا . ثم جاءه كتاب اوباس فأثر على

تفكيره تأثيرا عظيما كأنه استهواه بالتنويم المغناطيسى . على ان عند بعض الناس قوة يتسلطون بها على آراء من يخاطبونهم ، لايتعبَّر عنها بغير الاستهواء .. وكاناوباس منأكثر الناس تسلطا على الآراء ولاسيما على ابن أخيه الفونس مع ما علمت من ضعفه

فأصبح الفونس بعد تلاوة ذلك الكتاب كأنه في بحر لا قرار له ، يشعر من جهة بأنه يجب ان ينزل عند مشورة عمه ، ويرى ذلك من الجهة الأخرى مخالفا لعواطفه ومناقضا لمصلحته حتى اذا أتاه الأمر من رودريك ان يوافيه الى شريش زاد تمكنه من رأى عمه واشتغل بالحرب والاستعداد لها ، وصورة فلورندا مع ذلك لم تبرح مخيلته ، ولكن عواطفه كانت مقيدة بسلطان عمه وأصبح بسبب ذلك منقبض النفس ضيق الصدر ، وقد نسى الابتسام واغفل الاجتهاد وسلم أمره الى الأقدار

ولما جاء رودريك بالأمس وعسكر هناك سلم الى الفونس قيادة ميسرة الجند (١) وأمره أن يكون على استعداد للهجوم فى صباح ذلك اليوم . فبكر الفونس فى الفجر وأمر قواده فرتب كل منهم فرقته فى موضعها ، ودخل الفونس خيمته ليلبس درعه ، وكان يعقوب يرافقه وعيناه شائعتان يترقب مجيء سليمان أو خبرا من عنده حتى خشى أن تضيع الفرصة .. فاذا هو برجل من بين الناس لحظ يعقوب من عينيه انه يحمل خبرا سريا ، وكان ذلك الرجل يعرف يعقوب فطلب اليه مقابلة الفونس فقال : « وهل

(١) وفى التاريخ انه تولى ذلك مع اخوته

معك كتاب اليه ؟ وممن ؟ »

قال : « معى رسالة من الكونت يوليان » ومد يده ودفع اليه لفافة من جلد فتناولها يعقوب ودخل وحده ولم يكن فى الخيمة غير الفونس فلم ينتبه له ، فأقبل يعقوب حتى دنا منه وتنحنح نحنحة تعود الفونس ان يكون من ورائها خبر هام . وكان قد خلع قباءه ونزع قبعته واخذ فى لبس الدرع فبدأ بالجزء الذى يكسو الصدر والظهر وهمّ بلبسه وقد عُلقت حواشيه بأطراف ضفائر شعره المسترسل على كتفيه فأخذ فى تخليصها . فلما سمع نحنحة يعقوب التفت اليه فاذا هو يحمل بيمناه لفافة مختومة وقد جعل يسراه على صدره ، فتناول الفونس اللفافة وفضها فأخرج منها ورقا مكتوبا ، وما أن قرأ فيه اسم يوليان حتى خفق قلبه واستيقظت عواطفه وتصاعد الدم الى وجهه وبانت البغتة فيه وبخاصة بعد أن أتم تلاوته . وكان يعقوب واقفا أمامه وقد أسند يديه متصالبتين على صدره ، فدفع الفونس ذلك الكتاب اليه كأنه يستشيره فى أمره . فتناول يعقوب الكتاب وقرأه فاذا فيه :

« من يوليان كونت سبتة الى الأمير الفونس

« لا حاجة بى أيها العزيز الى اطالة الشرح فى المصائب التى توالت على هذه الجزيرة منذ تولاها هذا الباغى فضلا عما تعلمه من تعديه على المُلك واخراجه من أيدى أهله بقتل المرحوم والدكم . فكرسى الملك لبيت غيطشة وانت أرشدهم جميعا .

ولم يكتف بتعديه على الحقوق ولكنه تجاوزها الى الاعراض ، فمن كان هذا شأنه فكيف يطاع أمره . والعرب يا الفونس دولة جديدة ملكت الخافقين بالعـدل والرفق ، وهي ستنتصر على رودريك لا محالة لأن أهل مملكته كلهم ضـده ، حتى أقرب اقربائه ، والذي ينصره انما ينصر الظلم والغدر ... وانت تعلم انى ضنين بك شفيق عليك لما بيننا من رابطة النسب الصحيح فاذا أطعتني وانضممت الى جنـد العرب فاني ضامن لك كل ضياع المرحوم والدك في الاندلس وهي ثلاثة آلاف ضيعة (١) قد سلبكم رودريك اياها،وعندئذ تعود انت وسائرآل غيطشة الى ما كنتم عليه من العز قبل استبداد هذا الطاغية ، وانما كتبت هذا اليك رفقا بك وشفقة عليك ، والسلام »

وكان يعقوب يتلو الكتاب والفونس مطرق وشعره لا يزال مسترسلا على كتفيه وقد علق بعضه بهداب الدرع ، فلما فرغ يعقوب من قراءته نظـر الى الفـونس وقال : « وما الـرأي يامولاي ؟ » ..

قال : « الرأي ؟ .. انت أدرى مني بما كتب به الينا عمي الميتروبوليت اوباس فهل أعصي عمي وأطيع يوليان .. ؟ »

فقال يعقوب وهو يحك قفاه : « لا أشير عليك بشيء فانك أدرى بالصواب وأنا معك الى الممات . ولكنني أستغرب ذلك الرأي من اوباس وهو أعلم الناس بما أصابك وأصاب سـائر

(١) نفح الطيب — الجزء الاول

القوط من هذا الطاغية ، ولولا اعتقادى بقوة عقل اوباس وصحة بدنه لقلت انه يتكلم عن خرف . على انى لا أحسبه الا كتب ذلك الكتاب ثم ندم عليه ، وعلى كل حال فالرأى لك »

فقال الفونس : « كيف تقول انه ندم وأنا لا أجتمع به الا حرضنى على الثبات ، ولا يزال صوت خطابه يرن فى آذاننا وهو يحرضنا على الاتحاد والصبر فى ساحة الحرب ، واوباس — يا يعقوب — لا يقول قوله جزافا ، ولولا اعتقاده بحسن عاقبة هذا الاتحاد لم يدعنى اليه .. »

فقال يعقوب : « عمك الميتروبوليت — يامولاى — حكيم وفيلسوف .. ولعلك اذا سمعت منى ذلك نقمت علىّ وشككت فى أمرى . ولكن دع ذلك عنك واعمل بمشورة الكونت يوليان فانه والد فلورندا ، وهو انما ركب هذا المركب الخشن فى سبيل الدفاع عن ... »

فمد الفونس يده وسد بها فم يعقوب بلطف وهو يقول : « يكفى يا يعقوب فانى عامل برأى عمّى لأنه لايجهل شيئا نحن نعلمه ، وهو أدرى منى ومنك بالأسباب التى حملت يوليان على ذلك . وقد آن لى أن أخرج لقيادة الجند » وعاد الى لبس الدرع فيئس يعقوب منه وظل واقفا وهو يحك أنفه بطرف سبابته فسمع نحنحة سليمان خارج الخيمة فاستبشر وخرج فدفع اليه سليمان كتابا قال له : « انه من فلورندا » فدخل به على الفونس فتناوله وفضه وحين وقع نظره على الخط علم انه من فلورندا

فاختلج قلبه وتزايدت ضرباته وظهرت البغتة فى وجهه ، وارتعشت اناملِه حتى ظهر ذلك فى اهتزاز الكتاب ، ثم امتد الارتعاش الى كل أطرافه وهو يتجلد ويتظاهر بعدم التأثر ، ويعقوب يرى كل ذلك ويتجاهل . أما الفونس فقرأ الكتاب فاذا فيه :

« أكتب اليك على قطعة من ردائى بمداد من دمى وهو الرداء الذى قابلتك به فى حديقة القصر ، وقد تمزق تلك الليلة بين يدى رودريك دفاعا عن جوهرة هى لألفونس أكثر مما هى لى . وقد أرسلت اليك مع حامل هذا بعض ما تناثر من شعرى فى اثناء ذلك الدفاع . ناهيك بما علق منه بتلك الشجرة اليابسة تجاه نافذة قصرى وأنا هاربة من الوحش الكاسر . هذا هو رودريك الذى أراك اليوم تحارب بسيفه وتدافع عن عرشه لتحفظ له مُلكا اختلسه من أبيك وتستبقى له يدا سيمدها ثانية الى خطيبتك . الى فتاة تزعم انك تحبها وقد فاتك انك ذاهب بها وبأبيها وسائر أهلك وأهلها الى الدمار . وكأنى بك لم تعلم بما ارتكبه رودريك أو عزم على ارتكابه ، فاعلم انه أراد ابتذال عفتى وهتك عرضى فهددنى وخوفنى وأمّلنى ومنّانى وأرانى السعادة فى طاعته ، والشقاء فى عصيانه ، ولم يصغ الى بكائى ولم يرق لتضرعى . فعصيته وآثرت الشقاء حبـا لألفونس ومحافظة على وده ولعل طول البعد أنساك عهودك على ضفة نهر التاج يوم مسست شعر رأسك بأناملك ، وقلت ان بقاء هذا الشعر حرام عليك ان لم تف بقولك . أهذا هو الوفاء ؟ كأنك تعهدت بقتلى وقتل والدى

وسائر أهلك وأهلى .. وكأنك أقسمت أن تؤيد سلطان هـذا الباغى ... فاذا علمت ما ذكرته لك وتذكرت ماضى عهودك ورأيت البقاء عليها فاترك رودريك وجنده وتعال الىّ فوق هذه الرابية فى مستودع الخمـر بين المعسكرين أو الى والدى فى معسكر العرب . وأما اذا كنت لا تزال على نصرة ذلك الظالم وكان لحب فلورندا بقية فى قلبك فلا تتركنى أموت قبل أن أراك وأشكو اليك جفاك وأخاطبك وأعاتبك ، والعين على العين ، وأتزود منك بنظرة أنسى بها ذلك الشقاء . واذا ضننت حتى بهذا فأستودعك الله الى أن نلتقى بين يدى الديان العظيم ومعنا رودريك يشهد على نفسه وعليك ، والسلام »

« فلورندا »

ما قولك فى الفونس بعد تلاوة ذلك الكتاب ومشاهدة شعر فلورندا وقد علمت حبه لها واستسلامه لهواها .. انه ما ان فرغ من تلاوته حتى أحس كأنه استيقظ من نوم ، أو هى عواطفه تنبهت من غفلتها أو انحلت من قيود الاستهواء فاستولى عليه سلطان الغرام فأنساه اوباس وكتابه وحكمته وآدابه . والحب سلطان نافذ الكلمة ماضى القضاء ، غالب على كل سلطان يستذل الملوك ويحطم سيوف القواد ويحير عقول الفلاسفة والحكماء .. ظل الفونس بضع دقائق مطرقا كأنه غائب الرشد ، ولم يبق فى مخيلته الا صـورة فلورندا بثوبها الأرجوانى الذى رآها فيه المرة الأخيرة ، وبشعرها الذهبى داخل تلك الشبكة وفى يده من

كليهما بعضه . وتذكر ما دار بينهما من التشاكى والعتاب وما تعهد لها به من أسباب السعادة باخراج المثلث من رودريك . وتعاظم خجله واضطرابه حتى توهم انه يسمع صوت توبيخها وتعنيفها ويرى دموعها .. وكان يعقوب واقفا بين يديه فلما رأى اضطرابه وتأثره خرج من الخيمة تأدبا ليخلو الفونس لنفسه ، فلما خرج لقيه سليمان وكان واقفا هناك على أحر من الجمر .. فسأله بالاشارة فأجابه يعقوب باطباق عينيه ان الحيلة أوشكت أن تنجح ، وفيما هما واقفان رأيا فارسا مسرعا نحوهما وفى يده شىء فتقدم يعقوب نحوه للسؤال عن غرضه ، فاذا هو من أتباع اوباس فلما تلاقيا تعارفا ، فسأله يعقوب عن غرضه فقال انه قادم بكتاب من اوباس الى الفونس . فاستعاذ يعقوب بالله من ذلك الكتاب مخافة ان يكون فيه ما يفسد تلك الحيلة ، فعمد الى الاحتيال فقال : « ان مولاى الأمير يغير ثيابه ولا يستطيع احد الدخول عليه » ..

قال : « انى مكلف بتسليمه هذا الكتاب حالا »

قال : « هاته وانا أدخله عليه بعد قليل »

فدفعه اليه وانصرف وهو لا يشك انه أتم مهمته . أما يعقوب فانه تظاهر بدخوله الخيمة ودار من ورائها وفض الكتاب فاذا هو بخط اوباس ونصه :

« لا يخدعنك اليهود بدسائسهم فانهم انما يريدون مصلحتهم وليست هى فى بقاء المملكة للقوط . اثبت فى الدفاع عن الوطن

كما هو ظنى فيك ، واصغ الى قولى فانى بمنزلة أبيك »

فلما قرأ يعقوب الكتاب أصبح الضياء فى عينيه ظلاما ، وعجب لتيقظ اوباس وانتباهه . وأدرك انه اذا لم تنفذ حيلته فى تلك الساعة ذهبت مساعيه ومساعى سائر اليهود هباء منثورا . فاستقدم سليمان وأطلعه على ذلك الكتاب وتفاوضا ، فأقرا كتمانه عن الفونس ، وان يعجلا بالعمل قبل ان ينشب القتال فدخل يعقوب فرأى الفونس جالسا على وسادة هناك ، وهو لايزال مطرقا ، ولم يتم لبس الدرع وشعره لايزال مسترسلا على كتفيه . فلما دخل يعقوب انتبه الفونس لنفسه ، فوقف وفى خاطره أن يطلع يعقوب على كتاب فلورندا ولكن الحياء منعه ، فابتدره يعقوب قائلا : « ان الرسول لايزال واقفا فى انتظار الجواب ، وقد أمره صاحب الكتاب أن يعود سريعا »

فخطر لألفونس أن يرى الرسول ويسأله شيئا لعله يتخلص من ذلك التردد فقال : « أدخله علىّ »

فخرج واستقدمه فدخل سليمان وسلم متأدبا فسأله الفونس قائلا : « هل رأيت كاتب هذا الكتاب ؟ »

قال : « نعم يامولاى .. »

قال الفونس : « ومن هو ؟.. وماذا تعرف عنه ؟ .. »

فأشار سليمان بعينيه نحو يعقوب كأنه يخفى أمرا لايريد التصريح به بحضوره فأشار الفونس الى يعقوب فخرج . فتقدم سليمان الى الفونس وقال : « أتسمح لى يامولاى أن أصرح

عما أعلمه ؟ » ..

قال : « قل .. »

فقال سليمان : « انى من أصدقاء الكونت يوليان صاحب سبتة وقد كلفنى أن أصحب ابنته فلورندا من دير كانت فيه قرب طليطلة فوصلنا بالأمس »

فقال الفونس : « وأين هى الآن ؟ »

فقال سليمان : « هى على مقربة من هذا المعسكر »

قال : « ولماذا لم تذهب الى والدها ؟ »

فأطرق سليمان وتظاهر بشىء يمنعه الحياء من ذكره فازداد الفونس رغبة فى الاطلاع عليه ، فقال : « قل كلّ ما تعرفه ولا تخف شيئا .. » ..

فرفع سليمان نظره الى الفونس وقد تباكى حتى ظهر الدمع فى عينيه وقال : « ماذا أقول ــ يامولاى ــ ان فلورندا أصبحت فى حال يرثى لها من الضعف ولم أرها يوما واحدا فى أثناء رجوعها غير مبللة العينين . وكنت أظنها تفعل ذلك شوقا الى والدها فجعلت أمنّيها بقرب لقائه فلا تزداد الا بكاء ، ولما صرنا على مقربة من معسكر العرب حيث يقيم والدها أبت الذهاب اليه حتى كاد يغمى عليها . ثم فهمت من خالتها العجوز ومن قرائن أخرى انها مخطوبة لك وسمعتها تقول انها تريد المجىء اليك ولو كنت فى ساحة الحرب ... لم أر فى حياتى مثل هذا الحب فانها لم تبال بأبيها فى سبيل لقائك . ولا أخفى على مولاى اننى عرفت

ذلك رغم كتمانها اياه عن كل البشر . وهى التى سلمت هــذا الكتاب الىّ وأوصتنى بأن أعود اليها بالجواب حالا وهى تبكى..» قال ذلك وتساقطت عبراته كأنه يبكى بكاء صادقا

فلم يستطع الفونس غير ارسال الدمع . ثم سمع دق الطبول ونفخ الأبواق فى المعسكر فعلم انهم شرعوا فى القتال فدق قلبه ورأى انه لابد له من القطع فى أحد الأمرين . فتشــاغل بلبس درعه واصلاح ثيابه وقد غلب عليه أن يتبع هوى قلبــه ويطيع فلورندا ، ولكن الحياء كان يمنعه

- ٧٦ -

الحب غالب

وبينمــا هو فى تلك الحــيرة اذ دخــل الخيمة رجل بملابس الكهنوت ، وهو يهرول ويتمتم ، فنظر الفونس اليه فاذا هو الأب مرتين بملابسه الرسمية الملونة الموشــاة ، وعلى صدره صليب مرصع والغضب باد على وجهه ، ولم يكن الفونس يحبه ولا يحترمه ، فلما رآه داخلا على تلك الصورة تلقاه بالسؤال قائلا :
« كيف تدخل خيمتى قبل أن تنبهنى الى ذلك مع خادمى ؟ »

فقال مرتين وهو يتمتم كالعادة : « أى خادم تعنى ؟ ومتى كان الأب مرتين يستأذن قبل الدخول ؟ أين الكتاب الذى جاءك من عمك الآن ؟ ولماذا تخلفت عن القتال وأنت قائد ميسرة الجند ؟ »

فأكبر الفونس أسئلته على تلك الصورة وكبر عليه أن يعتذر عن سبب تخلفه أو أن يصرح بعدم وصول الكتاب اليه فقال : « وما شأنك وحضورى القتال أو ما يرد علىّ من الكتب من عمّى أو من غيره ؟ » ..

فحمى غضب مرتين ولم يعد يعى ما يقوله ، وقال : « ان لى فيه شأنا تعلمه . واذا كنت لا ترى ذلك من شأنى فلا أظنك تنكره على جلالة الملك .. صاحب هذا الجند وقائده الأكبر .. »

وكان سليمان واقفا فى أحد أطراف الخيمة بحيث تقع عيناه على عينى الفونس ، وكلما قال مرتين قولا أشار سليمان بشفتيه وحاجبيه اشارة الاستخفاف والاستياء ، واذا رد عليه الفونس أبدى سليمان استحسانه واعجابه بحميته وعزة نفسه . فازداد الفونس استمساكا بذلك ، فلما عرّض مرتين بذكر رودريك وسلطانه زال حياء الفونس مما كانت نفسه تحدثه به ، ولم يكن جوابه الا الخروج من الخيمة مسرعا الى جواده ، فامتطاه وحوّل شكيمته نحو ميسرة الجند وهو يقول : « سوف ترون من هو صاحب هذا الجند وما هو مصير أهل البغى . وقد كنت أتردد فى الذهاب وحدى فها أنا ذاهب مع جندى »

وكان القتال قد بدأ وتطايرت السهام وتلألأت السيوف وعلا ضجيج الرجال وصهيل الخيول وصلصلة اللجم ودبدبة العجلات ومقارعة السيوف . والملك فى قلب الجيش وحوله فرسانه وأعلامه وبنوده ، واوباس يطوف بالجيش على جواده وقد نزع

قلنسوته فاسترسل شعره على كتفيه وظهره ، وأمسك بزمام الجواد بيسراه ورفع يمناه يحمل بها صليبا مرصعا وهو يستحث الجند على الثبات والصبر ..

وكان الفونس حينما ركب جواده وقعت عيناه على اوباس عن بعد ، فخشى أن يدركه قبل الفرار فيثنيه عن عزمه ، فساق جواده ولم يلتفت يمنة ولا يسرة حتى وصل فرقته فلاقاه ومبا وزميله قائدا الفرقة بعده فحدثهما ووعدهما خيرا ، وقد علمت انهما كانا يحبانه ويكرهان رودريك ، فأطاعاه وأمرا الجند بالخروج من المعركة فتحولت ميسرة القوط كلها نحو معسكر العرب ، فضعف جند القوط واضطربت جوانبه

أما مرتين فانه ما انفك منذ خروج الجند من طليطلة وهو يراقب حركات اوباس ويلقى الشكوك لدى رودريك فى اخلاصه وصدق نيته . فلما نزلوا سهل شريش واصطف الجند للقتال رأى الفونس قد تأخر عن الخروج للحملة ، ثم رأى اوباس يدفع الى أحد حاشيته كتابا سار به الى خيمة الفونس فظن سوءا ، وأسرع الى الملك فأراه الرسول راكبا الى تلك الخيمة ، وهرع هو اليها كما تقدم . فلما خرج الفونس وسليمان وبقى هو فى الخيمة وحده عظم عليه ما كان من استخفاف الفونس به ، فالتفت الى ما حوله فوقع نظره على رق ملفوف فتناوله وهو يحسبه كتاب اوباس ، فاذا هو كتاب فلورندا وقد نسيه الفونس هناك لغضبه وتسرعه ، ففرح مرتين بذلك الكتاب فرحا شديدا ، وعرف

منه أين تقيم فلورندا .. ولكنه ظل يعتقد (أو يريد أن يعتقد) ان اوباس كتب اليه بالانضمام الى العرب

وخرج مرتين من الخيمة ونظر الى الجند فرأى الفونس وفرقته يسيرون نحو معسكر العرب فركض الى رودريك وكان لايزال على سريره فى وسط موكبه ، فنظر الى مرتين فاذا هو يشير بأصبعه الى الفونس ورجاله ، فلما رآهم رودريك يسوقون خيولهم الى معسكر العرب استشاط غضبا وقال : « ما الذى غيّرهم ؟ »

قال : « غيّرهم كتاب حضرة الميتروبوليت ، وقد قلت لك انى لم أكن أطمئن بظواهره ، فأمر بالقبض عليه الآن وأسجنه قبل أن يفر هو أو يحرض باقى الجند على الفرار » فأمر رودريك رئيس حرسه ان يقبض على اوباس حالا ، فأسرع رئيس الحرس ومعه كوكبة لتنفيذ أمر الملك ..

أما مرتين فلم يشتف غيظه بالقبض على اوباس فأراد أن ينتقم من الفونس ، فاغتنم فرصة غضب رودريك ودفع اليه كتاب فلورندا فتلاه وهو ينتفض من شدة الغيظ لما حواه من الطعن فيه والتحريض على أذاه . فلما فرغ من تلاوته أصبحت لحيته ترقص على صدره وأنامله ترتجف وصاح فى مرتين : « أين هو المستودع الذى تقيم فيه هذه الفاجرة ؟ »

فأشار مرتين الى المستودع وهو يقول : « أظنه هذا .. »

فأمر رودريك كوكبة من فرسانه أن يذهبوا للقبض على من فيه ويسوقونهم اليه أحياء أو أمواتا

- ٧٧ -

فلورندا وبدر

أما فلورندا فظلت بعد ذهاب سليمان من عنـدها فى ذلك الصباح جالسة الى النافذة تراقب حركات الجند وسكناته ، وكان أكثر اهتمامها بالميسرة لعلمها ان الفونس هناك ، ولا تسل عن اضطرابها وقلقها . فلما رأت الميسرة تهرع الى معسكر العرب اطمأنت وأيقنت بالفرج ورقص قلبها طربا . وكانت الخالة واقفة الى جانبها ونظرها قصـير فأخبرتها بما رأته فشاركتها الفرح ، وكان اجيلا وشانتيلا واقفين على مرتفع بجانب المستودع يراقبان حركات القتال فلما رأيا ميسرة القوط انضمت الى العرب أسرعا الى فلورندا فأخبراها ، ففرحوا جميعـا ووقفوا يتحدثون عما شاهده كل منهم فى أثناء المعركة مما لم ينتبه له الآخر ..

وبينما هم فى ذلك اذا بالشيخ صاحب الكرم قد أسرع ومعه بعض غلمانه وأطفـاله يركضون حتى صـعد المستودع وهو يصيح : « أين سليمان التاجر ؟.. فانه وعدنا بالحماية »

فأطلت فلورندا من النافذة فرأت كوكبة من فرسان القوط يدفعون خيولهم بين الدالية ، لايبالون بتكسيرها ، حتى وصلوا الى المستودع وفى أيديهم السيوف مسلولة ، فلما رأتهم فلورندا علمت انهم من رجال رودريك فاصـطكت ركبتاها وارتعدت

فرائصها وصاحت : « اجيلا .. شاتنيلا .. »

وكانا قد جاءا للدفاع قبل سماع صـوتها ولم يباليا بكثرة الفرسان القادمين عليهما وساعدهما على ذلك أولاد الشيـخ ونساؤه ، وعلت ضوضاء النساء والأطفال وفلورندا واقفة فى النافذة مع خالتها وهى تقرع صدرها وتصلى الى الله ان ينجيها وتتوسل الى السيد المسيح والى العذراء مريم أن يدفعا عنها ذلك الشر . ثم نظرت الى أسفل المستودع فرأت اجيلا وشاتنيلا قد وقعا قتيلين بعد أن قتّل بضعة من رجال رودريك فحزنت عليهما حزنا شديدا . ولكنها أصبحت فى شغل من نفسها ، ولم تجد من تستغيث به غير الله فجثت فى وسط المستودع وكشفت صدرها وحلّت شعرها ونظرت الى السماء وجعلت تقول ، وهى تلطم وجهها وتقرع صدرها وصوتها مختنق من شـدة البكاء : « الهى أنت نصير الضعفاء ، يا الهى انت منقذ المظلومين . اللهم اشفق على صباى واحمنى من هؤلاء الظالمين اكراما لدم ابنك المسفوك على الصليب » . ثم اختنق صوتها وبلعت ريقها وعادت الى الصلاة وهى لا تبالى بدبدبة الأقدام على السلم الخشبى المؤدى اليها ، ولم تلتفت الى شىء مما حولهـا ، وانما وجهت حواسها وعواطفها وأفكارها كلها الى السماء وهى على ثقة تامة ان الله لا يتخلى عنها ، وكانت خالتهـا جاثيـة بجانبها تعيـد طلباتها وتؤمّن عليها

أما الفرسان فانهم قتلوا الشابين وبضـعة من أولاد الشيخ

وصعدوا الى المستودع صعود الذئاب الخاطفة ورئيسهم يتقدمهم وهو من أهل بلاط رودريك ، وكان قد شاهد فلورندا فى طليطلة غير مرة ، فلما رآها فى المستودع لم يعرفها لما طرأ عليها من التغيير بسبب الأسفار ، ثم ما كان من تغيير حالها فى تلك الساعة وهى محلولة الشعر مكشوفة الصدر حاسرة الزندين ، وقد توردت وجنتاها من اللطم والصفع ، واحمرت عيناها وتكسرت أهدابها من البكاء ، وكان الدمع قد بلّل وجهها وامتزج بالعرق المتساقط على صدرها فتبلّل شعرها وقميصها .. فلما رآها الفارس على تلك الحال وقد دخل ولم تنتبه له ناداها فلم تجبه فتقدم اليها وأمسكها بزندها وجذبها نحوه ، فالتفتت اليه فرأت بيده الأخرى سيفا لايزال يقطر دما ، وقد تلطخت أنامله الأخرى بالدم ، فلما شاهدت ذلك ازدادت رعبا ولكنها تجلدت وقالت : « ماذا تريدون ؟ .. »

قالوا : «نريد أن نمضى بك وبمن معك الى الملك رودريك»

فلما سمعت اسمه صاحت : « لا .. لا .. لا أذهب اليه .. »

فقال لها الفارس : « سيرى برضاك ، والا أخذناك قهرا ولا اظنك تستطيعين النجاة من أيدينا ونحن جماعة » قال ذلك وصاح فى رجاله فقبضوا عليها بيديها وجروها ، والعجوز تصيح فيهم وتستعطفهم وما من مجيب ، حتى نزلوا من المستودع فأركبوها فرسا وأركبوا خالتها فرسا آخر وساقوهما ، وفلورندا لا تزال محلولة الشعر مكشوفة الصدر محمرة الوجه دامعة العينين وهى

تستغيث بالله وتستنصره على القوم الظالمين ، والفرسان لايبالون بصياحها ونحيبها حتى انحدروا من تلك الأكمة واتهوا الى ساحة الحرب . فوقع نظر فلورندا على رودريك فى موكبه وقد حمى وطيس الحرب والتحم الجيشان بين فارس وراجل واختلط المسلمون بالقوط .. والمسلمون يعرفون بعمائمهم البيضاء . وقد ضعف القوط حتى اضطر رودريك للنزال والدفاع بنفسه

وكانت فلورندا قد يئست من النجاة ، فودت لو ان نبلا من النبال المتساقطة يصيب صدرها فينجيها من رؤية رودريك . ثم التفتت فرأت فارسا من جند المسلمين يجول فى المعمعة على مقربة منها وهو صبوح الوجه متناسب الملامح ، ولولا عمامته وملابسه العربية لظنته قوطيا ، وقد شد عمامته على رأسه شدا وثيقا واستل سيفه وأخذ يهاجم صفوف القوط فيبددها ، ثم التفت الى فلورندا فلما وقعت عيناه على عينيها صاحت فيه واستنجدته بلغة لم يفهمها ، ولكنه فهم ما تريد باشاراتها وملامحها ، ووقعت من نفسه موقعا عظيما من أول نظرة وأسرع للدفاع عنها فحول شكيمة جواده نحوها وشهر سيفه وصاح : « ابشرى يا مليحة أتاك بدر .. لا تخافى .. »

وجاء فى أثره بضعة من فرسان البرابرة يتلون آية التوحيد وفى أيديهم السيوف ، فلم يستطع فرسان رودريك الثبات أمامهم طويلا فلما خشوا اخفاق مسعاهم أسرع أحدهم الى الملك يستنجد به .. فلم يلبث رودريك أن جاء بنفسه وقد غادر سريره

الى جواد مثقل بالزخارف وفيها المجوهرات على تاجه ونطاقه وسيفه وقبــائه حتى نعاله (١) وكذلك عدة الفرس فقد كانت مرصعة ، والجواد من أجمل الخيول شكلا وقواما ولكن جواد بدر يفضله خفة وسرعة مثل سائر خيول العرب

وكان بدر قد شتت شمل الفرسان عن فلورندا حتى أوشكت أن تنجو ، واذا برودريك قد أقبل بأثقاله فلما وقعت عيناها على عينيه صاحت هي وخالتها بصوت واحد : « هــذا هو طاغية القوط » ..

فتحول بدر اليه فعرفه من قيافته انه الملك وتبارزا ، وكان بدر أنشط بدنا وأخف حركة فتجاولا وتصاولا ، وكان رودريك من القواد المعروفين. وكانت فلورندا على جوادها وعيناها شاخصتان الى الرجلين تتتبع كل حركة من حركاتهما ، وقد حبست أنفاسها لئلا يشغلها التنفس عن مراقبة تلك المبارزة لعلاقة ذلك بحياتها أو مماتها . فاذا هجم رودريك شاركت بدرا بتلقى ضربته وربما رفعت يدها لتتلقاها واذا هجم بدر أحست كأنها تهجم معه ، وهى فى الحقيقة واقفة فى مكانها ، ولكن جوارحهــا كانت تشارك نصيرها بكل حركة ... ثم ما لبثت أن رأت رودريك يستمهل بدرا بالاشارة ، وكان بدر يود أن يقبض عليه ويسوقه الى طارق أسيرا لينال بأسره فخرا . فلما رآه يستمهله أجابه بالاشــارة

---

(١) نفح الطيب — الجزء الاول

أيضا أن يمضى معه الى معسكر المسلمين . فأجابه انه سيفعل ذلك بعدئذ ، ففهم بدر أنه ينوى قضاء حاجة قبل التسليم فأطاعه على غير حذر ، وقد يكون استمهاله خدعة ينوى الفرار بها ولكن بدرا كان مستخفا بالرجل ومعتـدا بنفسه . فحول رودريك شكيمة جواده نحو خيامه فالتفت بدر الى رفاقه وكلمهم بالبربرية أن : « خذوا هذه الفتاة الى خيمتى » واقتفى أثر رودريك ..

وكان القوط قد ضعفت عزائمهم فلما رأوا ملكهم فارا ركنوا هم أيضـا الى الفرار . أما بدر فمـا زال يتعقب رودريك ، ورودريك يجول فى معسكره كأنه يفتش عن ضائع وبدر يتبعه ويعجب من مسيره على تلك الصورة حتى انتهيا الى خيمة خرج منها كاهن امتطى فرسا وهمَّ بالفرار ، فصـاح رودريك فيه : « مرتين.. » فالتفت مرتين واقترب من رودريك فابتدره رودريك بسيف كان مسلولا فى يده وهو يقول : « كل هذا البلاء من فساد سريرتك وضعف رأيك» فأصابت الضربة عنقه فوقع مضرجا بدمه فتركه صريعا وساق جواده نحو الوادى وبدر يتبعه حتى وصل ضفة النهر وأظهر انه لم يعد يقوى على رد جماح جواده فأرسله فى الماء فغرقا معا . ويقال انه فعل ذلك عمـدا وفضَّل الموت غرقا على أن يقتله أحد من أعدائه (١) ..

فرجع بدر وهو يصيح : « قتل الطاغية .. قتل الطاغية .. »

(١) لم يتحقق المؤرخون كيف قتل رودريك ، ومن آرائهم أنه غرق فى ذلك الماء

فازداد المسلمون جرأة وأوغلوا فى معسكر أعدائهم . ولم تمل شمس ذلك اليوم الى الأصيل حتى خلا المعسكر من القوط الا من وقع قتيلا أو أخذ أسيرا ، واستولى المسلمون على مافيه من العدة والذخيرة والزاد والأمتعة والخيول والماشية وغير ذلك ..

وكان طارق بن زياد فى أثناء المعركة يجول على جواده ويحرض المسلمين على الثبات ويكافح ويجالد ويقاتل ، لايبالى بقلة رجاله بالنسبة الى رجال القوط ، وهو لم يكن يعلم بما كتبه يوليان الى الفونس . ولكنه صمم على التفانى فى سبيل الفتح كما رأيت من خطابه الذى ذكرناه .. على انه كان قد صمم على الفناء فى هذا السبيل منذ وطىء الأندلس فأحرق سفنه ليبذر اليأس من احتمال التراجع ، فى نفسه وفى نفوس رجاله ، فتنمحى فكرة التعلق بها أو الالتجاء اليها اذا غلبهم القوط . ولذلك لم يكن يبالى بكثرة أعدائه أو قتلهم ، وانما كان همه وهم من معه الصبر والثبات ..

فلما رأى الفونس ورجاله ينضمون اليه شكر الله على ذلك وازداد ثقة بالنجاح وحرض المسلمين على الثبات حتى قضى على القوط بالفرار كما رأيت .. وكانت تلك الموقعة الضربة القاضية على مملكة القوط ، قتل فيها ملكهم ونخبة من قوادهم

– ٧٨ –

التوبيخ

فلما فرغ الجند من الحرب وتراجعوا الى خيامهم أمر طـارق بحمل الغنائم والسبايا والأسرى الى ما بين يديه على جارى العادة بعد كل قتال . فحملوا كل ما غنموه من العدة والسلاح والآنية والذخيرة والجواهر والتحف وأكثرها من الصلبان والخواتم ، وفيها الفضة والذهب بين مرصع وغير مرصع وجاءوا بالأسرى وفيهم المقيد والموثق والسليم والجريح . فتجمع من ذلك كله شيء كثير حتى أصبحت الأسلاب ركاما أمام الفسطاط ، والأسرى جماعات مشدود بعضهم الى بعض بأعناقهم أو أيديهم أو أرجلهم والرجال لايزالون يأتون بهم زرافات ووحدانا

واجتمع قواد الجند أمام فسطـاط طارق على بساط كبير افترشوه هناك ، وهو من جملة الغنائم ، فجلس طارق فى صدر المكان والى يمينه الكونت يوليان والى يساره الأمير ألفونس ، وبين يديه كبار القواد وفى جملتهم بدر ... وكان الفونس قد لقى يوليان ساعة انضمامه الى جند العرب وتحادثا مليا فى شأن المملكة وما كان من أمر اوباس، وذكرا فلورندا وانها مقيمة فى المستودع حتى يرسلوا فى طلبها وصمما على أن يستقدماها فى صباح الغد بعد الفراغ من توزيع الغنائم والأسلاب .. وكان ألفونس منذ انقضاء المعركة يتفرس فى الأسرى لعله يرى اوباس بينهم وهو

لا يتوقع أن يراه أسيرا لعلمه انه يفضل الموت على الأسر

فلما تكامل اجتماع القواد ، وأسند طارق الى كبير منهم أن يخمس الغنائم حسب العادة ، فيختص بيت المال بخمسها ويقسم الباقى بين القبائل على حسب تعدادها ، وكان يقول ذلك وامارات الاعتزاز والفخار بادية على وجهه ، والفونس ويوليان يتساءلان عن أمر اوباس هل قتل أو فر أو أسر ، وكلاهما يستبعد وقوعه فى الأسر واذا هم بجماعة من جند العرب يسوقون رجلا طويلا شعره مسترسل على ظهره وكتفيه ، ولما دنوا من الفسطاط تقدم أحدهم وهو يقول لطارق : « وجدنا هذا الأسير مغلولا فى مضارب القوط فحللنا وثاقه وجئنا به »

فقال : « الىّ به .. »

فأقبل اوباس وهو لايزال كما كان فى أثناء القتال محلول الشعر وعلى صدره صليب وبيده صليب . فلما وقع نظر الفونس عليه نهض حتى وصل اليه ، فجثا أمامه وأكب على يديه وجعل يقبلهما ودموعه تتساقط بلا بكاء ، وكذلك فعل يوليان ، وقد امتزجت فى وجهه امارات السرور بالنصر بامارات الخجل من الخيانة . وتغلب على ذلك كله انقباض النفس من السويداء . فانحنى على يد اوباس فقبلها وأمسك به ودعاه للجلوس فى صدر المكان . وكان طارق وبدر وسائر القواد قد تحولت أنظارهم الى ذلك القادم وقد زاده هيبة وجلالا باسترسال ذلك الشعر

أما أوباس فانه كان ينظر الى الذين حوله بلا اكتراث . ولما

دعاه يوليان للجلوس أمسك عن مجاراته وظل واقفا فى مكانه يتفرس فى وجوه الناس . ولو استطاع ألفونس التفرس فى عينى أوباس لرآهما تتلألآن ، ولم يخطر بباله انهما تتلألآن بالدمع لاعتقاده أن الطبيعة لاتستطيع قهره . وهى لا تستطيع قهر العاقل اذا استذلّ عواطفه ، وأخضعها لعقله ، فانه لا يرى فى أحداث الحياة ما يدعو الى الحزن أو الى الفرح ، والحياة بجملتها نسمة من نسمات الوجود فما بالك بأعراضها ، ولكن المرء لا يخلو من العواطف فهو عرضة للحزن والفرح ... فلا تلومن أوباس على البكاء وقد رأى ذهاب دولة القوط من اسبانيا بسوء تدبير رجل واحد رغم ما كان يؤمله هو من تفادى ذلك ، حتى اذا كاد يدرك ما يريد ذهبت مساعيه أدراج الرياح وجوزى جزاء سنمار . على أن أسفه ما لبث أن تحول الى انفعال ، فلما دعاه يوليان للجلوس توقف هنيهة ، ثم قال بصوت جهورى فيه خشونة من شدة التأثر: « تدعونى يا يوليان للجلوس فى مكان تحسبه بيتك وأنت قد خسرت هذا البيت فى هذا اليوم ؟ .. بعته يا يوليـــان بأرخص الأثمان وأنت تزعم أنك فعلت ذلك انتقاما من رجل ساقه ضعفه الى مسّ كرامتك فسقت نفسك وأهلك وســائر رجال القوط والاسبان ــ الى ضياع أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ــ حتى ابنتك التى ارتكبت هذه الخيانة غيرة على عرضها فقد ذهبت أسيرة فى يد رجل لا هو من دينك ولا من أمتك ولا من لغتك »

وكان أوباس يتكلم والحضور مطرقون حتى العرب مع انهم

لم يكونوا يفهمون ما يقول ، ولكنهم تهيبوا صوته ومنظره . أما يوليان فانه كاد يذوب خجلا ، فلما سمع ما يقوله عن فلورندا وأسْرها انتبه وأجفل ، وكذلك ألفونس ، وقالا بصوت واحد : « أين هى ؟ » ولم يستغربا اطلاعه على ذلك ولا استخفا بقوله لأنه لا يقول عبثا .. فلما سألاه عنها وجَّه خطابه الى الفونس قائلا : « ضاعت خطيبتك منك وما أنت لها ، وقد ارتكبت ما لم يرتكبه رودريك لأنك خُنْنتَ بلدك وأهلك وأضعتهم جميعا .. فاذا كنت فعلت ذلك عقابا لرجل أراد أن يمس عرضك فما هو مقدار العقاب الذى تستحقه أنت وقد جعلت أعراض القوط وأموالهم وأرواحهم معرَّضة للسلب والقتل ؟ .. احكم على نفسك .! »

فلم يكن جواب ألفونس غير البكاء . وأما يوليان فانه أحس بتبكيت الضمير ولا سيما حين سمع بضياع ابنته وأراد أن يسأل عنها فتهيَّب وظل مطرقا

وكان طارق وبدر يسمعان كلام أوباس ويعجبـان به ، وهما لايفهمان ما يقوله .. فالتفت طارق الى الذين كانوا حوله ، يبحث عمَّن يترجم له أقواله . فرأى سليمان التاجر فأدرك سليمان غرض طارق قبل أن يسأله فتقدم وفسَّر له كلام أوباس وهو يتوقع أن يستاء منه . فاذا هو قد زاد اعجابا به وخاطب أوباس عن طريق سليمان قائلا : « بورك فيك من رجل عاقل وشهم كامل . انى لأعجب من فشل جند القوط وفيهم رجل حكيم

مثلك ، مع كثرتهم واستعدادهم »

فقال أوباس : « لا تعجب يا ولدى .. ان للدول آجالا كما للناس ، فاذا جاء أجلها أخفقت الحيل فى استبقائها . على أنّى كنت أحسب أجل هذه الدولة أطول من ذلك ، فعجله ضعف رأى الملك وفساد نيات أهل شوراه . وهكذا أراد الله »

قال طارق : « فاذا كانت هذه ارادة المولى فلا يسوءك خروج هذه الدولة من أيدى القوط ، فان دخولها فى حوزة المسلمين من أسباب سعادتها لأن أهلها يعيشون فى ظلنا ندفع عنهم الأعداء ونضمن لهم الأمن ولا نكلفهم عن ذلك الا جعلا قليلا هو الجزية ، فاذا أدوها بات كل منهم آمنا على عرضه وروحه وماله » . قال ذلك وأمسك بيد أوباس ومشى به وهو يقول : « هلم بنا الى الفسطاط ريثما يفرغ القواد من تقسيم الغنائم » ..

فمشى أوباس ويوليان وألفونس وبدر ومعهم سليمان ويعقوب حتى دخلوا الخيمة ، وكانت كبيرة فجلس طارق فى صدرها ، وجلس أوباس الى يمينه ويوليان والفونس الى يساره وجلس بدر فى جانب من جوانب الخيمة ، وهو لايزال يرتدى الثوب الذى حارب به وعليه السيف والدرع . ولم يكد يوليان يستقر فى مكانه ، حتى ذهب تهيّبه من أوباس فعاد الى السؤال عن فلورندا قائلا : « سمعتك يا مولاى تقول ان فلورندا ذهبت أسيرة ، فهل تعنى ذلك حقيقة ؟ » ..

قال : « ومتى كان أوباس يتكلم جزافا ؟ »

فزاد اهتمام يوليان واستغرابه وأراد الايضاح فسبقه الفونس قائلا : « وكيف ذلك ؟ ومن أسرها ؟ .. »

فقال أوباس : « لا أعرف اسم الرجل ولكننى رأيتهـا وأنا مسجون فى الخيمة . رأيتها من شق فى تلك الخيمة وهى محلولة الشعر تستنجد طيور السماء ودواب الأرض لتنقذها من رودريك وكان قد بعث يسـتقدمها اليه . فجاءها فارس عربى لكنه غير بربرى ، عليه عمامة بيضاء فأنقذها وتعقّب رودريك لا أدرى الى أين ، ولكنه أمر رجاله أن يحملوها فحملوها الى هذا المعسكر . ولا ريب فى أنها أسيرة ، وهى مِلك للذى أسرها »

فقال يوليان : « هل تعرف ذلك الرجل اذا رأيته ؟.. يظهر انه أخذها اليه وأخفاها عن الأمير طارق لأنى لم أرها بين الأسرى »

قال أوباس : « أظننى أعرفه .. انه يمتاز عن كل هذا الجند ببياض لونه وشقرة شعره »

فلما سمع يوليان ذلك اتجه فكره الى بدر ، فالتفت اليه وكان جالسا على بعد عدة خطوات من يوليان يسمع كلامه ولا يفهمه لأنه لا يعرف القوطية .. على انه لو فهم أن أسيرته ابنة يوليان لم يبال لأنه ظل حاقدا عليه منذ أن حرمه بنت الشيخ صاحب الكرم ليلة نزولهم سهل شريش . وكان يوليان خشن المعاشرة بسبب ما تسلط عليه من السويداء منذ بضعة عشر عاما لمصيبة ألمّت به فأذهبت صبره على مرارة الحيـاة وأصبح ضيق الخلق سريع الانفعال . فكان رفقاؤه لا يسرون بمعاشرته ولاسيما بدر لما بينهما

من الفارق فى السن . فلما نظر يوليان اليه كان هو يتشاغل ببند سيفه يلاعبه بين أنامله وفكره فى فلورندا لأنه كان قد افتتن بجمالها . فلما رآه يوليان منشغلا عنه التفت الى طارق وأفهمه خلاصة حديثه مع أوباس وانه يظن بدرا هو الذى أسرها وطلب اليه أن يطلبها منه . فالتفت طارق الى بدر وناداه : « بدر .. »

وكان بدر قد سمع كلام يوليان لطارق وفهم قصده ، فلما سمع طارق يناديه أجابه وهو لايزال جالسا : « نعم .. »

وكان طارق شديد التعلق ببدر يحبه ويدلله ويعامله معاملة الأب لابنه أو الأخ الأكبر لأخيه الاصغر .. فلما رأى أنه أجابه بغير اكتراث ابتسم له وقال : « أراك لا تزال جالسا ، أظنك لم تسمع ندائى ؟ » ..

فقال ، وهو يلاعب بند سيفه : « سمعتك وأجبتك »

فقال طارق : « قم الىّ لأسألك سؤالا » ..

فوقف وقال : « وما سؤالك ؟ اسأل كل ما تريده واطلب ما شئته الا أسيرتى فانها لى ولا حاجة الى كثرة الكلام .. » قال ذلك وهو يصلح عمامته كأنه يستعد للنزال

فضحك طارق حتى بانت نواجذه وقال : « لا أدرى ما سبب غضبك ونحن لم نخاطبك فى شىء بعد . ألا سمعت قولنا ثم قلت ما تقوله ؟ » ..

قال بدر : « قل فانى سامع »

فقال طارق : « احك لنا كيف عثرت على هذه الأسيرة ؟ »

- ٧٩ -

الخصام

فقص عليهم بدر القصة باختصار حتى انتهى الى فرار رودريك ، وكيف انه قتل الأب مرتين ثم غرق هو فى النهر . وكان ألفونس وأوباس لا يفهمان ما يقول ، فتقاربا واستدعيا سليمان ليترجم لهما . فلما وصل الى مقتل مرتين بيد رودريك قال أوباس فى نفسه : « لم يكن يليق قتله بغير تلك اليد » .. ولما فرغ بدر من قصته قال له طارق : « لا شك انك استأثرت بهذه الأسيرة وأنت لا تعلم انها ابنة الكونت يوليان .. »

قال : « نعم .. انى لم أكن أعلم ذلك ولكن علمى لا يغير شيئا من عزمى » . قال ذلك وتحول يريد الرجوع الى مقعده فناداه طارق بصوت فيه الجد وقال له : « كيف لا يتغير عزمك والكونت يوليان هو الذى أكسبنا هذا النصر ، ولولاه لم ندخل هذه البلاد ؟ أيليق بنا أن نسىء الى ابنته ووحيدته ؟ فارجعها اليه ولك ما شئت من أسرى هذه الجزيرة وغنائمها ... »

فقال : « لا أريد شيئا غير هذه . وهى غنيمتى فى الحرب وهو الذى منعنى بالأمس غنيمتى الأولى لأنها لم تؤخذ فى أثناء القتال ، وهذه ؟ .. ألم أغنمها فى ساحة الوغى ؟ .. ألم أحارب ملك القوط من أجلها ؟ وقد قتلته وكان قتله سببا فى فشل جنده . أتستكثرون علىّ فتاة أسرتها وقد تركت لكم نصيبى من سائر

الغنائم ؟ » ..

فقال طارق ، وهو لايزال يرجو اقناعه : « اذا كنت تفعل ذلك مكيـدة فى الكونت يوليان للانتقام منه فانتقم من غير هـذا السبيل . وأنت تعلم يا أخى أن عملك هذا يخالف حق الجوار والعرفان بالجميل .. ماذا يقول المسلمون اذا علموا فضل الكونت فى هذا الفتح ، ثم قيل لهم اننا أخذنا ابنته أسيرة ؟ فارجع الى ما هو أجدر بك من كرم الخلق ، افعل ذلك اكراما لى وعملا بحقوق الأخوة »

وكان بدر شهما لا يرضى ارتكاب هذا العـار ولكنه أحب الفتاة منذ رآها ، وزاد تعلقا بها لأنه تعب فى انقاذها . والمرء اذا تعب فى سلامة شىء أحبه . فشق عليه التخلى عنها . فأطرق هنيهة ثم رفع رأسه وعلى وجهه دلائل البشر وقال : « صدقت أيها الأمير ان اتخاذ هذه الفتاة أسيرة يعد غدرا وخيانة ولكننى أحببتها ولا يمكننى التنازل عنها ، فليزوجنى الكونت يوليان اياها بسنّة الله .. فهل له بعد ذلك عذر ؟ » ..

فالتفت طارق الى يوليان كأنه يستطلع رأيه فقال يوليان : « ان الفتاة مخطوبة وهذا خطيبها » وأشار الى ألفونس

فقال بدر : « لا يهمنى .. فان الخطبة يسهل حلها .. »

فحمى غضب يوليان لهذا الجدال وضاق صدره فقال : « لقد أطلت الكلام بلا طائل ، ان ابنتى مخطوبة وهذا خطيبها . وهب انها غير مخطوبة فلا نصيب لك فيها ، والسلام »

فوثب بدر ويده على قبضة حسامه وقال : « انها أسيرتى فى ساحة الوغى أخذتها بحد هذا السيف فلا أتخلى عنها لأحد ولو كان أمير المؤمنين ، الا أن يأخذها منى بالسيف كما أخذتها »

وكان سـليمان يترجم لألفونس وأوباس كل ما يدور من الجدال ، فلما بلغ الى طلب المبارزة وقف ألفونس ويده على قبضة سيفه وقال : « أنا أولى الناس بمنازلة هذا الشاب وكلانا طالب فأيّنا غَلب فهى له » ..

فوقف يوليان وأمسك ألفونس وهو يقول : « بل أنا أولى بذلك منك فاذا قتلت هذا الغلام فقد أنلته الجزاء الذى يستحقه ، وان قتلنى فموتى خير من وقوعى فى مصيبة ثانية شر من مصيبتى الأولى ، ولا طاقة لى على احتمال الاثنين معا » قال ذلك وتقدم ويده على قبضة حسامه فسبقه بدر واستل الحسام ، فناداه طارق فلم يصغ ونادى أوباس يوليان فلم يطعه لأنهما خرجا من طور التعقل لشدة الغضب ، وأقسم كل منهما أنه لن يرجع حتى يقتل صاحبه أو يُقتل هو .. فعَلا الضجيج فى الخيمة ويعقوب وسليمان فى ناحية منها يتساران

وبدأ بدر فأطلق حسامه على يوليان بعزم شديد ولولا عمود الخيمة لقتله ــ لا محالة ــ ولكن السيف غاص فى العمود ووقف فيه وتصدعت يد بدر لشدة الصدمة ولم يعد يستطيع اخراج السيف من العمود ، فاغتنم يوليان انشغاله بذلك وانقض عليه للفصل بينهما بالقوة ، فرأى سليمان التاجر قد سبقه وتوسّط

بينهما وأمسك زند يوليان وهو يقول : « تمهل ياكونت بحياة طوماس »

ولم يكد سليمان يتلفظ بذلك الاسم حتى رمى يوليان السيف من يده واستلقى على الأرض وأخذ فى البكاء ، فبغت الجميع حتى بدر ، والتفتوا الى سليمان كأنهم يسألون عن السبب ، فأشار اليهم أن يتمهلوا فوقفوا جميعا .. وتقدم سليمان الى يوليان وأمسكه بيده وجعل يخفف عنه وهو منخرط فى البكاء . ثم التفت الى سليمان وقال : « لماذا ذكرتنى بهذه المصيبة يا سليمان ؟ » ..

فقال : « هل كنت ناسيا اياها ؟ »

فقال يوليان : « كلا ، ولكننى لم أسمع هذا اللفظ منذ أعوام ولو لم تحلفنى به لكنت قضيت على هذا الغلام وخلصت الناس من وقاحته » ..

فقال سليمان : « لو عرفته ما تمنيت التخلص منه »

قال يوليان : « وماذا يهمنى من معرفته ؟ يكفى للدلالة على أصله ما ظهر الآن من وقاحته وحماقته » ..

قال : « لا تبالغ فى شتمه وانظر الى وجهه وتفرس فيه ، فانك تذكر به حبيبا تحبه وتتوهم أنك فقدته وهو حى بين يديك »

— ٨٠ —

كشف السر الأخير

فلم يفهم يوليان مغزى تلك الاشارة وكان قد جلس وتحوّل غضبه الى حزن ، ولايزال أوباس وطارق وألفونس واقفين وقد علتهم البغتة مما شاهدوه ، وهم ينتظرون ما يقوله سليمان .. فلما سمع يوليان اشارته تنبه وتفرس فى سليمان ليرى هل يقول الجد أو الهزل ، فرأى الجد باديا فى كل جارحة من جوارحه ، وقبل أن يقول كلمة نهض سليمان والتفت الى الحاضرين وأشار اليهم أن يجلسوا ليسمعوا حديثا يريد أن يقصه عليهم ، فجلسوا الا بدرا فانه اغتنم فرصة اشتغالهم وخرج لاستبدال سيفه استعدادا لمنازلة يوليان ثانية ... أما سليمان فجلس وقال : « اسمعوا فأقص عليكم سرا حفظته منذ أعوام وفيه موعظة وحكمة » وأخذ يقص قصته بالقوطية ويترجمها الى العربية . قال وقد وجّه خطابه أولا الى أوباس :

« لا يخفى على مولاى الميتروبوليت ما قاساه اليهود فى اسبانيا من ظلم حكامهم القوط من صنوف الاضطهاد والجور حتى أجبروهم أخيرا على النصرانية أو الرحيل من بلادهم (١) . فكان منهم من رحل ومنهم من تظاهر بالنصرانية وبقى فى البلاد يسعى فى افساد أمرها على الحكومة ، ولا أخفى عليكم انى

(١) دوزى — الجزء الاول

واحد من هؤلاء المتنصّرين ، وقد قضيت مع الكونت يوليـــان أعواما وهو يحسبنى نصرانيـــا والحقيقة انى لا أزال على دين آبائى وأجدادى . وأظن مولاى الميتروبوليت يعلم أن يعقوب (وأشار اليه) حبر من أحبار اليهود ومن كبار أغنيائهم ، وقد تظاهر بالنصرانية وأدخل نفسه فى خدمة البلاط الملكى من أيام المرحوم غيطشة وسعى لديه فى رفع الضغط عن اليهود وكاد ينجح لو لم يحل دون ذلك انتهاء أجل غيطشة . فلمـــا تولى رودريك عاد الضغط الى ما كان عليه ، ونحن نعقد الجمعيـــات السرية ونبذل الأموال فى مقاومة هذه الحكومة الظالمة وهدم أركانها .. ولم نكن ندخر وسعا فى معاكستها ومعاكسة رجالها من الكونتات أو القواد أو غيرهم . ولكننا لم نكن نستطيع ذلك جهارا فكنا نفعله سرا — والآن وصلنا الى جوهر القصة — وأتيح لى بعد تظاهرى بالنصرانية الرحلة الى الآفاق فنزلت سبتة منذ بضعة عشر عاما وتقربت من حضرة الكونت وبذلت ما فى وسعى لاكتساب ثقته ففزت بذلك وصرت أتردد الى منزله كواحد من أهله . وكان له ولدان ، أحدهما أنثى وهى فلورندا ، والثانى ذكر كان اسمه طوماس . واتفق فى أثناء ذلك أن جددت الحـــكومة اضطهاد اليهود ، وأتتنا التعليمات السرية أن ننتقم لهم بأية وسيلة كانت . فتهيأ لى أن أحرم الكونت أعز ولديه وهو الصبى ، ولم تسمح نفسى بقتله فاحتلت فى سرقته وحمله معى فى أثناء أسفارى الى بعض قبائل البربر ، وبعته لأحد كهنتهم الوثنيين (ماربوط) بثمن

زهيد ، ولم أقل له من أين أتيت به فاشتراه ثم سلمه الى زياد والد الأمير طارق فرباه مع أولاده . فشب الغلام لا يعرف والده ولا أحد يعرفه سواى وسمّوه بدرا لبياضه .. وهو هذا الشاب الذى كان بين يديكم . وبما أن الكونت يوليان قد انقلب على حكومة القوط الآن ونصر أعداءهم حتى أصبح من أنصارنا فلذلك وجب علينا كشف هذا السر له »

وكان سليمان يتكلم وهم يتطاولون بأعناقهم ولا سيما يوليان فقد حسب نفسه فى حلم ، وكان وهو يسمع الحديث يبحث ببصره عن بدر فى جوانب الخيمة وقلبه يخفق . وكانت الشمس قد غابت وأظلمت الخيمة ، وأحس طارق من تلك الساعة كأن غشاوة أزيحت عن عينيه اذ عرف أصل هذا الغلام والتفت ونادى : « بدر » .. فلم يجبه أحد ثم انشق باب الخيمة ودخل بدر وقد استبدل سيفه ..

فلما رآه يوليان وثب وهو لا يدرى ماذا يقول ، ونادى : « طوماس ، طوماس » وهرع نحوه . فلما رآه بدر مسرعا اليه تراجع ويده على قراب سيفه كأنه يهم أن يضربه أو يتلقى ضربة به . فوقف سليمان وقال : « تعال يا بدر وقبّل يد الكونت وهو يقبّلك فانه أبوك »

فبغت بدر واتخذ الكلام هزءا حتى تقدم اليه طارق وقال له : « نحمد الله .. انك وجدت أباك وقد كنا منذ عرفناك ونحن نتساءل عنه » ..

فنظر بدر الى طارق وهو يقول : « الكونت يوليان أبى ، وفلورندا أختى ؟ من أين أتت هذه القرابة ؟ »

وكان يوليان فى أثناء ذلك واقفا أمام بدر وهو يتفرس فيه على نور الشفق ، ثم جاءوا بمصباح تناوله يوليـان بيده وجعل يتفرّس فى بدر ، ويتأمل ملامحه ومعانى وجهه ، فتذكر بعـد قليل أن لتلك الصورة شبها فى ذهنه فثار الحنان فى قلبه فأكب على بدر وضمّه الى صدره وجعل يقبّله ويتنشّق ريحه ويبكى بكاء الفرح ، والناس وقوف وما فيهم الا من تحركت عواطفه لذلك المنظر الغريب . ولم يتحقق بدر انه فى يقظة الا بعد قليل ، فقبّل يد والده ووقف كأنه أصيب بالجمود

مضت دقائق قليلة وأهل الخيمة يتبادلون عبارات الاستغراب ويحمدون الله على نجاة بدر من سيف والده ، والفضل فى ذلك لسليمان ، ثم التفت أوباس وهو لايزال الى ذلك الحين مكشوف الرأس محلول الشعر كما جاء ، وقال لطارق : « يأمر الأمير طارق ــ حفظه الله ــ أن تأتى ابنتنا فلورندا الى هنا ليتم التعارف »

فقال طارق : « وأين هى فلورندا يا بدر ؟ »

قال : « هى فى خيمتى » فأمر سليمان أن يأتى بها

وكانت فلورندا بعد أن جاءت تلك الخيمة قد أصلحت من نفسها وهى تتوقع أن يأخذوها الى أبيها فلما أبطأوا طلبت من الحراس ذلك ، فلم يفهموا ما تريد ، على أنهم أفهموها بالاشارات

انها لن تبرح تلك الخيمة فمكثت ومعها خالتها الى العشاء اذ جاءها سليمان ، فلما رأته استأنست به وهشّت له وقالت : « أين والدى ؟.. أين الفونس ؟ »

فضحك وقال : « ان والدك مشتاق الى رؤيتك وسترينه قريبا ، وأما الفونس فلا أرب لك فيه بعد الآن لأن الفارس العربى الذى أنقذك من يدى رودريك لم يقبل الا أن تكونى له عروسا » ..

فبغتت وقالت : « وهل قبل والدى ذلك ؟ »

قال : « وماذا يفعل ؟.. »

قالت : « وألفونس ماذا فعل ..؟ لا أقبل أحدا غيره الا .. يظهر يا سليمان انك تمزح ؟.. »

قال : « تعالى وانظرى منزلة ذلك الشاب من أبيك .. »

فخرجت فلورندا وخالتها بجانبها ومعهما سليمان حتى أقبلوا على خيمة طارق ، فدخل سليمان وأشار اليهم أن لا يتكلموا ، فدخلت فلورندا والبغتة تغلب فرحها بلقاء والدها ، فسبقها سليمان الى بدر وأخذه بيده وجاء به اليها وقال له : « قبّل فلورندا يا بدر .. »

فأجفلت هى وتراجعت فصاح بها أبوها : « قبّليه يافلورندا »

فلما سمعت ذلك وتحققت أن أباها أراده لها زوجا حوّلت وجهها عنه وأخذت فى البكاء وهى تقول : « لا .. لا حاجة لى بذلك .. »

فوقف عند ذلك يوليان وضم ابنته بيمينه فقبّلت يده وقبّلها ثم ضم بدرا بيساره وقبّله وقال : « قبّليه يافلورندا انه أخوك طوماس الذى فقدناه منذ بضعة عشر عاما .. »

وكانت فلورندا تسمع وهى طفلة أنه كان لهـا أخ وفقد ، وقد قطعوا الأمل فى حياته . فلما قال لها أبوها ذلك تفرست فى بدر وهى لا تعرف صورته ، وما زال الخجل يمنعها من تقبيله حتى نهض أوباس ونادى : « فلورندا » فأجفلت لأنها لم تكن تتوقع أن تسمع صوته هناك ، والتفتت ، فلما رأته هرولت اليه وأكبت على يده فقبّلتها والعبرات تتسابق الى عينيها وهى لاتعلم ماذا تقول ..

أما هو فباركها وقال : « نحمد الله على سلامتك وعلى وجود أخيك بعد أن قطع الأمل من لقائه ، ونحمـده على التقائك بألفونس ونجاتك من الشراك »

فتصدى آلفونس وقال : « ان نجاتها يا عماه يرجع الفضل فيها اليك وحدك فانك بركتنا ونعمة من الله لنا » .. واختنق صوته ..

فتنهّد أوباس وقال : «ليتنى استطعت تحقيق ما أتمناه . ولكننى لو اسـتطعته ما التقى بدر بأبيـه وأخته ، ولا التقيت أنت بخطيبتك . المرء يسعى فى سبيل والله يدبر من سبل أخرى . هذه ارادة الله فما علينا الا أن نشكر الله على ما حدث » ..

وكانت الخالة العجوز واقفة فلما قيل لها انهم وجدوا طوماس ودلوها عليه ضمته الى صدرها وقبّلته وتنشقت رائحته حتى تضايق هو ، وسلمت على يوليان وألفونس ، ثم تناولت يد أوباس فقبّلتها وقالت له : « بقى علينا أمر لا يتم سرورنا الا به . ولا يقدر عليه سواك »

قال : « أظنك تعنين زفاف فلورندا الى ألفونس وهذا واجب علىّ لأنى واضع عربون الخطبة فأمهلينى الى مساء الغد » فلم تستطع الاعتراض

ثم وقف طارق وقال : « يسرنى أن يتم لكم هذا الاجتماع فى يوم نصرنا الله فيه ، وأنتم منـذ الآن فى ذمتى فتقيمون حيثما تشاءون آمنين مطمئنين مكرمين ، أنتم ومن يلوذ بكم » وقضوا برهة يتحادثون فى شئون مختلفة وعينا فلورندا لم تنتقلا عن عينى الفونس ، ناهيك بما دار بين العيون من الحديث الخفى . حتى اذا انقضى هزيع من الليل ، قال يوليان : « هلم بنا ننصرف الى مضاجعنا فاننا نحتاج الى الراحة بعد ما قاسيناه من العناء فى أثناء النهار » قال ذلك وخرج فتبعه أوباس والفونس وفلورندا وبدر، ودل يوليان كلا على مكان ينام فيه . وتذكر ألفونس يعقوب فبحث عنه فلم يره بينهم ، فظنه ذهب لينام فى احدى الخيام

- ٨١ -

تمام الفتح

باتوا تلك الليلة ولا نظنهم استطاعوا نوما لفرط تأثرهم من ذلك اللقاء الغريب ، ولما أصبحوا أحب أوباس أن يشرف على تلك الموقعة ثم يمر بين المعسكرين ليعلم من مات من كبار الدولة ومن هرب ، فمشى ورافقه يوليان وبدر وألفونس فرأوا الجثث مبعثرة هنا وهناك وعرفوا من القتلى جماعة من القواد فى جملتهم كوميس فأسفوا عليه أسفا شديدا . ثم مروا بخيمة الملك فرأوا بالقرب منها الأب مرتين مجندلا فلم يشأ أوباس أن يتفرس فيه ، ولما عادوا من ذلك الطواف طلب أوباس من طارق أن يأذن لهم بنقل بعض الجثث للصلاة عليها ودفنها

فأجابه الى طلبه ، فنقل جثث القواد وجثة مرتين وصلوا عليها ودفنوها . فلما رأتهم فلورندا يدفنون الموتى ذهبت الى أوباس وأخبرته بمقتل أجيلا وشاتيلا وطلبت اليـه أن يصلى عليهما ويدفنهما ، فأجابها الى ما طلبت وقد أسف لمقتلهما فدفنهما ودفن معهما من قتل من أولاد الشيخ صاحب الكرم ، ولما أخبرته بما كان من دفاع الشيخ وأولاده عنها أوصى طارقا به وبأهله خيرا

ولما غربت الشمس تهيأ ألفونس لعقد اكليله على فلورندا فى خيمة يوليان فاحتفلوا بذلك على أبسط الطقوس ، وقلوب الجميع تفيض سرورا لذلك اللقاء ووجوههم تبتسم الا أوباس

فانه ظل ساكنا كعادته لم يتغلب عليه فرح ولا حزن ، وبعد تمام الاكليل سألهم أوباس عن المكان الذى يفضلون الاقامة فيـه فقالوا : « حيثما تريد أنت »

فقال : « أما أنا فاتركونى وشأنى »

فقالوا : « كيف نتركك وأنت حكيمنا ومرشدنا ؟ »

قال : « لو كنت كذلك لنفعتكم . اتركونى أقضى بقية هذه الحياة فى العبادة والصلاة والانقطاع عن هذا العالم ، فقد رأيت من شروره ما كفانى .. وهل أتوقع أن أرى بعد هذه الموقعة غير ما يزيد أسفى ويضاعف حزنى وأنا لا أستطيع العمل بما يدعونى اليه ضميرى ويستحثنى عليه الواجب ؟ فالأجدر بى أن أقضى بقية هذه الحياة فى مكان لا أرى فيه بشرا . ولا يراجعنى أحد منكم فى ذلك » ..

فلم يستطع أحد أن يراجعه سوى رجل تصدّى له من جملة الحضور وقال : « وأنا أين أذهب ؟ »

فتوهم ألفونس انه يسمع صوت يعقوب ولكن الزى غير الزى .. أما أوباس فعرفه فقال : « هذا يعقوب قد وفّى بنذره وأصلح لحيته واغتسل »

فتذكر ألفونس شيئا من ذلك منذ اجتمع بعمه فى طليطلة فنظر الى يعقوب فاذا هو حسن الهندام وقد أصلح لحيته وتزيا بزى حاخامى اليهود تماما ، فقال له : « وما ذلك يا يعقوب ؟ »

قال : « قد آن لى الوفاء بالنذر والتحرر من ربقة الذل ، اذ

أصبح الناس بعد هذا الفتح أحرارا يتبع كل رجل دينه . وأنا من نعم الله يهودى جنسا ودينا فأحب الرجوع الى مذهبى فأصلى فى كنيستى وأقرأ كتابى »

وباتوا تلك الليلة فلما أصبحوا لم يجدوا أوباس فى خيمته ولا فى سائر المعسكر ولا عثروا عليه من ذلك الحين .. فعلموا انه ذهب للتنسك كما قال

وأما الفونس ويوليان فظلا عونا لطارق وجنده حتى أتم فتح الأندلس .. وقلما لاقى مشقة بعد تلك الموقعة الا فى استجة فانهم ساروا اليها توا بعد موقعة شريش وحاربوا هنالك حربا شديدة . فلما فتحوها وقع الرعب فى قلوب النـــاس وهربوا الى طليطلة فأشار يوليان على طارق أن يفرق جيوشه فى مدن الأندلس لأن الناس أخلوها وساروا الى العاصمة ، فبعث جيشا الى قرطبة وجيشا الى غرناطة وجيشا الى مالقة وجيشا الى تدمير ، وسار هو ومعظم الجيش الى طليطلة فوجدها خالية لأن أهلها هاجروا الى مدينة خلف الجبل . أما الجيش الذى سار الى قرطبة فقد دلّهم راع على ثغرة فدخلوا منها البلد وملكوه . والذين قصدوا تدمير فتحوها بالسيف وفتحوا غيرها من المدن . أما طارق فلما رأى طليطلة فارغة ضم اليها اليهود وترك معهم رجالا من أصحابه وسار لاتمام الفتح كما هو مفصل فى كتب التاريخ (١)

---

(١) ابن الاثير ــ الجزء الرابع ، ونفح الطيب ــ الجزء الاول

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال

العدد القادم

من روايات تاريخ الإسلام

شارل وعبد الرحمن

لجرجي زيدان

ترقبه أول أبريل ٨٤